
دين الله .. ودين البشر
(٢)
المزارات الدينية
بين الرؤية الإيمانية والرؤية التكفيرية
ردود علمية على الطروحات التكفيرية المرتبطة بالأضرحة والزيارات
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب من خلال الأدلة الكثيرة الرد على الطروحات التكفيرية المرتبطة بالأضرحة والمزارات والتوسل والاستغاثة، والتي شكلت ذريعة للإرهابيين لتكفير المسلمين وقتلهم، وقد ذكرنا في الكتاب ثلاثة أنواع من البراهين على مدى شرعية ما يذكره أصحاب الرؤية الإيمانية.

1. المزارات الدينية.. والمصادر المقدسة: وقد رجعنا فيها إلى إلى المصادر المقدسة، سواء تلك التي يتفق المسلمون جميعا على قبولها من أمثال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو تلك التي يختلفون فيها من أمثال أقوال الصحابة أو أئمة أهل البيت، والتي تدل جميعا على شرعية بناء المقامات والمشاهد والمزارات الدينية.

2. المزارات الدينية.. والمدارس الفقهية: وقد حاولنا البرهنة فيه على شرعية المزارات من خلال العودة إلى المصادر المعتمدة لدى المدارس الإسلامية الكبرى، وهي المدرسة المالكية، والشافعية والحنفية والحنبلية.

3. المزارات الدينية.. وأدوارها العلمية والتربوية: وقد ذكرنا فيه الأدوار المهمة التي تؤديها المزارات الدينية، وذلك بتوضيح الحقائق المجهولة، وكشفها، والدعوة للتحقيق فيها؛ فالآثار من أكبر السجلات الحافظة لحقائق التاريخ، بالإضافة إلى أدوارها في التربية الروحية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها، والتي قد تصل إلى بث وعي سياسي في

دين الله.. ودين البشر

(2)

المزارات الدينية

بين الرؤية الإيمانية والرؤية التكفيرية

ردود علمية على الطروحات التكفيرية المرتبطة بالأضرحة والزيارات

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 ـ 2018

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

من المقدسات المتفق عليها في جميع الأديان ما يمكن أن يطلق عليه [المزارات الدينية]، وهي تلك الآثار التي يهتم أصحاب الأديان جميعا بتعظيمها وزيارتها والتبرك بها، وقد يقومون ببعض الطقوس نحوها.

فمن الشعائر اليهودية المهمة، والتي لا يزال متدينو اليهود يحافظون عليها زيارة مكان تابوت العهد، وحائط المبكى، وغيرها من المزارات الموجودة في القدس المحتلة، بالإضافة إلى مزاراتهم الأخرى في كل البلاد التي سكنوا فيها.

وهكذا نرى المسيحيين يزورون بيت لحم موضع ولادة المسيح عليه السلام، ويقصدون كنيسة القيامة والقديس بطرس وغيرها من الكنائس، بالإضافة إلى مراقد من يعتبرونهم قديسين، والموجودة في كل بقاع العالم.

وهذا هو حال الهندوس الذين لا يزالون يقيمون شعائرهم في نهر الكنج، ويعتقدون أن له خصوصية دون سائر الأماكن، ولهذا يعظمونه، ويزورونه، كما يزورون المعابد المخصصة لشيفا وبراهما وقشنو، والتي تسمى عندهم أقانيم الثالوث المقدس.

وهكذا يفعل أصحاب الديانة البوذية الذين يقومون برحلات جماعية إلى الأماكن التي يعتقدون أن لها علاقة خاصة ببوذا من أمثال [لومبيني] مسقط رأس بوذا في النيبال، و[بود غايا] حيث جاءه الوحي تحت شجرة تين، و[سارناث] في الهند، حيث علم للمرة الأولى، و[كوسينارا] حيث مرقده.

وهكذا يفعل أتباع الديانة الشنتوية، حيث يسيرون سنويا إلى ضريح آيسى الكبرى باليابان، حيث يتجمع أكثر من مائة ضريح مثل الضريح الداخلي نايكو المخصص لإماتيراسو، والضريح الخارجى غيكو.

ومثل ذلك المسلمون الذين وردت النصوص المقدسة في دينهم تدل على وجوب الحج، وما يرتبط به من زيارات للأماكن

المقدسة كالكعبة، والصفا والمروة، وجبل عرفات، وقبر رسول الله ﷺ وقبور الأنبياء والأئمة، وقبور من يعتقدون فيهم الولاية والصلاح، والتي لا تخلو منها بلدة من البلاد الإسلامية.

وهذه الظاهرة المتفق عليها بين الأديان جميعا، لم تجد من ينكرها أو يشاغب فيها، أو يحاول صد عنها سوى مدرسة واحدة هي المدرسة السلفية، وخصوصا في فرعها الوهابي، والتي لم تكتف بتحريم كل ما يرتبط بهذه المزارات ــ ما عدا الشعائر المرتبطة بالحج والعمرة ـ وإنما راحت تقوم بتكفير جماعي لكل من يمارسها، وهي تعلم أن الأمة جميعا تمارسها، كما أشار إلى ذلك الشيخ علي بن أحمد الحداد في رده على تكفير الوهابية لزوار أضرحة الأولياء والصالحين؛ فقال: (ومن قال بكفر أهل البلد الذي فيه القباب وإنهم كالصنم فهو تكفير للمتقدمين والمتأخرين من الأكابر والعلماء والصالحين من جميع المسلمين من أحقاب وسنين)[1]

وهو يشير بهذا إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه الذين كفروا جميع المسلمين بسبب تعظيمهم للأولياء، وبنائهم على قبورهم؛ فاعتبروهم مشركين شركا جليا لا يختلف عن شرك أهل الجاهلية، بل قد يفوقه.

فقد وضع الشيخ محمد بن عبد الوهاب في (نواقض الإسلام) ما يجعل من جميع المسلمين مشركين.. وأكثرها يعود إلى تعظيم الأولياء وتقديسهم واحترامهم، فمن تلك النواقض (الشرك في عبادة الله تعالى.. ومنه الذبح لغير الله، كمن يذبح للجن أو للقبر، أو للقباب.. ومن جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكّل عليهم كفر إجماعا.. ومن لم يكفّر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر..) [2]

1() إحياء المقبور من ادلة جواز بناء المساجد على القبور ويليه اعلام الراكع الساجد، السيد أحمد بن الصديق الغماري - السيد عبد الله الغماري، مكتبة القاهرة، ص7.

2() الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، 1417هـ/1996م، (2/ 362)

ثم ختم القول على هذه النواقض بقوله: (لا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكره. وكلها من أعظم ما يكون خطراً، ومن أكثر ما يكون وقوعاً)

فهذا ما يتصوره الشيخ ابن عبد الوهاب وأتباعه من نواقض الإسلام، والأخطر مما ذكرنا من المكفرات هو ما ورد فيها من عبارات غامضة وأحكام مطلقة، تجعل لكل من يشاء أن يكفر أحدا أن يستخدمها بسهولة، ولعله لأجل هذا خرجت الحركات التكفيرية من رحم الوهابية.

وكمثال على ذلك نرى الشيخ ابن عبد الوهاب يربط بين الذبح الذي لا يقصد به إشراك أحد في عبادة غير الله، بالشرك بالله مع أنه قد يكون عادة جرت أن يذبح في مكان ولي للبركة، وليس للتعبد، ثم يوزع لحم الذبيحة على الفقراء، وهذا ما جرى به العمل في العالم الإسلامي، بما فيها الجزائر، والتي كانت تسمى (زردة)، ولقبها علماء الجمعية بـ (أعراس الشيطان)

وكمثال على انتشار التكفير في العالم الإسلامي بسبب تلك التعاليم المتشددة، ما حصل في الجزائر إبان الاستعمار من تكفير جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لعوام الجزائر بسبب تعظيمهم للأولياء، وزيارتهم لأضرحتهم، وإحيائهم للمناسبات المرتبطة بهم.

وكمثال على ذلك نرى الشيخ مبارك الميلي الذي استنسخ المنهج الوهابي كاملا غير منقوص، وخاصة في كتابه (رسالة الشرك ومظاهره) الذي حكم به على شرك جميع الجزائريين، بل على شرك جميع المسلمين الذين يزورون الأضرحة أو يتوسلون بأصحابها.

بل إنه يعتقد ما كان يعتقد الشيخ ابن عبد الوهاب من عودة الجاهلية الأولى، بل إنه يرى أن الجاهلية الآخرة أشد، فيقول: (ولقد سادت هذه الحالة العالم الإسلامي، فانتهوا إلى جاهلية كجاهلية العرب في الدين لا في اللسان والبيان، فقد ارتقى العرب أيام جاهليتهم في معرفة معاني الكلام والإبانة عما في أنفسهم بالألفاظ المؤدية لأصل المعنى، ولكن المسلمين شمل

انحطاطهم هذه الناحية أيضا؛ فلم يكونوا مثل أولئك العرب في فصاحة اللسان ووضع الأسماء على مسمياتها؛ فتراهم يعتقدون في الغوث والقطب وصاحب الكشف والتصريف معنى الألوهية، ولكن لا يسمونهم آلهة!! ويخضعون لأوليائهم ويخشونهم كخشية الله أو أشد، ولا يسمون ذلك عبادة!!)[1]

وعلى هذا المنوال نجد الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أعلن حربا شديدة على تلك المناسبات التي تجمع الجزائريين وتوحد قلوبهم، ومن ذلك ما كتبه في البصائر تحت عنوان (أعراس الشيطان)[2]، والذي ربط فيه بين الشيطان والموالد، فقال – بأسلوبه التعميمي الذي لا يعرف الاستثناء-: (هذه (الزرد) التي تقام في طول العمالة الوهرانية وعرضها هي أعراس الشيطان وولائمه، وحفلاته ومواسمه، وكل ما يقع فيها من البداية إلى النهاية كله رجس من عمل الشيطان، وكل داع إليها، أو معين عليها، أو مكثر لسوادها فهو من أعوان الشيطان)[3]

ولم يكتف الشيخ بهذا القذف العام لجميع المجتمع الجزائري، وإنما راح يشهر سلاح التكفير والرمي بالشرك الأكبر الذي تلقفه من شيخه محمد بن عبد الوهاب، فقال: (كلما انتصف فصل الربيع من كل سنة تداعى أولياء الشيطان في كل بقعة من هذه العمالة إلى زردة يقيمونها على وثن معروف من أوثانهم، يسوله لهم الشيطان وليا صالحا، بل يصوره لهم إلها متصرفا في الكون، متصرفا في النفع والضر والرزق والأجل بين عباد الله، وقد يكون صاحب القبر رجلا صالحا، فما علاقة هذه الزرد بصلاحه؟ وما مكانها في الدين؟ وهل يرضى بها لو كان حيا وكان صالحا الصلاح الشرعي؟ وقد كانت هذه الزرد تقام في أيام الجدوب للاستسقاء غير المشروع، فأصبحت عادة مستحكمة،

1() رسالة الشرك ومظاهره، مبارك بن محمد الميلي الجزائري (المتوفى: 1364هـ)، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى (1422هـ - 2001م) (ص: 162)

2() انظر: آثارُ الإمام مُحمد البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (المتوفى: 1385ه)، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 1997، (3/ 319)

3() المرجع السابق، (3/ 320)

وشرعة محكمة، وعبادة موقوتة، يتقرب بها هؤلاء المبتدعة إلى أوثانهم في أوقات الجدوب والغيوث على السواء، يدعوهم إليها شيطانهم في النصف الأخير من كل ربيع، فإذا جاء الغيث نسبوه إلى أوثانهم، وإذا كان الجدب نسبوه إلى الله، عكس ما قال الله وحكم، ثم إذا جاء الصيف فاءوا إلى الأعمال الصيفية مضطرين، فإذا أقبل الخريف عادوا إلى تلك العادة النكراء فأنفقوا فيها كل ما جمعوه، وتداينوا بالربا المضاعف بما لا تقوم به ذممهم ولا أموالهم؛ فإذا ثقل الدين وألح الدائن، باع من يملك قطعة أرض أرضه، وباع من يملك دابة دابته، وتلك هي الغاية التي يعمل لها الشيطانان، شيطان الجن، وشيطان الاستعمار!)(1)

بعد هذا الحكم القاسي الشديد المفتقر إلى اللغة العلمية والحكمة في معالجة الظواهر، راح يعتبر ذلك التقديس الذي جبل عليه الجزائريون للأولياء والصالحين نفخة من نفخات الشيطان أو كيد من كيد الاستعمار، وأنه لا علاقة له بحب الصلاح والولاية والتدين، فلا يحب الصالحين إلا من يحب الصلاح نفسه، ولا يعظم أهل الدين إلا من سبق تعظيمهم لهم تعظيم الدين نفسه.

يقول الإبراهيمي: (سر ما شئت في جميع الأوقات، وفي جميع طرق المواصلات تر القباب البيضاء لائحة في جميع الثنايا والآكام ورؤوس الجبال، وسل تجد القليل منها منسوبا إلى معروف من أجداد القبائل، وتجد الأقل مجهولا، والكثرة منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني. واسأل الحقيقة تجبك عن نفسها بأن الكثير من هذه القباب إنما بناها المعمرون الأوربيون في أطراف مزارعهم الواسعة، بعد ما عرفوا افتتان هؤلاء المجانين بالقباب، واحترامهم لها، وتقديسهم للشيخ عبد القادر الجيلاني، فعلوا ذلك لحماية مزارعهم من السرقة والإتلاف. فكل معمر يبني قبة أو قبتين من هذا النوع يأمن على مزارعه السرقة، ويستغني عن الحراس ونفقات الحراسة، ثم يترك لهؤلاء العميان- الذين خسروا دينهم ودنياهم- إقامة المواسم عليها في كل سنة، وإنفاق النفقات الطائلة في النذور لها وتعاهدها بالتبييض والإصلاح، وقد يحضر المعمر معهم الزردة، ويشاركهم في ذبح القرابين، ليقولوا

1() المرجع السابق، (3/ 320)

عنه إنه محب في الأولياء خادم لهم، حتى إذا تمكن من غرس هذه العقيدة في نفوسهم راغ عليهم نزغا للأرض من أيديهم، وإجلاء لهم عنها، وبهذه الوسيلة الشيطانية استولى المعمرون على تلك الأراضي الخصبة التي أحالوها إلى جنات، زيادة على الوسائل الكثيرة التى انتزعوا بها الأرض من أهلها)[1]

ثم ختم مقاله بفتاوى خطيرة تفتقر إلى لغة الفقهاء، فقال: (يا قومنا، أجيبوا داعي الله، ولا تجيبوا داعي الشيطان، يا قومنا إن أصول هذه المنكرات مفسدة للعقيدة، وإن فروعها مفسدة للعقل والمال، وإنكم مسؤولون عند الله عن جميع ذلك، يا قومنا إنكم تنفقون هذه الأموال في حرام وإن الذبائح التي تذبحونها حرام لا يحل أكلها، لأنها مما أهل به لغير الله؛ فمن أفتاكم بغير هذا فهو مفتي الشيطان، لا مفتي القرآن)[2]

وقد استمر – للأسف – منهج خلف الجمعية على درب سلفها في هذه المواقف الخطيرة المفتقرة إلى اللغة العلمية، والمتسرعة في الحكم بالتكفير، حيث نجد الشيخ أحمد حماني الرجل المتساهل في الكثير من الفتاوى يتكلم بنفس تلك اللغة التي تكلم بها الإبراهيمي والميلي، فيقول - متأسفا-:(وفي الجزائر ينادي كل قوم برجلهم: أهل الغرب بسيدي بومدين وسيدي الهواري وفي الوسط سيدي عبد الرحمان وسيدي محمد وسيدي منصور، وأهل الشرق سيدي الخير وسيدي راشد، وسيدي عبد القادر للجميع،وقد كانت الدعوة الإصلاحية قضت على معظم هذه البدع ورجعت بالناس إلى ذكر الله وحده، ولكننا عدنا إلى سماع هذا حتى في إذاعتنا ووسائل إعلامنا، وما كان يجوز هذا في أمة موحدة وإنما يذكر عندنا اسم الله وحده،فإننا أمة وحدها الإسلام)[3]

والأخطر من هذا أن الشيخ أحمد حماني الذي أتيحت له فرص كثيرة بعد الاستقلال ضيعها جميعا، ولم يجد شيئا ينكره إلا

1() المرجع السابق، (3/ 321)

2() المرجع السابق، (3/ 322)

3() أحمد حماني: حياة وآثار،شهادات ومواقف، دار الأمة، 2001، ص 123.

هذه العادات ليقتلعها من جذورها من غير أن يضع أي بـديل صـالح لها، فقد اعتبر كالوهابيين جميعا أن الأضرحة ليست غـير أصـنام لا تختلف عن أصنام الجاهلية، فقال: (وكانت هذه الـزردة كثـيرة لأنّ لكلّ قوم لإلههم من أصـحاب القبـور من حـدود تبسـة إلى مغنيـة، كانت القبور تعبد من دون الله ولكلّ قوم من يقدسونه. فـ(سـيدي سعيد) في تبسة، و(سيدي راشد) في قسـنطينة و(سـيدي الخـير) بســطيف و(ســيدي بن حملاوي) بالتلاغمــة، و(ســيدي الــزين) بسـكيكدة و(سـيدي منصـور) بولايـة تـيزي وزو و(سـيدي محمـد الكبير) في البليدة، و(سيدي بن يوسف) بمليانة و(سيدي الهواري) بـوهران و(سـيدي عابـد) بغلـيزان و(سـيدي بومـدين) بتلمسـان و(سـيدي عبـد الـرحمن) بـالجزائر، ويزاحمـه (سـيدي امحمـد)، وليعذرني الإخـوة ممن لم أذكـر آلهـة بلـدانهم وهم ألـوف، ففعـل هؤلاء القوم مع هؤلاء المشايخ يشبه فعل الجاهلية مع هبل واللات والعزّى وخصوصا إقامة الزردة حولها والذبح لها والتمسح بالقبور، أفترانا نحيي آثار الشرك ونحن الموحدون؟)

ثم أفتى بأن (الطعام واللحم المقدّم في الزردة لا يحلّ أكلـه شرعا لأنّه مما نصّ القرآن على حرمة أكله فإنـه سـبحانه وتعـالى يقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيـرِ وَمَـا أُهِـلَّ لِغَيْـرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [المائدة: 3] فاللحم من القسم الرابع أي مما أهل لغـير الله، أي ذبح لغير الله بل للمشايخ، فـزردة (سـيدي عابـد) أقيمت له وهكذا (سيدي أحمد بن عـودة) و(سـيدي بومـدبن).. أقيمت لـه الزردة ليرضى وينفع ويدفع الضّر، وتقول إنّ هذه الذبائح قـد ذكـر اسم الله عليها، فأقول: ولو ذكر اسم اللـه فـإنَّ النّيـة الأولى وهي تقديمها إلى صاحب المقام، يجعلها لغير الله)

بناء على هذا وغيره حاولنا في هذا الكتـاب الـرد على الرؤيـة التكفيريـــة المرتبطـــة بـــالمزارات الدينيـــة المنتشـــرة في بلاد المسلمين، وبيان مشروعيتها، والرد على الشبهات المثارة حولهـا، والتي تحاول تهـديمها، وصـرف النـاس عنهـا بحجـة كونهـا قبوريـة وشركا.

وقد اعتمدنا في ذلك دليلين كبيرين، كلاهمـا من الأدلـة الـتي يعتمدها الفقهاء في استدلالاتهم:

الأول: هو الأدلة الشرعية سواء تلك التي يعتمدها المجتهدون من الفقهاء، وهي المصادر المقدسة من الكتاب والسنة، وما يلحق بها من آثار الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت، أو تلك التي يعتمدها المقلدون، وهي أقوال الفقهاء من المدارس الفقهية المختلفة.

الثاني: هو المصالح الشرعية المرتبطة بالمزارات الدينية، والتي يعتمدها عادة ما يطلق عليه الفقه المقاصدي، ذلك أن كل فروع الشريعة هدفها خدمة المصالح بأنواعها المختلفة.

بناء على هذا رأينا تقسيم البحث بحسب الأدلة التي اعتمدناها فيه إلى ثلاثة فصول، وهي:

الفصل الأول: المزارات الدينية.. والمصادر المقدسة: وقد حاولنا البرهنة فيه على شرعية المزارات من خلال العودة إلى المصادر المقدسة، سواء تلك التي يتفق المسلمون جميعا على قبولها من أمثال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو تلك التي يختلفون فيها من أمثال أقوال الصحابة أو أئمة أهل البيت، والتي تدل جميعا على شرعية بناء المقامات والمشاهد والمزارات الدينية، وقد ناقشنا فيه ما يذكره التكفيريون من أدلة، وبينا مدى تهافتها.

الفصل الثاني: المزارات الدينية.. والمدارس الفقهية: وقد حاولنا البرهنة فيه على شرعية المزارات من خلال العودة إلى المصادر المعتمدة لدى المدارس الإسلامية الكبرى، والتي يدعي التيار السلفي قبوله بها، وهي المدرسة المالكية، والشافعية والحنفية والحنبلية، أما المدرسة الإمامية والزيدية والظاهرية وغيرها؛ فهي تتفق جميعا على هذا، وهو من الشهرة عندهم بحيث لا يحتاج إلى ذكر أقوالهم فيها.

والسبب الذي جعلنا نخصص هذا الفصل، وعدم الاكتفاء بالفصل الأول الذي يذكر موقف المصادر المقدسة هو أن التيار السلفي ـ يحاول أثناء ممارساته التكفيرية ـ إقناع جمهوره، بإيراده لأقوال من يتبناهم من المشايخ من أمثال ابن تيمية وابن عبد الوهاب وابن باز وابن العثيمين وغيرهم من القدماء والمحدثين،

وهو يطنب في ذلك لدرجة يتصور الكثير من العوام أن هذا هو إجماع الأمة، مع أن الكثير ممن يذكرهم لا يمكن تعدادهم في طلبة العلماء؛ فكيف بتعدادهم في العلماء؟

الفصل الثالث: المزارات الدينية.. وأدوارها العلمية والتربوية: وقد ذكرنا فيه الأدوار المهمة التي تؤديها المزارات الدينية، وذلك بتوضيح الحقائق المجهولة، وكشفها، والدعوة للتحقيق فيها؛ فالآثار من أكبر السجلات الحافظة لحقائق التاريخ، بالإضافة إلى أدوارها في التربية الروحية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها، والتي قد تصل إلى بث وعي سياسي في الأمة يخرجها من تبعيتها، ويحقق لها سيادتها الكاملة.

أما مناسبة الكتاب لهذه السلسلة، فواضح، ذلك أن هذه السلسلة تحاول التمييز بين شريعة الله الصافية التي لم تشبها الشوائب، وبين الشريعة المدنسة بالأهواء والأغراض، وقد رأينا أن الجهة التي تبنت الرؤية التكفيرية تمثلت في الفئة الباغية بفروعها السياسية والفكرية، والتي راحت تطمس كل آثار الصالحين، وتهدمها، ولما عجزت عن فعل ذلك راحت تستأجر من الفقهاء من يقوم بدلها بهذا الدور، إلى الدرجة التي أفتى فيها بعض كبارهم بتحريم زيارة رسول الله ﷺ، واعتبارها بدعة.

بالإضافة إلى ذلك رأينا أن أكبر ما يخدم المشروع الإسلامي في مجالاته المختلفة هو تلاقي المسلمين، وتوحد قلوبهم ومشاعرهم، ولذلك فإن كل فرصة تؤدي هذا الغرض، وتخدم هذا الهدف، فرصة شرعية، ينبغي الاهتمام بها ودعمها، ذلك أن محاربتها والصد عنها هو صد عن تجمع المسلمين وتوحدهم حول أئمتهم وأوليائهم وصالحيهم.

الفصل الأول

المزارات الدينية.. والمصادر المقدسة

المشكلة التي ينطلق منها أصحاب الرؤية التكفيرية ليست في حرصهم على التوحيد، ولا على سلامة العقيدة، فهم يتلاعبون بكليهما بكل صنوف التلاعب..

أما التلاعب بالتوحيد، فهم ممتلئون بعشرات آلاف الأنداد الذي يجلونهم ويعظمونهم من دون الله، فأكثر سلفهم الذين يحرمون نقدهم، أو عرضهم على قوانين الكتاب والسنة، لا يفعلون ذلك بهم إلا لاعتبارهم ـ من حيث لا يشعرون ـ أندادا من دون الله..

وهكذا عندما يفعلون مع أولئك الظلمة المستبدين من أصحاب الملك العضوض، قدمائهم ومحدثيهم، حين يدافعون عنهم، ولو على حساب القيم الإسلامية، هم لا يفعلون ذلك إلا لاعتبارهم أندادا من دون الله.

ومن شك في ذلك، فليذهب إلى الأسواق، والمحال التي يجتمع فيها الصعاليك والمنحرفين، وسيرى كيف يُسب الله ورسوله والدين، ويمر ذلك التكفيري بهم، فلا يكاد يبالي، بل ربما يجلس إليهم، ويضحك معهم، لكنه لو مر بمجلس من مجالس العلم، فرآهم ينتقدون تلك الأنداد التي عبدها من دون الله، صار حينها أسدا هصورا، يغرز أنيابه في أولئك الذين لم يستسيغوا أن يدخل في دين الله ما ليس منه، أو أن تشوه قيمه تحت أي اسم أو أي شعار.

وهكذا إن رأى ناسا ملتفين بضريح، وهم يقرؤون القرآن، أو يرفعون أيديهم بالدعاء، يتوسلون به إلى الله، لعلمهم أن الله تعالى كما أتاح الوسائل في شؤون الدنيا، أتاحها في شؤون الدين، يصم آذانه عن قراءتهم للقرآن الكريم، وعن ذكرهم الكثير لله، وعن حبهم في الله لذلك الذي يعتقدون فيه الولاية والصلاح، ويرى شيئا واحدا يزينه له الشيطان، وهو أنهم يشركون بالله، مع

أنهم في قمة العبودية لله، وقمة التواضع مع من يعتقدون فيه الولاية لله.

فإذا سألته عن سر ذلك الحكم الخطير، دلك على تلك الأنداد التي جعل لها حق التشريع والحكم، وأعطاها أعظم معاني العبودية، وهي الطاعة المطلقة، التي اعتبرها الله تعالى شركا، فقال مخبرا عن أهل الكتاب: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 31]، وقد ورد في الحديث تفسيرها، فقد سُئل حذيفة عن معناها، وعن كيفية عبادتهم للأحبار والرهبان، فقال: (أَحَلُّوا لهم الحرام فاستحلوه، وحَرَّمُوا عليهم الحلال فحرموه)[1]

بل روي ذلك عن رسول الله ﷺ، فعن عَدِيّ بن حاتم قال: أتيتُ النبي ﷺ وفي عُنُقِي صَلِيبٌ من ذَهَبٍ، فقال: (ما هذا يا عدي اطرح عنك هذا الوثن)، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: 31]، ثم قال: (أما إنهم لم يكونوا يَعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرَّموه)[2]

وهذا حديث يبين أن الشرك الجلي الحقيقي هو ذلك الخضوع المطلق لتلك الأنداد الكثيرة من أصحاب الملك العضوض، وأعوانهم من علماء السلاطين الذين أخذوا عنهم أمثال تلك الأحكام الخطيرة، غافلين عن آلاف العلماء، ومن جميع المدارس الإسلامية، والذين يخالفونهم في ذلك.

وهكذا نجد الذين يشمتون بأولئك المتواضعين الذين يقفون على أبواب الأضرحة أو شبابيكها يبكون ويتضرعون إلى الله، وهم في غاية التوحيد والتنزيه والإيمان، يقعون في كل صنوف التجسيم والخرافة، والتي تمثل أعظم مظاهر الشرك والتشويه لحقيقة الألوهية وعظمتها.

ولذلك كان قوله ﷺ: (يبصر أحدكم القذى في عين أخيه،

---

[1] () رواه الترمذي، وابن جرير، والبيهقي؛ انظر:جامع الأصول (2/161)

[2] () رواه الترمذي رقم (3094)، وابن جرير رقم (16631) و(16632) و(16633)

وينسى الجذع في عينيه)(1) صادقا في أولئك الذين يعتبرون أنفسهم حماة للتوحيد، بينما هم غارقون في التجسيم والشرك إلى أذقانهم.

ولذلك لا ينطبق عليهم إلا تلك النصوص التي يحذر فيها رسول الله ﷺ أمته من ظهور أمثال هؤلاء المكفرين، والذين يعمدون إلى نصوص وردت في المشركين ليطبقوها على المؤمنين، ومنها ما رواه حذيفة بن اليمان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك)، قال حذيفة: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟، قال: (بل الرامي)(2)

وهكذا قال رسول ﷺ مبينا عظم خطرهم على الدين: (رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه)(3)، وفي رواية: (كفوا عن أهل لا إله إلا الله لا تكفروهم بذنب فمن أكفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب)

فقد وضع رسول الله ﷺ ضابطا واحدا لإدخال المؤمن في الدين، وحماية عرضه من التكفير، وهو قول لا إله إلا الله، أو هو التوجه للقبلة في الصلاة، وهي محل اتفاق بين المسلمين جميعا.

ولو أن هؤلاء الذين يدعون الانتساب للسلف، وفهم السلف، عادوا إليهم، لوجدوا أن كل تلك الأحكام المجحفة التي نطقوا بها في حق المسلمين لم تكن من مذاهب السلف الصالحين، بل هي من مذاهب الفئة الباغية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ، والتي تخرج على الأمة بالسيف والتكفير.

1() رواه ابن المبارك (ص 70، رقم 212)، والبخارى فى الأدب المفرد (1/207)، وابن حبان (13/73، رقم 5761)

2() رواه بن حبان في صحيحه: 1/ـ 282. ورواه البخاري في التاريخ الكبير (2907)، والبزار (2793)، قال ابن كثير: إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وحسنه الألباني في الصحيحة (3201)

3() رواه ابن أبي الدنيا وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس، انظر: تخريج أحاديث الإحياء، المغني عن حمل الأسفار (ص: 1007)

ففي الحــديث أن رجلا ســأل جــابر بن عبــد اللــه الصــحابي الجليل: هل كنتم تدعون أحدا من أهل القبلة مشركا؟ قـال: معـاذ الله، ففزع لذلك، قال: هل كنتم تـدعون أحـدا منهم كـافرا؟ قـال: لا(1).

وعن يزيد الرقاشي أنه قال لأنس بن مالك: يا أبا حمزة ! إن أناسا يشـهدون علينـا بـالكفر والشـرك، قـال: أولئـك شـر الخلـق والخليقة(2).

وهكذا روي عن عمرو بن مرة الجملي، فقد ذكره مسـعر بن كدام، فقال: (ما أدركت من الناس من لـه عقـل كعقـل ابن مـرة، جاءه رجـل فقـال: ــ عافـاك اللـه ــ جئت مسترشـداً، إنـني رجـل دخلت في جميع هذه الأهواء فما أدخـل في هـوى منهـا إلا القـرآن أدخلني فيه ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجني منه حتى بقيت ليس في يدي شيء، فقال له عمرو بن مرة: اللـه الـذي لا إلـه إلا هو جئت مسترشـداً؟ فقـال: واللـه الـذي لا إلـه إلا هـو لقـد جئت مسترشداً. قال: نعم أرأيت هل اختلفوا في أن محمداً رسول الله وأن مـا أتى بـه من اللـه حق؟ قـال: لا. قـال: فهـل اختلفـوا في القرآن أنه كتاب الله؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في دين الله أنـه الإسلام؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الكعبة أنها قبلة؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الصلوات أنهـا خمس؟ قـال: لا. قـال: فهـل اختلفوا في رمضان أنه شـهرهم الـذي يصـومونه؟ قـال: لا. قـال: فهل اختلفوا في الحج أنه بيت الله الـذي يحجونه؟ قـال: لا. قـال: فهـل اختلفـوا في الزكـاة أنهـا من مـائتي درهم خمسة؟ قـال: لا. قال: فهل اختلفوا في الغسل من الجنابة أنه واجب؟ قال: لا. قال مسعر: فذكر هذا وأشباهه، ثم قرأ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَـابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمــران: 7]،ـ فهل تدري ما المحكم؟ قال: لا، قـال: فـالمحكم مـا اجتمعـوا عليـه والمتشـابه مـا اختلفـوا فيـه شـد نيتـك في المحكم وإيـاك والخوض في المتشـابه. فقـال الرجل: الحمـد للـه الـذي أرشـدني على يديك فوالله لقد قمت من عنـدك وإني لحسـن الحـال. قـال:

(1) رواه أبو يعلى والطبراني في الكبير، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،1/ 107.

(2) رواه أبو يعلى، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 1/ 107.

فدعا له وأثنى عليه[1].

وهكذا أفتى جميع العلماء المحققين ـ الذين يعتبرهم أصحاب الرؤية التكفيرية أنفسهم ــ بعدم جواز التكفير في المسائل المختلف فيها، فقد قال الشوكاني: (اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن (من قال لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما).. ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير)[2]

وقال الباقلاني: (ولا يكفر بقول ولا رأي إلا إذا أجمع المسلمون على أنه لايوجد إلا من كافر، ويقوم دليل على ذلك، فيكفر)[3]

وقال ابن الوزير: (في الحكم بتكفير المختلف في كفرهم مفسدة بينة تخالف الاحتياط.. أن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، نعوذ بالله من الخطأ في الجميع، ونسأله الإصابة والسلامة والتوفيق والهداية)[4]

وقال: (وكم بين إخراج عوام فرق الإسلام أجمعين، وجماهير العلماء المنتسبين إلى الإسلام من الملة الإسلامية، وتكثير العدد بهم، وبين إدخالهم في الإسلام ونصرته بهم وتكثير أهله، وتقوية أمره، فلا يحل الجهد في التفرق بتكلف التكفير لهم بالأدلة المعارَضة بما هو أقوى منها أو مثلها مما يجمع الكلمة، ويقوي الإسلام، ويحقن الدماء، ويسكن الدهماء حتى يتضح كفر المبتدع اتضاح الصبح الصادق، وتجتمع عليه الكلمة، وتحقق إليه الضرورة)[5]

---

[1] () أحسن التقاسيم ص366.

[2] () السيل الجرار (4/578).

[3] () فتاوى السبكي (2/578).

[4] () إيثار الحق على الخلق (405).

وقال الغزالي: (والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأِ في سفك محجمة من دم مسلم)[1]

وقال: (الوصية: أن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك، ما داموا قائلين: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، غير مناقضين لها.. فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه)[2]

بناء على هذا نحاول في هذا الفصل العودة للمصادر المقدسة التي يعتمدها جميع المسلمين، لنعرض عليها المسألة، ونتحاكم إليها في حلها، وقد رأينا أنه يمكن تفكيكها إلى ثلاثة مسائل فرعية [3]:

المسألة الأولى: البناء على المقابر، وهل هو مشروع أو غير مشروع، وفي حال كونه غير مشروع هل يرقى إلى الشرك الجلي، كما يزعم أصحاب الرؤية التكفيرية أم لا يرقى إلى ذلك؟

المسألة الثانية: التوسل والاستغاثة باعتبار أن التكفيريين يعتبرون كل توسل واستغاثة سواء أمام الضريح أو بعيدا عنه شركا جليا.

المسألة الثالثة: زيارة الأضرحة، والتي يعتبرها التكفيريون شركا، ويطلقون على من يقومون بها لقب القبوريين.

هذه هي المسائل الكبرى التي ينطلق منها أصحاب الرؤية التكفيرية في الحكم بالشرك الجلي على كل ما يرتبط بالمزارات الدينية، سواء ما تعلق ببنائها، أو بما يفعل فيها.

5() إيثار الحق على الخلق (402).

1() الاقتصاد في الاعتقاد (223-224).

2() فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (128).

3() ويضاف إلى هذا مسألة رابعة، لم نذكرها هنا لعدم ارتباطها بالتكفير، وهي: إحياء المناسبات المرتبطة بالصالحين أو غيرهم، والتي يعتبرها التكفيريون أيضا من جملة الأمور التي ترتبط بالغلو، ويحكمون عليها بالبدعة.

وقد حاولنا أن نعتمد في الرد على على أدلتهم ـ بعد عرضها ـ من خلال صنفين من الأدلة:

الصنف الأول: المصادر المتفق عليها، وهي الكتاب والسنة المطهرة، وكلاهما محل اتفاق بين الأمة جميعا، وقد بدأنا بهما باعتبارهما الأصل الذي يرجع إليه عند كل اختلاف، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1]

الصنف الثاني: المصادر المختلف فيها، وهي تلك المصادر التي حاولت فهم الكتاب والسنة، أو تفسيرها، باعتبارها أقرب إلى زمن النبوة، وقد أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83]

فأولي الأمر في الآية الكريمة ينطبق على السلف من الصحابة والتابعين في المدرسة السنية، كما ينطبق على أئمة أهل البيت في المدرسة الشيعية.

واتفاقهما في هذا المحل يعطيه مصداقية كبيرة، ذلك أن هذه الأمة لا تتفق على ضلالة، لأن ذلك يؤدي إلى انطماس الحق، ووقوع جميع الأمة في الباطل يعني انتصاره على الحق، وقد أخبر أن الله تعالى أن الحق لن ينطفئ نوره أبدا، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: 8]، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81]

وأخبر عن بني إسرائيل أنهم لم يجمعوا على تحريف الدين، بل بقيت منهم طائفة صالحة، إلى أن جاء الإسلام فاتبعته، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 159]

وقد ورد في الحديث ما يشير إلى هذا، بل يعد به، فقد قال ﷺ: (إن الله قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة)[1]

وهو جزء من حديث دل معناه على صحته، وهو قوله ﷺ: (إن الله أجاركم من ثلاث خلال: أن لا يدعو عليكم نبيكم، فتهلكوا جميعا، وأن لا يظهر أهل الباطل على أهل الحق، وأن لا تجتمعوا على ضلالة)

أولا ـ المصادر المقدسة والبناء على القبور:

من أهم الأركان التي يتأسس عليها الموقف التكفيري من المزارات الدينية الموقف من البناء على القبور، إذ أنهم يتجاوزون به طرح المسألة في أبواب الفروع الفقهية، وربطه بالحلال والحرام، والمشروعية وغير المشروعية، إلى كونه من نواقض الإيمان، ومن أسباب الكفر الجلي المخرج من الملة.

ويبنون عليه تحريم الصلاة في المساجد التي بها قبور، بل يجوزون هدمها، ولو على رؤوس المصلين، باعتبارهم مشركين، مثلما نراه في أحيان كثيرة في المساجد التي بها صوفية أو شيعة أو غيرهم.

وهم يبنون هذا على تلك النصوص التي ذكرها سلفهم القديم والجديد، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن القيم بعد أن ذكر قصة مسجد الضرار الذي نهى الله تعالى نبيه ﷺ أن يصلي فيه، وكيف أنه ﷺ هدمه وحرقه: (ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله ﷺ فيها، مسجد يصلى فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضرراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله، إما بهدم أو تحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار؛ فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك، وأوجب.. وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد.. فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ

---

[1] () رواه أبو داود 4/98، حديث 4253، وابن ماجه، حديث رقم3950، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة (ج 3 / ص 319)

على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معـاً لم يجـز، ولا يصح هذا الوقـف ولا يجـوز ولا تصـح الصـلاة في هـذا المسـجد لنهي رسول اللـه ﷺ عن ذلـك ولعنـه من اتخـذ القـبر مسـجداً، أو أوقد عليه سراجاً، فهـذا دين الإسـلام الـذي بعث اللـه بـه رسـوله ونبيه وغربته بين الناس كما ترى)[1]

فهذا النص لا يدل فقط على مجرد التحريم، وإنمـا يـدل على التكفير أيضا، بل يدل فوق ذلك على مشروعية تدمير أمثـال هـذه المساجد، وهو ما يطبقه كل حين المتأثرون بالرؤية التكفيرية.

مع العلم أن من مقتضـيات هـذا الحكم تـدمير كـل المسـاجد التاريخية، بل حتى تلـك المسـاجد الـتي دفن فيهـا أئمـة المـذاهب الأربعـة، فللشـافعيّ ضـريحه المشـهور في مصـر، ولأبي حنيفـة ضريحه في بغداد، وأحمد بن حنبل كان لـه قـبر مشـيّد في بغـداد، جرفه شط دجلة حتّى قيل: أطبـق البحـر على البحـر، (وكـلّ تلـك القبور قد شيّدت، وبنيت في الأزمنة الـتي كـانت حافلـة بالعلمـاء، وأرباب الفتوى، وزعماء المـذاهب، فمـا أنكـر منهم نـاكر، بـل كـلّ منهم محبّذ وشاكر)

بناء على هذا، سنذكر هنا ما يـرد على هـذه الرؤيـة من خلال المصادر المقدسة المعتمـدة لـدى هـذا الفريـق نفسـه، وذلـك من خلال الأدلة التالية:

1 ـ القرآن الكريم.. والبناء على القبور:

نحب قبل أن نذكر ما ورد في القرآن الكريم من الأدلـة على البنـاء على المقـابر أن ننبـه إلى أن الكثـير من تفاصـيل الأحكـام الشرعية غير واردة فيه، ولـذلك يتشـدد التكفـيريون أنفسـهم مـع الذي يطالبون بالأدلة القرآنية حول ما يطرحونه من فروع فقهية.

ومن الأمثلـــة على ذلـــك أن الكثـــير من مســـائل التركـــات والمــواريث من أمثــال التعصـيب والعــول وغيرهــا، مــع أهميتهــا الشديدة لم يرد فيها أي نص قرآني، ومع ذلك نجد الفروع الكثيرة المرتبطة بها.

[1] () زاد المعاد في هدي خير العباد (3/ 501)

وهكذا يقال في هذه المسألة، وكان الأصل أن يطالب من يحكم على أكثر الأمة بالكفر بسبب بنائها على المقابر أن يأتي بالدليل القرآني الصريح على ذلك، لا أن يطالب المخالفين بالدليل، ذلك أن مثل هذه المسألة الخطيرة التي يتوقف عليها مصير المؤمنين تحتاج إلى أدلة قطعية قوية، وليس إلى مجرد أحاديث آحاد، قد يساء فهمها، بالإضافة إلى ضعف ثبوتها.

ومع ذلك، وعند العودة للقرآن الكريم، وترك تعطيله أو انتقاء ما يشتهى منه، نجد إشارة واضحة وصريحة على شرعية بناء المزارات الدينية واحترامها وتعظيمها، ومن أشد تلك النصوص القرآنية صراحة ووضوحا قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ [الكهف: 21]، ومن وجوه الاستدلال بالآية الكريمة كما يذكر أصحاب الرؤية الإيمانية(1):

1. أنّ الآية الكريمة متعلّقة بأصحاب الكهف، وهم أولئك الفتية الذين آمنوا بربّهم، وتركوا أهلهم حفاظا على إيمانهم، وهي تكشف عن اختلاف وقع بين المؤمنين المسلمين والمشركين الكافرين فيما يجب فعله بهم، حيث قال الذين لم يؤمنوا: ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، أي ضعوا بنيانا على باب كهفهم ليسترهم، ربّهم أعلم بحالهم، وقال الذين أمنوا واستضعفوا: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾، أي نحن سوف نتّخذ هذا المكان مكانا لعبادة الله عز وجل والتقرب إليه من خلال التبرك بهذا المكان الذي وقعت فيه المعجزة.

2. أن الذين غلبوا على أمرهم هم المؤمنون، لأن المسجد إنما يبنيه المؤمنون، وأما الكافرون فقالوا: ابنوا عليهم بنيانا، والدليل من هذه الآية إقرار الله تعالى إياهم على ما قالوا وعدم رده عليهم، فإن الله تعال إذا حكى في كتابه عن قوم مالا يرضاه ذكر معه ما يدل على فساده وينبه على بطلانه إما قبله وإما بعده،

1() انظر: إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص11، وما بعدها، وصيانة الآثار الإسلاميّة، الشيخ جعفر السبحاني، ص26، فما بعدها.

فإذا لم ينبه على ذلك دل على رضاه تعالى به وعلى صحته إن كان عملاً وصدقة إن كان خبراً.

3. أن الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى، على ما هو مذكور في كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالى، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما في هذه الآية الكريمة.

4. أن الشرك لم يشرع في أي دين من الأديان، ولذلك حتى لو فرضنا أن هذه الشريعة كانت للنصارى، فإنها تدل على كون البناء على القبور، واتخاذها مساجد لا علاقة لها بالشرك.

5. أن الأديان جميعا تتفق في أصول الشرائع، فكلها تحوي صلاة وصياما وزكاة وحجا وغيرها، كما قال تعالى عن الصيام: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183]، والاختلاف بينها قاصر على الكيفيات، ولذلك فإن مشروعية اتخاذ القبور مساجد في الأمم الأخرى دليل على مشروعيتها في هذه الأمة، وإن كانت تختلف في كيفية تنفيذها.

لكن للأسف، ومع وضوح دلالة هذا النص على عدم ارتباط الشرك بالبناء على القبور، إلا أن أصحاب الرؤية التكفيرية راحوا يعطلون الآية الكريمة من أجل الحفاظ على ذلك الحكم المشدد الذي تبنوه، وكأن الله تعالى ذكر لنا تلك الحادثة للتسلية فقط، وليس لأي غرض آخر.

ومن الأمثلة على ذلك قول بعضهم، أو الكثير منهم في الرد على الاستدلال بالآية: (إن الصحيح المتقرر في علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: (أعطِيتُ خمسًا لم يُعطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلي.. (فذكرها، وآخرها) وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى الناس كافة)، فإذا تبين هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدل على أن جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا!)(1)

1() كشف شبهات الصوفية (ص: 117)

وهكذا راحوا يردون الآية بهذا الاعتبار الذي يجعل من السنة متحكمة على الكتاب، فقد قال بعضهم: (هَبْ أن الصواب قول من قال: (شريعة من قبلنا شريعة لنا) فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يَرِدْ في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم هنا؛ لأن الأحاديث تواترت في النهي عن بناء المساجد على القبور، فذلك دليل على أن ما في الآية ليس شريعة لنا)(2)

وكان الأصل هو محاولة الجمع بين الآية والأحاديث الواردة، وليس رمي الآية، وعدم تفعيلها بحجة مخالفتها للحديث، وسنرى كيف يجمع بين الآية والحديث، عند ذكر الأحاديث التي ارتبطوا بها، والتي أساءوا فهمها، لأنهم لم يحاولوا الجمع بينها وبين القرآن الكريم.

وأعجب أنواع الهروب من الآية الكريمة الواضحة هو ذلك الذي ذكره بعضهم، فقال: (لا نسلِّم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا، غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فليس فيها التصريح بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين، متمسكين بشريعة نبي مرسل، بل الظاهر خلاف ذلك، وهو قول الله عز وجل في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى)

وهذا من غلبة الهوى والتحكم في التعامل مع القرآن الكريم، فمع أن المطالبة ببناء المساجد لا تكون إلا من المؤمنين الصادقين المخلصين إلا أن هؤلاء الطائفيين، لم يكتفوا بالتهجم على صالحي هذه الأمة، وإنما راحوا إلى صالحي الأمم الأخرى، وكأنهم يستدركون على الله تعالى، والذي لم يذكر هؤلاء بما يشينهم، بل فيه إشارات كثيرة إلى صلاحهم، لأنهم عرفوا كيف يعظمون ويحترمون أولئك الذين فروا بدينهم، في مقابل أولئك الذين آذوهم.

2() المرجع السابق، (ص: 117)

بالإضافة إلى تلك الآية الصريحة التي ترد على اعتبار بناء المساجد على القبور شركا، وردت أدلة أخرى يمكن اعتمادها في هذا الباب مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]، وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: 30]، وقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ [المائدة: 2]

فهذه الآيات الكريمة تدعو إلى حفظ شعائر الله وتعظيمها والحرص عليها، ومن الحرص عليها البناء الذي يحفظها، ولاشك أن المعالم الدينية من شعائر الله التي تدعو الآية الكريمة إلى حفظها.. وتلك المعالم لا تخلو في العادة من القبور.. كما أشار السبحاني إلى ذلك بقوله: (لاشكّ أنّ صون المعالم الدينية عن الاندراس ــ كالمشاهد المتضمّنة لأجساد الأنبياء والصالحين ـ وحفظها عن الخراب بناءاً وتجديداً نحو من أنحاء التعظيم، كما أنّ حفظ المسجد عن الخراب تعظيم له، لا يخفى أنّ الله تعالى جعل الصفا والمروة من الشعائر والحرمات التي يجب احترامها، فكيف بالبقاع المتضمّنة لأجساد الأنبياء والأولياء، فإنّها أُولى بأن تكون شعاراً للدين، كيف لا؟ وهي من البيوت التي أذن الله أن تُرفع، ويذكر فيها اسمه، فإنّ المراد من البيت في الآية هو: بيت الطاعة، وكلّ محلّ أُعدّ للعبادة، فيعمّ المساجد والمشاهد المشرّفة لكونها من المعابد، ولو لم يكن في الشريعة ما يدلّ على تعمير المساجد، وتعظيمها واحترامها، لأغنتنا الآية بعمومها عن الدلالة على وجوب تعمير المسجد وتعظيمه، وإدامة ذكر الله فيه، لكونه من البيوت التي أذن الله أن تُرفع)[1]

2 ـ السنة النبوية.. والبناء على القبور:

يمكن تقسيم الحديث في الأدلة الواردة في السنة النبوية المطهرة حول شرعية البناء على قبور الأنبياء والصالحين، وما يرتبط بها إلى قسمين:

أولهما: ما يمكن الاستدلال بها على شرعية البناء وعدم حرمته.

---

[1] نقلا عن: موسوعة الأسئلة العقائدية ج3 (لـ مركز الأبحاث العقائدية)، ص27.

وثانيهما: الروايات المعارضة لذلك، وكيفية توجيهها والجمع بينها وبين النصوص المجوزة لذلك.

وهـذا المنهج يعتمـد في كـل الأبـواب الفقهيـة، وعنـد جميـع الفقهاء، ذلك أنه إذا تعارضت النصوص في أي مسألة يبحثـون عن المحكم فيها، ثم يحاولون توجيـه المتشـابه ليتناسـب مـع المحكم، وقد يحكمون بضعف المتشابه إذا كان حـديثا بسـبب مخالفتـه لمـا هو أقوى منه.

وبناء على هذا، فإن ما يقوي جانب المشروعية هو مـا ذكرنـا من الدليل القرآني الصريح والواضح في مشروعية البناء، ذلك أن القـرآن الكـريم لم يكن ليـترك التعقيب على ذكـر البنـاء إن كـان حراما، ذلك أن السكوت عن البيان وقت الحاجة لا يجوز.

بناء على هذا، سنذكر هنا ما يـورده أصـحاب الرؤيـة الإيمانيـة من كلا القسمين:

أ ـ النصوص المحكمة الدالة على مشروعية البناء:

من الأدلة التي ذكرها أصحاب الرؤية الإيمانية على مشروعية البناء على المقابر، وخصوصا قبور الأنبياء والصالحين (1):

1 ــ ما ورد من الأحـاديث والآثـار الدالـة على أن جماعـة من الأنبياء والمرسلين مـدفونون في المسـجد الحـرام مـا بين زمـزم والمقام، وأخبر النبي ﷺ أن منهم نوحـاً، وهـوداً وصـالحاً، وشـعيباً، وأن قبورهم بين زمزم والحجر، وكذلك ورد في قبر إسماعيل أنــه بالمسجد الحرام، وهو أشرف مسجد على وجه الأرض هو ومسجد النبي ﷺ، فلو كـان وجـود القـبر في المسـجد محرمـاً لذاتـه لنبش النـبي ﷺ وأخـرجهم فـدفنهم خـارج المسـجد، فإنـه أخـبر اللـه أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنهم أحياء في قبورهم(2).

2 ــ أن النبي ﷺ أمر أن يدفن في البناء فقال: (لن يقبر نــبي

1() انظر: إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقبـاب على القبـور، ص11، ومـا بعدها، وصيانة الآثار الإسلاميّة، الشيخ جعفر السبحاني، ص26، فما بعدها.

2() إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقبـاب على القبـور، أحمـد بن الصـديق الغماري، ص33.

إلا حيث يموت فأخروا فراشه، وحفروا لـه تحت فراشـه)(1)، وهـو دليل صريح على وجود البناء حول القبر، وأن النهي خاص بما كـان فوقه، لأنا بالضـرورة نعلم أن النهي عن البنـاء ليس هـو عن فعـل الفاعل وبناء البناء، وإنما هو عن وجود نفس البناء على القبر، وإذا جوز الشارع وجود الميت داخل البناء فقـد جـوز البنـاء إذ لا فـارق بين أن يوجد بعد الدفن أو قبله، لأن الغاية واحدة والصورة متفقـة وهي وجود القبر داخل البناء، وإذا جاز ذلك فلا فرق بين أن يكـون البناء بيتاً أو قبة أو مدرسـة لأن الكـل بنـاء والعلـة في ذاتـه لا في أشكاله وصوره فليس النهي متعلقاً بصورة القبة أو المدرسة، بـل بذات البناء كيفما وجد(2).

3 ـ إذا ثبت أن النبي ﷺ أمر أن يدفن في بيته الذي هـو بنـاء فقد تقرر في قواعد الفقه أن الرضـي بالشـيء رضـى بمـا يـؤول إليـه ذلـك الشـيء، وبيت النـبي ﷺ كـان ملاصـقاً للمسـجد، وبابـه شارعة إليه حتى أن الرواة يذكرونه أنه ﷺ كـان إذا اعتكـف يخـرج رأسـه الشـريف إلى عائشـة فترجله وهي في الـبيت وهـو في المسجد، وقد علم ﷺ أن أمته ستكثر، وأن المدينة ستتسع وتعظم حتى يصل بناؤها إلى سلع كما أخبر هو ﷺ بذلك، وأمر بشد الرحلة إلى زيارة قبره الشريف وإلى مسجده للصلاة فيه ورغب في ذلك بقوله: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)(3) و(صلاة في مسجدي هـذا أفضـل من ألـف صـلاة فيمـا سـواه إلا المسـجد الحـرام)(4)، ومسجده ﷺ كان في عصره صغيراً لا يسع عشر معشـار ربـع من يقصده من أمته.

4 ـــ أن النـبي ﷺ أخـبر بـأن قـبره الشـريف سـيكون داخـل مسجده، وزاد فأخبر بـ (أن ما بين قبره ومنبره روضـة من ريـاض الجنة) (5)، وهذا منه ﷺ إشارة إلى استحباب إدخال قبره الشريف في المسجد لأنه ترغيب يدعو إلى ذلك، إذ المـراد فضـيلة الصـلاة

1() رواه أحمد، (1/ 7)

2() إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص26.

3() رواه البيهقي في شعب الإيمان، (6/ 51)

4() رواه البخاري(2/ 76)

ما بين القبر والمنبر والترغيب فيها في ذلك الموضع إذا لم يكن القبر الشريف داخل المسجد لا تتصور الصلاة بين القبر والمنبر ولا يتأتى التعبير بقوله: (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)، لأنه إذا كان المنبر وسط المسجد والبيت الذي فيه قبره الشريف خارج المسجد لم يصح في العادة التعبير بالبينية خصوصاً عند إرادة الصلاة، فإن البيت وسوره حاجز بين القبر والمنبر مانع من الصلاة في موضعه.

5 ــ أن الله تعالى قضى في سابق علمه باتخاذ المسجد على قبر نبيه ﷺ مع أنه عند ربه جل وعز أعلى قدراً وأحمى جانباً من أن يقع بجسده الشريف ما هو محرم مبغض لله تعالى ملعون فاعله، بل هذا من المتيقن المقطوع ببطلانه لأهل الإيمان، فلو كان اتخاذ المسجد عليه ﷺ ممنوعاً متخذه لحمى الله تعالى جانب نبيه ﷺ منه، ولصرف العباد عنه كما صرفهم عن غيره، فلما لم يفعل ذلك دل على أنه جائز ومطلوب، (ومن اعتقد خلاف هذا فهو قرني ممقوت لم يذق للإيمان طعماً ولا عرف من منزلة النبي ﷺ العليا ومكانته السامية عند ربه شيئاً فهو مدخول العقيدة مختل الإيمان)[1]

6 ــ أن ذلك ما جرى عليه عمل الصحابة، وهو من الأدلة المعتبرة عند أصحاب الرؤية التكفيرية، ذلك أنهم في سجالاتهم مع المخالفين لهم، يستدلون بفعل السلف، ويقدمونهم حتى على الأحاديث النبوية نفسها، وبناء على هذا يمكن اعتبار إجماع الصحابة واتفاقهم بعد الاختلاف في موضع دفنه على دفنه في بيته عملاً بما أخبرهم به أبو بكر عن النبي ﷺ فلو كان ذلك غير صحيح عن النبي ﷺ أو منسوخاً بما ذكره في مرض وفاته مع أن الخبر لا يدخله النسخ لما أجمع الصحابة عليه، وقد قام الدليل على حجية الإجماع، ولا سيما إجماع الصحابة[2].

7 ــ إجماع التابعين ومن بعدهم في عهد وجود كبار أئمتهم

5() نص الحديث (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة) (انظر: مسند أحمد بن حنبل (3/ 64)

1() إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص25.

2() انظر: المرجع السابق، ص11، وما بعدها.

مثل عمر بن عبد العزيز والحسن وابن سيرين وفقهاء المدينة والكوفة والبصرة والشام وغيرها من أقطار الإسلام، ثم أجمعت الأمة بعدهم على إدخال بيته المشتمل على قبره داخل المسجد وجعله في وسطه، وإجماعهم حجة ولو كان ذلك منهياً عنه لاستحال أن تتفق الأمة في عصر التابعين على المنكر والاجتماع على الضلالة لولا أنهم فهموا من النهي أن المراد به علته التي زالت باستقرار الإيمان ورسوخ العقيدة، ولا يقال إنهم سكتوا على ذلك لأجل ضرورة توسعة المسجد فإنه كان في الإمكان توسعته من جهة القبلة والجهة المقابلة لها والجهة الجنوبية لها دون الجهة الشمالية الواقع فيها قبره ﷺ.

8 ــ أن الصحابة بنوا على القبر مسجداً في حياته ﷺ فأقرهم على ذلك ولم يأمرهم بهدمه، ويستحيل أن يقر النبي ﷺ على باطل، ويدل لذلك ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة أبي بصير من أن أبا جندل دفن أبا بصير في مكانه الذي مات فيه، ووصلى عليه وبنى على قبره مسجداً، حيث قال: (وكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير ليقدما عليه ومن معهما من المسلمين أن يلحقوا ببلادهم وأهليهم، فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي جندل، وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ بيده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه، وصلى عليه، وبنى على قبره مسجدا) (1)

وقد علق الغماري على هذا بقوله: (إن كل ذي حس سليم يعرف سيرة الصحابة مع النبي ﷺ يدرك أنه لا يمكن إحداث أمر عظيم مثل هذا ولا يذكرونه للنبي ﷺ وهو رسول الله تعالى وخليفته في خلقه، والأمر أمره، والحكم حكمه، والصحابة كلهم جنده ونوابه ومنفذون أمره، وكذلك يستحيل أن يحدث مثل هذا من أصحابه الذين هم تحت حكمه وأمره ويكون ذلك حراماً ملعوناً فاعله يجر إلى كفر وضلال، ثم لا يعلمه الله تعالى به ولا يوحي يوحي إليه في شأنه، كما أعلمه بمسجد الضرار وقصد أصحابه من بنائه وأمره بهدمه بل وبما هو أدون من هذا وأقل ضررا بكثير فإذا لا شك أن النبي ﷺ اطلع على بنائهم المسجد على قبر أبي

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (4/ 1613)

بصير ولم يأمرهم بهدمه إذ لو أمر بـذلك لنقـل في نفس الخـبر أو غيره، لأنـه شـرع لا يمكن أن يضـيع بـل يسـتحيل ذلـك لخـبر اللـه تعالى أنه حفظ الدين من أن يضيع منـه شـيء ولا يصـل إلى آخـر هذه الأمة ما وصل إلى أولها. فلمـا لم يـأمر بهدمـه دل ذلـك على جوازه)[1]

ب ـ النصوص المتشابهة في النهي عن الزيارة وتوجيهها:

يورد أصحاب الرؤية التكفيرية لمن يسمونهم القبوريين عـادة بعض الأحاديث النبوية، التي قد يفهم منها ـ بـادئ الـرأي ــ حرمـة بناء المزارات، وحرمة زيارتها، بل اعتبار ذلك بدعة وشركا، ومنهـا ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: (قاتل الله اليهود اتخـذوا من قبـور أنبيـائهم مسـاجد)[2]، وقولـه ﷺ لأم سـلمة حين ذكـرت لـه كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما رأت فيها من الصور: (أولئك قـوم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصـوروا فيـه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله) [3]، وقوله ﷺ: (ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد إلا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)[4]

وقـد رد القـائلون بشـرعية بنـاء المـزارات على مـا فهمـوه بوجوه كثيرة نقتصر منها على الوجوه التالية[5]:

1 ــ أن الله تعالى حكى مشـروعية البنـاء عن المؤمـنين في سورة الكهف، والنـبي ﷺ حكـاه عن اليهـود والنصـارى وفـرق بين حال الفريقين، فإن المؤمنين فعلـوا ذلـك للتـبرك بآثـار الصـالحين الذين أكرمهم الله تعـالى بهـذا الآيـة وحفـظ أرواحهم وأجسـامهم

1() إحياء المقبور، ص53.

2() رواه ابن حبان (6/ 95)

3() رواه البخاري (1/ 117)

4() رواه مسلم (2/ 67)

5() انظر هذه العلل مفصلة مع أدلتها في: إحياء المقبـور من أدلـة جـواز بنـاء المسـاجد والقباب على القبور، ص11، وما بعدها.

تلك القرون الطويلة، بينما اليهود والنصارى يفعلـون ذلـك للعبـادة والإشراك مع الله تعالى؛ فالدليلان غير متواردين على محل واحد، ذلـك أن النـبي ﷺ إنمـا لعن اليهـود والنصـارى على اتخـاذ قبـور أنبيـائهم مسـاجد يعبـدون فيهـا تلـك القبـور ويسـجدون إليهـا أو يجعلونها قبلة لاتخاذهم الأنبياء شركاء مع الله تعالى فيما يسـتحقه من العبادة.

2 ــ أنه لو كان كل من بنى على المسـجد قـبراً ولـو للتـبرك والزيارة ملعوناً كما في الحديث لكان هؤلاء المؤمنون الـذي حكى الله عنهم ملعونين أيضاً داخلين في لعنـة النـبي ﷺ على من فعـل الذي حكاه الله عنهم، ولو كانوا كذلك لكان سكوت النص القرآني عن ذمهم ولعنهم والإشـارة إلى ضـلالهم وخـروجهم عن الصـراط المستقيم فيما أتوا كما عرف من عادته في كتابه الكـريم الـذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

3 ــ أنه ﷺ قال: (أولئك كـانوا إذا مـات فيهم الرجـل الصـالح اتخـذوا على قـبره مسـجداً وصـوروا فيـه تماثيـل) [1]، فاتخـاذهم الصور والتماثيل فيه دليل على أنهم يفعلون ذلـك لأجـل عبـادتهم، وقد شـهد العيـان بـذلك وأثبت التـاريخ مثلـه، وأنهم ابتـدأوا عبـادة الأصنام بعبادة صور الصالحين وقبورهم، وهذا لا يوجـد منـه شـيء عند المسلمين.

4 ــ أنه معلل بخشية العبادة، وكما هو مصرح به في الحديث نفسـه فلا يكـون تشـريعاً عامـاً في كـل زمـان، بـل هـو التشـريع المؤقت بزمن خشـية وجـود العلـة، وهـو زمن قـرب عهـد النـاس بالإشراك دون الزمان الذي لم يعد أهله شـركاً ولا دار في خلـدهم شيء منه، بل نشأوا على الإيمان واليقين والتوحيد واعتقاد انفـراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وأنه لا فاعل إلا اللـه تعـالى، فهـو غـير معارض لدليل الكتاب العام في كل زمان، بل هو مخصص لعمومه بزمن ارتفاع خشية العبـادة، وهـو زمن اسـتقرار الإيمـان وانتشـار التوحيد ورسوخ العقيدة رسوخاً لا يتطرق معه أدنى خلل ولا شـك في وحدانية الله تعالى وتفرده بكل معاني الألوهية والربوبية.

1() انظر مسند إسحاق بن راهويه، (2/ 264)

وقد ذكر الغماري أن (مثل هذا في الشريعة كثير جداً وهو التشريع المؤقت الذي يشرع لعلة ثم يزول بزوال علته، إلى أنه تارة يكون منصوصاً عليه من الشارع نفسه وهو الناسخ والمنسوخ، وتارة لا ينص الشارع على زوال الحكم ونسخه لاحتمال وجود العلة في كل وقت، ولكنه يشير إلى أن ذلك الحكم غير لازم على الدوام إنما يلزم عند وجود علته فيقول أو يفعل ما يخالف الحكم الأول حتى يظن في بادئ النظر أن بين الأمرين تعارضاً) [1]

وضرب مثالا على هذا بنهيه ﷺ عن زيارة القبور[2] أولاً لما كانوا قريبي عهد بالشرك، فلما استقر الإيمان في نفوسهم أباح لهم زيارتها للاعتبار والتذكر والزهد في الدنيا، وكذلك نهيه ﷺ عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث وعن ادخارها لأجل مجاعة ألمت بالناس، فلما ذهبت قال: (إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور وأكل لحوم الأضاحى فوق ثلاث، وعن نبيذ الأوعية ألا فزوروا القبور فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة، وكلوا لحوم الأضاحى وأبقوا ما شئتم فإنما نهيتكم عنه إذا لخير قليل فوسعه الله على الناس ألا إن وعاء لا يحرم شيئا وإن كل مسكر حرام) [3]

5 ـ أن الخلاف في جواز البناء حول القبور نشأ نتيجة الخطأ في الاستدلال وعدم إحكام النظر في الدليل من جهة عدم فهم معناه وتحقيقه أولا، ثم من جهة عدم فهم مراد الشارع من ذلك المعنى المفهوم ثانياً، ثم من جهة الإعراض عن النظر في الأدلة المعارضة له ثالثاً، فإن النهي الوارد في البناء على القبور واتخاذ المساجد عليها غير عام في نفسه، ولا في كل زمان بل هو خاص بنوع من أنواعه ثم هو غير تعبدي، بل هو معقول المعنى معلل بعلل يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها شأن كل حكم معلل كما هو معروف، ومع هذا فهو أيضاً معارض بما هو أقوى منه مما يجب

1() إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص33.

2() نص الحديث كما في (صحيح مسلم (3/ـ 65): (نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ونهيتكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم ونهيتكم عن النبيذ إلا فى سقاء فاشربوا فى الأسقية كلها ولا تشربوا مسكرا)

3() السنن الكبرى للبيهقي، (4/ 77)

النظر في الجمع بينهما وجوب العمل بالنص والتمسك بالدليل ويحرم الإعراض عن أحدهما والتمسك بالآخر حرمة الإعراض عن النص ومخالفة الدليل لأن الكل شرع مفترض طاعته واجب قبوله والعمل به فالإعراض عن أحدهما دون دليل، مسوغ إعراض عما أوجب الله طاعته وفرض على العبد اتباعه وتفريق بيم المتماثلين وترجيح بين الدليلين بدون مرجح وهو باطل بالإجماع[1].

6 ــ أن القائل بكراهة البناء فهم أن النهي عن البناء عام، والدليل يدل على أنه خاص بالبناء الواقع فوق القبر نفسه دون الواقع حوله، لأن ذلك هو الذي يدل عليه معنى حرف (على) الموضوع للاستعلاء، فالبناء على القبر هو الذي علاه وكان فوقه لا ما كان حوله دائراً به قريباً منه على قدر حرم القبر، فكيف بما يكون واسعاً بعيداً عنه كالحوش والقبة والمدرسة، فإن اللفظ لا يتناوله، وعلى فرض أن هناك ما يدل على العموم فهو عام مخصص لورود الأدلة الدالة على تخصيصه أو على إرادة الخصوص به[2].

7 ــ أن القائل بالكراهة لا يخلو أن يكون أعرض عنه وجمد على الظاهر كأنه تعبدي غير معقول المعنى ولا ظاهر العلة وليس هو كذلك بالاتفاق، لورود النصوص بالعلة أو يكون أخطأ في تعيين مراد الشارع وتحقيقه أو أصابه ولكنه أخطأ في عدم تنقيحه، فإنه لا بد من تحقيقه ثم تنقيحه حتى لا يعم ما هو خارج عنه غير داخل في حكمه أو أخطأ في اطراد العلة وهي غير مطردة ولا موجودة في كل بناء، وإنما هي موجودة في نوع من أنواعه فإن العلماء اختلفوا في العلة التي من أجلها نهى النبي ﷺ عن البناء على القبر على أقوال[3]:

منها أن العلة في ذلك كون الجص والآجر مما مسته النار، ولا ينبغي أن يقرب ذلك من الميت إما تفاؤلاً كما كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن ويستبشر به في الأقوال والأفعال والصفات

---

[1] () إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص8.

[2] () المرجع السابق، ص8.

[3] () انظر هذه العلل مفصلة مع أدلتها في: المرجع السابق، ص11، وما بعدها.

والأسماء وسائر الأشياء، وإما لمعنى يعرفه الشارع فيما مسته النار.ولذلك أوجب منه الوضوء في أول الأمر ثم نسخه للضرورة ورفع الحرج والمشقة.

ومنها إن العلة فيه وجود الثقل على الميت والمطلوب التخفيف عنه، ولهذا أمر النبي ﷺ بتسوية القبر وعدم وضع التراب فوقه، ونص الفقهاء على أنه يكره أن يجلب له تراب زائد على الذي خرج منه.

ومنها أن العلة كون البناء فيه تمييز عن سائر قبور المسلمين حوله.

ومنها أن البناء يمنع من دفن الغير معه، لأن قبور أهل الحجاز والأرض الصلبة على كيفية اللحد.

ومنها أن فيه تشبهاً بفعل الكفار من أهل الكتاب والمشركين من أهل الجاهلية، لأنهم يضعون الرخام على قدر القبر أو يبنون فوقه.وقد بنيت الشريعة في كثير من أحكامها على مخالفة الكفار والمشركين.

ومنها أنه في الزينة الدنيوية ولا ينبغي فعل ذلك بمن انتقل إلى الآخرة.

ومنها أنه يدعو إلى الجلوس على القبر.والجلوس عليه منهي عنه لما فيه من أذية الميت بامتهانه ولهذا استحبوا أن يكون القبر مسنماً ولا يكون مسطحاً لأن التسنيم يمنه من الجلوس، ذكره بعضهم.

ومنها إنه يحول بين الميت وسماع النداء والذكر وتلاوة ما يتلى على قبره من القرآن وسلام المسلم عليه.

وقد أورد الشيخ الغماري لكل علة من العلل الثماني ما يدل عليها، وناقشها، وبين أن العلة الوحيدة المعتبرة، هي البناء على نفس القبر، فقال: (فلم يبق مقبولاً إلا العلل الأخرى وهي خاصة بالبناء الواقع على نفس القبر فوقه لا الذي حوله دائراً به، فلذلك كان مخطئاً من حمل النهي على العموم وأدخل فيه القباب

والمدارس والأحواش، لأنها غير داخلة في النهي)[1]

وكمثال على مناقشته العلل مناقشته للعلة المتعلقة باعتبار البناء من الزينة التي لا تنبغي لأهل الآخرة، وقد ناقشها من وجهين[2]:

أحدهما: أن البناء على القبر ليس من الزينة في شيء ولا يراد به الزينة، وإنما يراد به حفظ القبر من الدوس والامتهان واندثار الأثر الذي لا يعرف معه القبر، وإذا قصد به بعضهم الزينة وفعل به ما هو منها فذاك أمر زائد على البناء، فيكون الحكم متعلقاً به لا بنفس البناء.

الثاني: أن كون الزينة الدنيوية لا تنبغي لأهل الآخرة دعوى مجردة عن الدليل فهي باطلة.فإن الشارع أمر بتزيين الميت وتحسين كفنه وتطييبه، ونص الفقهاء على استحباب تقليم أظافره وإصلاح شعر لحيته ورأسه ونحو ذلك من أمور الزينة التي لم تطلب للحي إلا في العيدين والجمعة.

8 ــ أن التعليل بخشية عبادة القبر غير صحيح، وذلك لــ (رسوخ الإيمان في نفوس المؤمنين وتنشئتهم على التوحيد الخالص واعتقاد نفي الشريك مع الله تعالى، وأنه سبحانه وتعالى المنفرد بالخلق والإيجاد والتدبير والتصريف لا فاعل غيره ولا مؤثر في ملكه سواه وأن المخلوق الحي لا قدرة له على جلب منفعة لنفسه ولا دفع مضرة عنها إلا بخلق الله تعالى وإيجاده فضلاً عن الميت المقبور، وبانتفاء العلة ينتفي الحكم المترتب عليها، وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين، فإن من يتخذها عليهم لا يفعل ذلك لأجل أن يعبدهم ويتخذ قبورهم مساجد يسجد إليها من دون الله تعالى، أو يجعلها قبلة يصلى إليها، بل هذا ما سمع في هذه الأمة ولا وجد قط من مسلم يدين بدين الإسلام وإنما قصد بتلك القباب مجرد الاحترام وتعظيم قبور الصالحين وحفظها من الامتهان والاندراس الذي ينعدم به الانتفاع بزيارتهم والتبرك بهم، فإذا فرض وجود من بنى قبة أو مسجداً

[1] المرجع السابق، ص14.

[2] المرجع السابق، ص13.

على قبر ليعبده ويتخذه قبلة فهذا كافر مرتد يجب قتله وهدم ما بناه، لأنه لم يبن مسجداً بل بنى كنيسة في صورة مسجد مع أن شيئاً من هذا لم يقع في هذه الأمة والحمد لله)[1]

أما ما يفعله بعض جهلة العوام إذا أتوا قبور الصالحين (من التعظيم ما يشبه صورته صورة العبادة لا يكون موجباً لكراهة البناء، لأن ذلك لم يأت من جهة البناء ولا هو العلة فيه، إنما علته الجهل بطرق التعظيم والحد اللائق به شرعاً، ولو كان البناء هو علة ذلك للزم ألا يتخلف عند وجوده مع أن جل من يزور الأولياء المتخذ عليهم القباب والمساجد لا يوجد منه ذلك، وإنما يوجد من قليلين جداً من بعض جهلة العوام.كما أنه يلزم أن لا يوجد إلا عند القبور المبني عليها مع أننا نرى بعض الجهلة يفعل ذلك أيضاً ببعض قبور الأولياء التي لم يبن عليها مسجد ولا قبة وليس عليهم بناء أصلاً)[2]

9 ــ أن تعظيم الصالحين لا يرتبط بالبناء وحده، فإنه حتى لو هدمت الأضرحة يبقى التعظيم، لأن الباعث على ذلك هو الاعتقاد الناشئ عن ولايتهم وصلاحهم ومكانتهم السامية عند ربهم الذي وضع لهم المحبة والاعتقاد في القلوب، ولهذا، فإن (على الجهلة القرنيين[3] المبتدعة الضالين أن يهدموا الاعتقاد ويقلعوا أثره من النفوس ويقضوا على الصلاح والولاية والتقوى والخشية التي يكرم الله تعالى صاحبها، بوضع ذلك في القلوب حتى يستريحوا من تعظيم المخلوق والتوسل والاستغاثة به أما هدم البناء فلا يأتي لهم بنتيجة ولو أتى بها لما احتاجوا إلى حراس عند القبور يمنعون من ذلك بعد الهدم)[4]

وتحدث الشيخ الغماري عن نفسه في تلك الفترة التي قام فيها الوهابيون بهدم القباب، فقال: (فأنا زرت قبر حمزة بعد هدم البناء الذي عليه بأزيد من خمس عشرة سنة ووجدت الحارس

1() المرجع السابق، ص13.

2() المرجع السابق، ص13.

3() يقصد الوهابيين.

4() المرجع السابق، ص13.

قائماً عند قبره يمنع الزوار من القرب من القبر والتمسح به وتقبيله، ولم يكف مضي خمس عشرة سنة على الهدم في قلع ذلك من النفوس، وهكذا يبقى ذلك ما بقي الإيمان ومحبة الله تعالى ورسوله ومحبة أوليائه وأصفيائه.والمقصود أن البناء لا دخل له في تحقيق علة النهي وثبوتها في هذه العصور المتأخرة، بل ذلك قد زال من البناء وانتقل إلى المحبة والاعتقاد فلم يبق حكم متعلق بالبناء، وكان المتمسك بظاهر النهي المعرض عن تحقيق علته ومراد الشارع منه مخطئاً في حكمه غير مصيب في اجتهاده وفهمه)[1]

10 ــ أن القائل بكراهية البناء على القبور تمسك بالنهي ولم يلتفت إلى ما يعارضه من الأدلة، وذلك مما يوجب الخطأ في الحكم وعدم الإصابة في الاجتهاد، فإن الجمع بين الدليلين واجب مفترض والإعراض عن أحدهما دون ثبوت النسخ حرام والحكم باطل، فإن النهي عن البناء ورد ما يعارضه مما هو أقوى منه ثبوتاً ودلالة فلا يقبل حكم مع الإعراض عنه، وسنورد هذه الأدلة المعارضة في العنوان التالي.

11 ـ أن معنى النهي عن اتخاذ القبور مساجد هو السجود لها على وجه تعظيمها وعبادتها، كما يسجد المشركون للأصنام والأوثان، وهو شرك صريح، وقد وردت الدلالة على هذا المعنى في تلك الأحاديث نفسها، فقد ثبت في حديث عائشة عن الشيخين قالت: قال رسول الله ﷺ: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذو قبور أنبيائهم مساجد)، ثم علقت على ذلك بقولها: (فلولا ذلك، أبرزوا قبره)[2]

وقد علق الغماري على ذلك بقوله: (شدد في النهي عن ذلك، خوف أن يتناهى في تعظيمه، ويخرج عن حد المبرة.. لأن هذا الفعل كان أصل عبادة الأوثان ولذا لما كثر المسلمون في عهد عثمان واحتيج إلى الزيادة في المسجد وامتدت الزيادة حتى أدخلت فيه بيوت، أدير على القبر المشرف حائط مرتفع، كي لا يظهر القبر في المسجد، فيصلى إليه العوام، فيقعوا في اتخاذ

[1] المرجع السابق، ص13.

[2] صحيح البخاري 1/95 ح(435)

قبره مسجداً ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من جهة الشمال، حتى لا يمكن استقبال القبر في الصلاة، ولذا قالت: لولا ذلك لبرز قبره.. وهذا يبين أن اتخاذ القبر مسجداً، هو السجود له)[1]

12 ــ أن الرواية التي يذكرون فيها أن النبي ﷺ قال في الذين يتخذون القبور مساجد: (أولئك شرار الخلق)، أي أن الأمة تتصف بذلك هي شر الأمم، وهم يعلمون أن القرآن الكريم والسنة المتواترة، تخالف ذلك، فالله تعالى أخبر أن أمة رسول الله ﷺ هي خير أمة أخرجت للناس، وأنها أشرف الأمم وأفضلها على الإطلاق، وأنهم عدول يتخذهم الله تعالى شهداء على الأمم السابق، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، وذكر الله لهم من الفضل ما رغبت الأنبياء والمرسلون فيه وتمنوا أن يكونوا من أمته ﷺ، وأخبر أنهم لا يجتمعون على ضلالة، وأن ما رأوه حسناً فهو عند الله حسن وكثير من أمثال هذا، وهذا كله يتنافى مع الحديث الذي ذكروه، فدل على أن المراد منه ليس ما فهموه منه.

يقول الغماري: (وقد علم الله تعالى في سابق علمه وما قضاه وقدره في أزله أن هذه الأمة ستتفق وتجمع أولها عن آخرها على بناء المسجد على قبر نبيها أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين، كم علم ذلك بإعلام الله تعالى إياه وأشار إليه كما سيأتي، وأنهم سيتفقون أيضاً سلفاً وخلفاً على اتخاذ المساجد على قبور الأولياء والصالحين والعلماء والعاملين، ومن أولئك الأولياء نفسهم من يتخذها على من قبله من شيوخه ويزوره في حال بناء المساجد والقباب عليهم بل ويشد الرحال من البلاد البعيدة إلى زيارتهم، وقد شد الإمام النووي الرحلة من الشام إلى مصر لزيارة قبر الإمام الشافعي الذي عليه مسجد وقبة، وكم له من ألف نظير في المشرق والمغرب. فيلزم من هذا التناقض بين خبر الله تعالى وخبر الرسول ﷺ، وأن تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وشر أمة

---

[1]() إعلام الراكع الساجد بمعنى إتخاذ القبور مساجد-الغمارى، ص5.

أخرجت للناس تتفق على فعل المنكر وتبني على قبر نبيها المسجد، وكذلك على قبور الأولياء والصالحين منها، وتكون أمة وسطا عدولاً، وأمة فاسقة متفقة على عصيان الله تعالى ورسوله ومخالفة أمره جهراً، وتكون أمة مرحومة مغفوراً لها كما قال النبي ﷺ وأمة ملعونة باتخاذها المسجد على قبرنبيها كما لعن اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ويكون أولياء الأمة وعلماؤها العاملون أصحاب المناقب والكرامات الظاهرة أحباء الله تعالى وأصفياءه الذي لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، في حال كونهم أعداء الله تعالى وعصاته ومحاربيه بمخالفة أمره والاتفاق على المنكر المحرم الملعون فاعله، وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة حتى يكون إجماعهاعلى لأمر حجة ودليلاً شرعياً كالكتاب والسنة، وأن الأمة تجتمع على الضلالة وتتفق على المنكر ومخالفة الله تعالى وأمر رسوله وهذا محال)(1)

ثانيا ـ المصادر المقدسة وزيارة الأضرحة:

تعتبر زيارة الأضرحة أو المزارات الدينية عموما لأجل التبرك أو التذكر ونحوهما من المسائل المتفق على شرعيتها في الأمة جميعا قبل ابن تيمية، ذلك أن أول قبر كان يزار، ومن كل المدارس الإسلامية، ومن جميع البلاد الإسلامية قبر رسول الله ﷺ.

وهكذا كان يزار معه المدفونون في البقيع، غيره من القبور.. بل كان كبار المحدثين والفقهاء يذكرون زياراتهم لقبور العلماء والصالحين، ويذكرون تبركهم بها، واستجابة الله لدعواتهم فيها، كما سنرى بعض الأمثلة على ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

لكن الوحيد الذي راح يخرج هذه المسألة من المشروعية إلى التحريم والبدعة ابن تيمية، الذي استعمل كل ما لديه من أنواع الجدل في بيان عدم مشروعيتها، ولذلك، وبعد المناقشات الطويلة التي أجريت معه من فقهاء عصره، اضطر إلى أن يحكم على نفس نية زيارة رسول الله ﷺ بالحرمة وبعدم جواز تقصير

1() إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، ص32.

الصلاة لمن ذهب إلى المدينة المنورة بتلك النية.

وقد أحدث ذلك لغرابته ردة فعل شديدة في المجتمع الإسلامي بمدارسه المختلفة، والذي كان يقدس زيارة رسول الله ﷺ ويعتبر الجدل فيها سوء أدب معه ﷺ.

وقد قال الحافظ ابن حجر يشير إلى الفتنة التي حصلت بسبب فتاوى ابن تيمية في ذلك: (والحاصل أنهم ألزموا ابن تيمية بتحريم شدِّ الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ.. وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية)[1]

وقال الحافظ أبو زرعة العراقي في بعض أجوبته المسماة (الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية) عند الكلام على المسائل التي انفرد ابن تيمية بها: (وما أبشع مسألتي ابن تيمية في الطلاق والزيارة، وقد رد عليه فيهما معاً الشيخ تقي الدين السبكي، وأفرد ذلك بالتصنيف فأجاد وأحسن)[2]

وقال في (طرح التثريب): (وللشيخ تقي الدين ابن تيمية هنا كلام بشع عجيب يتضمن منع شد الرحل للزيارة، وأنه ليس من القرب، بل بضد ذلك، ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في شفاء السِّقام فشفى صدور قوم مؤمنين)[3]

بل إن الكثير منهم، راح يحكم عليه بأشد الأحكام بسبب ذلك، ومن الأمثلة عليها ما قال الفقيه الشيخ تقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الحصني الشافعي في بعض كتبه عنه: (الحمد لله مستحق الحمد زيارة قبر سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وكرّم ومجّد من أفضل المساعي وأنجح القرب إلى رب العالمين وهي سُنة من سنن المسلمين ومجمع عليها عند الموحدين ولا يطعن فيها إلا من في قلبه خبث ومرض المنافقين وهو من أفراخ السامرة واليهود وأعداء الدين من المشركين، ولم تزل هذه الأمة المحمدية على شدّ الرحال إليه على ممر الأزمان من جميع

---

[1] () الفتح (5/66).

[2] () الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية ص96-98.

[3] () طرح التثريب (6 / 43)

الأقطار والبلدان سواء في ذلك الزرافات والوحدان، والعلماء والمشايخ والكهول والشبان، حتى ظهر في آخر الزمان، في السنين الخداعة مبتدع من حران لبّس على أتباع الدجال ومن شابههم من شين الأفهام والأذهان، وزخرف لهم من القول غروراً كما صنع إمامه الشيطان فصدهم بتمويهه عن سبل أهل الإيمان، وأغواهم عن الصراط السوي إلى بُنيات الطريق ومدرجة الشيطان فهم بتزويقه في ظلمة الخطأ والإفك يعمهون، وعلى منوال بدعته يهرعون، صُمّ بُكم عُميّ فهم لا يعقلون)[1]

وغيرها من المقالات التي اتفق عليها أكثر علماء المدارس الإسلامية، والتي سنرى بعض الأمثلة عنها في الفصل الثاني.. لكن المشكلة لا تكمن هنا، إذ أن مقولات ابن تيمية، وبعد أن حمل عليها الفقهاء حملتهم الكبرى، وزال أثرها من الواقع، نبتت من جديد في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم بنى عليها أحكامه التكفيرية المعروفة، ولذلك خرجت المسألة في عهده من المحرمات والبدع إلى اعتبارها من نواقض الإيمان، بل اعتبارها من أكبر نواقضه.

وقد ازداد ما ذكره ـ بفعل الدور السعودي في نشر الفكر الوهابي ـ حتى صارت زيارة الأضرحة من الأمور التي لا يختلف الناس في تكفير فاعلها، واعتباره مشركا شركا جليا، بسبة أطلقوا عليها [القبورية]

بناء على هذا سنناقش هذه المسألة من خلال القرآن الكريم، والسنة النبوية، والسلف من الصحابة والتابعين وأهل بيت النبوة، لنرى مدى انسجامها أو اختلافها معها.

1 ـ القرآن الكريم.. وزيارة الأضرحة:

ذكر أصحاب الرؤية الإيمانية ثلاث آيات من القرآن الكريم تشير إلى مشروعية زيارة قبر رسول الله ﷺ، وهي بذلك تشير إلى مشروعية زيارة الأضرحة عموما، لأنه إذا ثبتت مشروعية زيارته ﷺ ثبتت مشروعية زيارة من عداه من العلماء والصالحين.

---

[1] الفتاوى السهمية في ابن تيمية، أجاب عنها جماعة من العلماء.

الآية الأولى:

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 100]

وقد ذكرها الشوكاني ـ وهو من الكبار الذين يعتمد عليهم أصحاب الرؤية التكفيرية في الدعوة للعودة لتفعيل الكتاب والسنة في الأحكام الفقهية بدل تقليد المذاهب الفقهية ـ ضمن الأدلة المشيرة إلى مشروعية الزيارة، بل استحبابها، فقال: (والهجرة إليه ﷺ في حياته الوصول إلى حضرته وكذلك الوصول بعد موته)[1]

الآية الثانية:

وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]

فهذه الآية الكريمة تشير إلى ما كان عليه الحال في حياة النبي ﷺ، حيث كان يأتيه المذنب، ويطلب منه الاستغفار والشفاعة له، وقد وجد المسلمون ـ من لدن سلفهم الأول ـ استحباب العمل بها بعد وفاته ﷺ، حيث قالوا بمشروعية استمرارها بعد وفاته، وذلك بزيارة قبره الشريف، والاستغفار عنده، وسؤال الشفاعة، ذلك لأنّ إجلال الرسول ﷺ وتكريمه واجب بعد موته كوجوبه في حياته.

وقد ذكر الشوكاني وجه الاستدلال بها، فقال: (ووجه الاستدلال بها أنه ﷺ حي في قبره بعد موته كما في حديث: الأنبياء أحياء في قبورهم، وقد صححه البيهقي وألف في ذلك جزءا)[2]

وقال السبكي: (دلت الآية على الحث على المجيء إلى

---

[1] () نيل الأوطار 3/ 105.

[2] () نيل الأوطار 3/ 105.

الرسول ﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له لا تنقطع بموته، تعظيما له.. والآية وردت في أقوام معينين في حالة الحياة، فتعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف في الحياة وبعد الموت، ولذلك فهم العلماء من الآية العموم في الحالتين، واستحبوا لمن أتى قبره ﷺ أن يتلو هذه الآية ويستغفر الله تعالى)(1)

بل إن فقهاء الصحابة استدلوا بهذه الآية على ذلك، فقد روي عن عبد الله بن مسعود قال: (إن في النساء لخمس آيات ما يسرني بهن الدنيا وما فيها، وقد علمت أن العلماء إذا مروا بها يعرفونها وذكر منها: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64])(2)، ففرح ابن مسعود بهذه الآية ظاهر في أنها عامة.

ونفس الشيء طبقوه مع قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُون﴾ [سورة الحجرات:2]، حيث كتبت هذه الآية على الجدار المقابل لقبر الرسول ﷺ لتدل على ذلك.

وقد روي في ذلك أن المنصور العباسي سأل الإمام مالك: (أستقبل القبلة وأدعوا، أم استقبل رسول الله ﷺ؟، فقال مالك: (ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه‌السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفّعه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[النساء: 64])(3)

وروي عن مالك كذلك أنه أنكر على أبي جعفر رفعه صوته

1() شفاء السقام: 81 - 82..

2() معجم الطبراني 9/ـ 220، قال الهيثمي 7/ـ 71: (رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح).

3() شفاء السقام / السبكي: 69 - 70..

عند قبر رسول الله ﷺ قائلا: (يا أمير المؤمنين لا ترفع صـوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوما فقال: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَـهُ بِـالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِـكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَـطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْـعُرُون﴾ [سـورة الحجرات:2]، ومدح قوما فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْـوَاتَهُمْ عِنْـدَ رَسُـولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُـوبَهُمْ لِلتَّقْـوَى لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: 3]، وذم قوما فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4]، وإن حرمته ميتا كحرمته حيا)(1)

والروايات الكثـيرة حـول الاسـتدلال بالآيـة من لـدن السـلف الأول، تدل على اشتهار ذلك، واعتباره، حـتى أصـبح معروفـا لـدى العامة والخاصة، وقد روى العتبي (توفى 228 هـ) في ذلك ــ وهـو من مشايخ الشـافعي، وحـدّث عن سـفيان بن عيينـة وغـيره ـ عن محمد بن حرب الهلالي، قال: دخلت المدينة، فأتيت قـبر النـبي ﷺ فزرته وجلست بحذائـه، فجـاء أعـرابي فـزاره، ثمَّ قـال: (يا خـير الرسـل، إنّ الله أنـزل عليك كتابـاً صـادقاً قـال فيه: (وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُـوا أَنفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُـولُ لَوَجَـدُوا اللَّهَ تَوَّابًـا رَّحِيمًـا) وإنّي جئتـك مسـتغفراً ربّـك من ذنـوبي مستشفعاً فيها بك. ثمَّ بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت [illegible] فطاب من طيبهنّ [illegible]
نفسي الفداء لقبرٍ [illegible] فيه العفاف وفيه [illegible]

ثمَّ استغفر وانصرف(2).

وقد نظم ما قاله من شعر أبو الطيب أحمد بن عبدالعزيز بن محمد المقدسي يقول فيها(3):

1() المرجع السابق.

2() أخرج هذه الرواية ابن الجوزي في (مثير العزم السـاكن إلىٰ أشـرف الأمـاكن) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) والقسطلاني بأسانيدهم، انظر: شفاء السقام: 62 ـ 63، مختصر تاريخ دمشق 2: 408، والمواهب اللدنية 4: 583.

3() المواهب اللدنية 4: 583.

أقول والدمع من عينيّ … لمّا رأيت جدار القبرِ
والناسُ يغشونه باكٍ … من المهابة أو داعٍ فملتزمُ
فما تمالكت أن ناديتُ من … في الصدر كادت له
(يا خير من دُفنت في … فطاب من طيبهن القاع
نفسي الفداء لقبرٍ أنت … فيه العفاف وفيه الجود
وفيه شمس التقىٰ … من بعد ما أشرقت من
حاشا لوجهك أن يبلىٰ … في الشرق والغرب من
وأن تمسّك أيدي الترب … وأنت بين السماوات

إلىٰ قوله:

لئن رأيناه قبراً إنّ … لروضة من رياض الخلد
طافه به من نواحيه … تغشاه في كل يوم ما
لو كنت أبصرته حياً … لا تمشي إلّا علىٰ خدي

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: 84]

وقد فصل الشيخ جعفر السبحاني بعض وجه دلالتها، وهي ما نلخصه في النقاط التالية(1):

1. أنّ الآية الكريمة تسعى لهدم شخصية المنافق، وهزّ العصا في وجوه حزبه ونظرائه، والنهي عن هذين الأمرين بالنسبة إلى المنافق، معناه ومفهومه مطلوبية هذين الأمرين (الصلاة والقيام على القبر) بالنسبة لغيره، أي للمؤمن.

2. أن قوله تعالى: ﴿ولا تَقُم عَلى قَبره﴾ لا يدل على النهي عن القيام وقت الدفن فقط، وإنما يدل على وقت الدفن وغيره،

1() الزيارة في الكتاب والسنة، الشيخ جعفر السبحاني، نسخة إلكترونية برعاية وإشراف شبكة الإمامين الحسنين للتراث والفكر الإسلامي، ص16، فما بعدها.

كما قال شهاب الدين الألوسي (المتوفى: 1270هـ): (ويفهم من كلام بعضهم أنّ (على) بمعنى (عند) والمراد: لاتقف عند قبره للدفن أو للزيارة)[1]، ثم نقل عن السيوطي قوله في فتاواه: (المراد بالقيام على القبر الوقوف عليه حالة الدفن وبعده ساعة، ويحتمل أن يعم الزيارة أيضا أخذا من الإطلاق وتاريخ الزيارة كان قبل النهي لا بعده، فإن الذي صح في الأحاديث أنه ﷺ زارها عام الحديبية، والآية نازلة بعد غزوة تبوك، ثم الضمير في مِنْهُمْ خاص بالمنافقين، وإن كان بقية المشركين يلحقون بهم قياسا، وقد صح في حديث الزيارة أنه استأذن ربه في ذلك؛ فأذن له، وهذا الإذن عندي يستدل به على أنها من الموحدين، لا من المشركين كما هو اختياري، ووجه الاستدلال به أنه نهاه عن القيام على قبور الكفار، وأذن له في القيام على قبر أمه؛ فدل على أنها ليست منهم وإلا لما كان يأذن له فيه)[2]

3. أن لفظة (أحد) في قوله تعالى:﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: 84]، بحكم ورودها في سياق النفي تفيد العموم والاستغراق لجميع الافراد، ولفظة (أبداً) تفيد الاستغراق الزمني، فيكون معناها: لا تصل علي أحد من المنافقين في أيّ وقت كان، ومع الانتباه إلى هذين اللّفظين نعرف أنّ المراد من النهي عن الصلاة على الميّت المنافق ليس خصوص الصلاة على الميت عند الدفن فقط، لانّها ليست قابلة للتكرار في أزمنة متعدّدة، ولو أُريد ذلك لم تكن هناك حاجة إلى لفظة (أبداً)، بل المراد من الصلاة في الآية مطلق الدعاء والترحّم سواء أكان عند الدفن أم غيره.

والدليل على أنّ لفظة (أبداً) دليل على الاستغراق الزماني، هو أن لفظة (أحد) أفادت الاستغراق والشمول لجميع المنافقين بوضوح فلا حاجة للتأكيد، بالإضافة إلى أن لفظة (أبداً) تستعمل في اللّغة العربية للاستغراق الزماني، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ [الأحزاب: 53] فالنتيجة أنّ

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ (5/ 342)

[2] المرجع السابق، (5/ 343)

المقصود هو النهي عن الترحّم على المنافق وعن الاستغفار له، سواء أكان بالصلاة عليه عند الدفن أم بغيرها.

3 ـ أن مفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ [التوبة: 84] ـ مع الانتباه إلى أنّها معطوفة على الجملة السابقة ــ هو: (لا تَقُم على قبر أحد منهم مات أبداً)، لأنّ كل ما ثبت للمعطوف عليه من القيد ـ أعني (أبداً) ــ يثبت للمعطوف أيضاً، ففي هذه الحالة لا يمكن القول بأنّ المقصود من القيام على القبر هو وقت الدفن فقط، لأنّ المفروض عدم إمكان تكرار القيام على القبر وقت الدفن، كما كان بالنسبة للصلاة، ولفظة (أبداً) المقدّرة في هذه الجملة الثانية تفيد إمكانية تكرار هذا العمل، فهذا يدل على أنّ القيام على القبر لايختصّ بوقت الدفن.

وبذلك يكون معنى الآية الكريمة: إنّ الله تعالى ينهى نبيه ﷺ عن مطلق الاستغفار والترحّم على المنافق، سواء كان بالصلاة أو مطلق الدعاء، وينهى عن مطلق القيام على القبر، سواء كان عند الدفن أو بعده، ومفهوم ذلك هو أنّ هذين الأمرين يجوزان للمؤمن، وبهذا يثبت جواز زيارة قبر المؤمن وجواز قراءة القرآن على روحه، حتى بعد مئات السنين.

2 ـ السنة النبوية.. وزيارة الأضرحة:

مع أن أصحاب الرؤية التكفيرية يناضلون عن كل ذلك التراث الحديثي المملوء بالتجسيم والتشبيه والخرافة، ليفرضوه على الأمة، ويضعوه في عقائدها وفقهها وتفسيرها، وكل مصادر دينها، ويعتبرون كل مخالف لذلك طاعنا في السنة، بل طاعنا في رسول الله ﷺ نفسه إلا أنهم في هذه الناحية، ولعدم انسجامها مع أهوائهم، رحوا ـ على العكس من ذلك ــ يضعفون كل ما اتفقت الأمة على قبوله من الأحاديث، بل يتهمونه بالكذب.

وهذا يدل على أن دفاعهم عن السنة ليس دفاعا عنها لذاتها، أو دفاعا عن رسول الله ﷺ، وإنما هو دفاع عن تلك الخرافات التي دخلت في الإسلام باسم السنة، فشوهت العقيدة، وكل القيم القرآنية، وإلا لو كانوا صادقين في دفاعهم عن السنة، لاحترموا المخالف لهم في قبول الأحاديث التي تدل على ما ذهب إليه، ولم

يضعوا المسألة في أبواب العقائد، ويكفروا من خلالها المسـلمين، مع ثبوت الأحاديث في ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن تيميـة في مواضـع كثـيرة من كتبه حول رفضه لكل أحاديث الزيارة، ومنها فتـواه لمن سـأله عن قوله ﷺ: (مَن زار قبري وجبت له شفاعتي)، و(من زار الـبيت ولم يزرني فقد جفاني)، وهل زيارة النبي ﷺ على وجه الاستحباب أو لا؟ فأجاب بقوله: (أمّا قوله: (مَن زار قبري وجبت له شفاعتي) فهذا الحديث رواه الدارقطني ـ فيما قيل ـ بإسـناد ضـعيف، ولهـذا ذكره غير واحد من الموضـوعات، ولم يـروه أحـد من أهـل الكتب المعتمد عليها من كتب الصحاح والسنن والمسانيد، وأمّـا الحـديث الآخر قوله: (مَن حج البيت ولم يزرني فقد جفاني)، فهذا لم يـروه أحد من أهل العلم بالحديث، بل هو موضـوع على رسـول اللـه ﷺ ومعناه مخالف للإجماع، فإنّ جفاء الرسـول ﷺ من الكبـائر.. وأمّـا زيارته فليست واجبـة باتّفـاق المسـلمين، بـل ليس فيهـا أمـر في الكتاب ولا في السـنّة، وإنّمـا الأمـر الموجـود في الكتـاب والسـنّة بالصلاة عليه والتسليم. وأكثر ما اعتمده العلماء في الزيـارة قولـه في الحديث الذي رواه أبو داود: (ما من مسلم يسـلّم عليّ، إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام)(1)

بل إن الأمر وصل به إلى هذا الجفاء الـذي عـبر عنـه بقولـه: (أن إتيان مسجد رسول الله ﷺ وقصـد ذلـك والسـفر لـذلك أولى من إتيان قـبره لـو كـانت الحجـرة مفتوحـة والسـفر إليـه بإجمـاع المسلمين. فإن الصحابة كـانوا يـأتون مسـجده في اليـوم والليلـة خمس مرات والحجـرة إلى جـانب المسـجد لم يـدخلها أحـد منهم لأنهم قد علموا أنه نهـاهم أن يتخـذوا القبـور مسـاجد وأن يتخـذوا قبره عيدا أو وثنا.. وكذلك قد علموا أن صلاتهم وسلامهم عليه في المسجد أولى من عند قبره. وكل من يسافر للزيارة فسفره إنمـا يكون إلى المسـجد سـواء قصـد ذلـك أو لم يقصـده والسـفر إلى المسجد مستحب بالنص والإجماع)(2)

وقال: (لو كان قبر نبينا يزار كما تزار القبور لكان أهل مدينته

1() مجموع الفتاوى: 27/25.

2() المرجع السابق، (27/ 309).

أحق الناس بذلك كما أن أهل كل مدينة أحق بزيارة من عندهم من الصالحين فلما اتفق السلف وأئمة الدين على أن أهل مدينته لا يزورون قبره بل ولا يقفون عنده للسلام إذا دخلوا المسجد وخرجوا وإن لم يسمى هذا زيارة، بل يكره لهم ذلك عند غير السفر!! كما ذكر ذلك مالك وبين أن ذلك من البدع التي لم يكن صدر هذه الأمة يفعلونه علم أن من جعل زيارة قبره مشروعة كزيارة قبر غيره فقد خالف إجماع المسلمين)(1)

وقال في (الرد على الأخنائي): (ولهذا كان الصحابة في عهد الخلفاء الراشدين إذا دخلوا المسجد.. لم يكونوا يذهبون إلى ناحية القبر فيزورونه هناك ولا يقفون خارج الحجرة كما لم يكونوا يدخلون الحجرة أيضا لزيارة قبره.. ولا كانوا أيضا يأتون من بيوتهم لمجرد زيارة قبره ﷺ بل هذا من البدع التي أنكرها الأئمة والعلماء وإن كان الزائر ليس مقصوده إلا الصلاة والسلام عليه وبينوا أن السلف لم يفعلوها)(2)

وقال في نفس الكتاب: (ومعلوم أن أهل المدينة لا يكره لهم زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد وغيرهم... ولكن قبر النبي ﷺ خص بالمنع شرعا وحسا كما دفن في الحجرة ومنع الناس من زيارة قبره من الحجرة كما تزار سائر القبور فيصل الزائر إلى عند القبر، وقبر النبي ﷺ ليس كذلك فلا تستحب هذه الزيارة في حقه ولا تمكن) (3)

ولم يكتف بهذا، بل راح يحرم السفر لزيارة رسول الله ﷺ، ويعتبره بدعة، ويحرم قصر الصلاة لمن فعل هذا، وكأن الذي يريد أن يزور رسول الله ﷺ يريد أن يفعل معصية، ومن فتاواه في ذلك قوله: (وأما إذا كان قصده بالسفر زيارة قبر النبي دون الصلاة في مسجده، فهذه المسألة فيها خلاف، فالذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أن هذا غير مشروع ولا مأمور به، لقوله ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا

1() المرجع السابق، 27/ 243.

2() الرد على الأخنائي ص 385.

3() المرجع السابق، ص 386.

والمسجد الأقصى)[1]

ومنها قوله في (مجموع الفتـاوى): (السـفر إلى زيـارة قبـور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهو مخالف للسنة ولإجماع الأئمة)[2]

ومنها قوله في تبديع أشواق المسلمين لزيارة رسول الله ﷺ عند الهم بالحج: (حتى أن أحـدهم إذا أراد الحج لم يكن أكـثر همـه الفرض الذي فرضه الله عليه وهو حج بيت الله الحرام، وهو شعار الحنيفية ملة إبـراهيم إمـام أهـل دين اللـه بـل يقصـد المدينـة. ولا يقصد ما رغب فيه النبي ﷺ من الصـلاة في مسـجده.. بـل يقصـد من زيارة قبره أو قبر غيره ما لم يأمر اللـه بـه ورسـوله ولا فعلـه أصحابه ولا استحسنه أئمة الدين. وربما كـان مقصـوده بـالحج من زيارة قبره أكـثر من مقصـوده بـالحج وربمـا سـوى بين القصـدين وكـل هـذا ضـلال عن الـدين باتفـاق المسـلمين بـل نفس السـفر لزيارة قبر من القبور - قبر نبي أو غيره - منهي عنـه عنـد جمهـور العلماء حتى أنهم لا يجوزون قصد الصلاة فيه بنـاء على أنـه سـفر معصـية.. وكـل حـديث يـروى في زيـارة القـبر فهـو ضـعيف بـل موضوع)[3]

بناء على هذه الرؤية التي استعملها التكفيريون بعد ذلــك في تكفير من يسمونهم قبورية، نناقش هنا الأحاديث التي وصــفها ابن تيمية بالضعف والوضع، لنبين موقف أصحاب الرؤية الإيمانية منها، مع العلم أن الكثير من الأبواب الفقهيـة الطويلـة، قـد تعتمـد على حديث واحد، وربما يكون من الأفعال لا من الأقوال.

ونحب أن ننبه إلى أن هناك مؤلفات كثيرة ألفت لهذا الغرض من كلا الفــريقين، من أشــهرها وأقــدمها مــا ألفــه علي بن عبــد الكافي السبكي (ت 756 هـ) في الرد على ابن تيمية، وذكـر أدلـة الزيارة، وهو بعنوان [شفاء السقام في زيارة خير الأنام]، ذكر فيه

1() الفتاوى الكبرى 5/ 146.

2() المرجع السابق، 27/ 220.

3() المرجع السابق، (4/ 519)

خمسة عشر حديثا بطرقها، بالإضافة لأدلة أخرى كثيرة.

وقد رد عليه ابن عبد الهادي (ت 744 هـ)، وهو من تلاميذ ابن تيمية، في كتاب سماه [الصارم المنكي في الرد على السبكي]، حاول أن يرد به على ما ذكره السبكي من أحاديث الزيارة، لينتصر لابن تيمية.

وقد كان هذا الكتاب الأخير هو المعتمد الأكبر لأصحاب الرؤية التكفيرية، فهم يعتبرونه بكل ما فيه بناء على ذاتيتهم في التعامل مع السنة النبوية، ولهذا يحذرون من كتاب السبكي، ويرفضون أي تعامل معه، على الرغم من كونه محدثا.

وهكذا يرفضون التعامل مع كل الكتب التي ألفت بعد ذلك، ومن كبار المحدثين الذين يستعملون نفس المناهج التي يعتمدونها.

وقد أشار المحدث المعاصر محمود سعيد ممدوح في كتابه (رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة) إلى هذه الذاتية والازدوجية في التعامل مع أحاديث الزيارة، فقال: (شاع بين كثير من الناس أن أحاديث الزيارة كلها ضعيفة، بل موضوعة وهو خطأ بلا ريب، ومصادمة لقواعد الحديث بلا مين، ويكفى اللبيب قول الذهبى الحافظ الناقد عن حديث الزيارة: طرقه كلها لينة لكن يتقوى بعضها ببعض لأن ما فى روايتها متهم بالكذب، نقله عنه السخاوى، وأقره فى المقاصد الحسنة، ومنشأ هذا الخطأ هو الاعتماد على كتاب (الصارم المنكى فى الرد على السبكى) للحافظ أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى.. وكنت أرى الإحالة على هذا الكتاب من كثير من الكتاب سواء من المشتغلين بالحديث أو غيرهم فأكتفى بالسكوت رغبة فى اغتنام فرصةٍ لتحقيق مدى صحة هذه المقولة.. وبعد النظر فى (الصارم المنكي) وتحقيق أحاديث الزيارة، رأيت الهول في هذا الكتاب، فتراه يتعنت أشد التعنت فى رد الأحاديث عند كلامه على الرجال، ويطول الكلام جداً على الرجال ناقلاً ما يراه يؤيد رأيه وهو الجرح، ولا يذكرمن التعديل إلا ما يوافقه كما فعل مع عبد الله بن عمر العمري، وتطويله للكلام يخرجه عن المقصود إلى اللغو والحشو مع التكرار الممل.. وهو يذكر أبحاثاً خارجة عن المقصود كالبحث

المتعلق بالمرسل وطرق الحديث الذى فيه حفص بن سليمان القاري.. ويطيل الكتاب جداً بذكر فتوى فى الزيارة لابن تيمية عقب كل حديث فى الزيارة، وحاصلها مكرر ومعروف.. وأحياناً يأتى بتعليلات للأحاديث خارجة عن قواعد الحديث، كقوله عند محاولة تضعيف بعض الأحاديث: لم يخرّجه أحد من أصحاب الكتب الستة ولا رواه الإمام أحمد فى مسنده ... إلخ، وغير خفي أنّ هذا التعليل فيه نظر فالعبرة بالإسناد ولو كان الحديث فى جزء غير مشهور)[1]

بناء على هذا سنذكر هنا سبعة أحاديث دالة على مشروعية الزيارة، والأدلة التي تقويها بناء على ما ذكره أصحاب الرؤية الإيمانية، مع التنبيه الذي أشرنا إليه سابقا من أن الكثير من الأحكام الشرعية التي يبالغ فيها أصحاب الرؤية التكفيرية من أمثال النقاب ونحوه، لا نجد فيها ولو حديثا واحدا.

الحديث الأول:

وهو الحديث الذي لا يختلفون في صحته، ولو أنهم يقصرون في الاستدلال به، وهو قوله ﷺ: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها)[2]

فهذا الحديث يرغب ترغيبا عاما في زيارة القبور من غير تحديد لقبر منها، ومن المستغرب أن نقيد ما أطلقه رسول الله ﷺ، أو نخصص ما عممه، كما فعل ابن تيمية حين اشترط نصا خاصا بزيارة رسول الله ﷺ.

ذلك أن الزيارة ـ بهذا الحديث ــ تدخل على الأقل في باب المستحبات ـ وهي لذلك يمكن التنقل بسببها والسفر لأي مقبرة، ولأي قبر، ولا يصح لأحد أن يقيد ذلك بقبور معينة، فيمنع من زيارة غيرها.

1() رفع المنارة في تخريج أحاديث التوسل والزيارة ص 10 - 11.

2() صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، 2 / 366 / 107، سنن الترمذي 3 / 370 / 1504، السنن الكبرى للنسائي 1 / 653 / 2159، المستدرك 1 / 530 / 1385، مصابيح السنة 1 / 568 / 1239.

ومن روايات الحديث هذه الرواية التي رواها الترمذي وغيره: (قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة)(1)

وقد عقب عليها الترمذي بقوله: (حديث بريدة حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم: لا يرون بزيارة القبور بأسا، وهو قول ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق)(2)

وهذا الحديث ـ بهذه الرواية خصوصا ـ يدل على مشروعية زيارة قبر معين، أي أن الغرض ليس زيارة المقابر فقط، كما ينص على ذلك أصحاب الرؤية التكفيرية، بل يمكن أن تدخل أغراض أخرى، مثل صلة الرحم، كما أخبر ﷺ عن إذن الله له بزيارة أمه.. ويدخل أيضا زيارة الصالحين، مثلما كان يفعل ﷺ عندما كان يزور شهداء أحد.. وغيرها كما سنرى.

الحديث الثاني:

ما ورد من الأحاديث الفعلية في قصد رسول الله ﷺ قبورا معينة بالزيارة، وذلك يرد على ما يذكره أصحاب الرؤية التكفيرية من أن الزيارة لا يقصد بها إلا الموعظة، والتي تتحقق بزيارة أي قبر.

ومن تلك الأحاديث ما رواه الحاكم عن بريدة، قال: (زار النبي ﷺ قبر أمه في ألف مقنع، فلم ير باكيا أكثر من يومئذ) (3)، وقد صحح الحاكم الحديث ووافقه عليه الذهبي.

ومثله روي عن أبي هريرة أنه قال: (زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله) (4)

ويؤكد هذا الحديث قوله ﷺ: (قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر

(1) سنن الترمذي 2/361 ح(1054)

(2) المرجع السابق.

(3) المستدرك 1 / 531 / 1389.

(4) المستدرك 1 / 531 / 1390.

الآخرة)(1)

ومن تلك الأحاديث العملية ما رواه طلحة بن عبيدالله، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ يريد قبور الشهداء حتى إذا أشرفنا على حرة واقم (2)، فلما تدلينا منها وإذا قبور ممحية، قلنا: يا رسول الله، أقبور إخواننا هذه؟ قال: (قبور أصحابنا) فلما جئنا قبور الشهداء، قال: (هذه قبور إخواننا)(3)

وهذا الحديث واضح الدلالة في قصده ﷺ لقبور الشهداء، وواضح في الدلالة على أن القصد منه ليس مجرد العظة والاعتبار، وإنما لمكانتهم، ولهذا سماهم ﷺ (إخواننا) للدلالة على شرفهم ومكانتهم، فالأخوة أعظم شرفا من الصحبة.

ومن تلك الأحاديث العملية ما روي من خروجه ﷺ مرارا إلى البقيع لزيارة قبور المؤمنين المدفونين هناك، ومنها ما رواه عطاء عن عائشة، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غدا، مؤجلون، وإنا، إن شاء الله، بكم لاحقون، اللهم، اغفر لأهل بقيع الغرقد) (4)

وهذا الحديث يدل على كثرة زياراته ﷺ لهم، وهو يدل على مدى استحباب ذلك، وعلى أن القصد منه ليس العبرة فقط، لأنها تتحقق بأدنى من ذلك.

ومن تلك الأحاديث العملية ما روي من خروجه ﷺ مرارا إلى قبور الشهداء بأحد، ومن ذلك ما رواه على رأس كل حول، ومنها ما رواه عن محمد بن إبراهيم التيمي قال: كان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء عند رأس الحول، فيقول: (السلام عليكم بما صبرتم

1() سنن الترمذي 2/361 ح(1054)

2() حرة واقم: هي في طرف المدينة الشرقي، وهي التي حصلت فيها وقعة الحرة سنة 62 هـ، بين أهل المدينة المنورة وكلهم من الصحابة وأبنائهم، وبين جيش يزيد بن معاوية.

3() سنن أبي داود 2 / 218 / 357.

4() صحيح مسلم 2/669 ح(974)، سنن النسائي 4/93 ح(2039).

فنعم عقبى الدار). قال: وكان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك(1).

وهذه الأحاديث وغيرها كثير، يدل على فساد ذلك الاستدلال الذي يستدل به أصحاب الرؤية التكفيرية، لقوله ﷺ: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)(2)، والذي يذكرونه كثيرا كدليل على تحريم شد الرحل لزيارة النبي ﷺ ويعتبرون أن السفر بذلك سفر معصية.

ومن الوجوه التي ذكرها أصحاب الرؤية التكفيرية لفساد هذا الاستدلال(3):

1. أنه مبني على فهم باطل، فالحديث لا علاقة له بالمقابر، ولا بزيارتها، ذلك أن قوله ﷺ: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) جاء على أسلوب الاستثناء، وهو يقتضي وجود مستثنى ومستثنى منه، فالمستثنى هو ما كان بعد إلا، والمستثنى منه هو ما كان قبلها، ولابد من الأمرين، إما وجوداً أو تقديراً، وإذا نظرنا إلى هذا الحديث وجدنا أنه قد جاء فيه التصريح بذكر المستثنى وهو قوله: (إلى ثلاثة مساجد) وهو ما بعد (إلا) ولم يأت ذكر المستثنى منه وهو ما قبل (إلا) فلابد إذن من تقديره.

فإن فرضنا أن المستثنى منه كلمة [قبر] ــ كما يذكر التكفيريون ــ كان اللفظ المنسوب لرسول الله ﷺ: (لا تشد الرحال إلى قبر إلا إلى ثلاثة مساجد)، وهذا السياق ظاهر في عدم الانتظام وغير لائق بالبلاغة النبوية، فالمستثنى غير داخل ضمن المستثنى منه، والأصل أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه.

وإن فرضنا أن المستثنى منه لفظ [مكان] يكون السياق

1() مصنف عبد الرزاق الصنعاني 3/573 ح(6716).

2() ابن أبي شيبة 2/358، والحميدي (935)، ومسلم (602)، والترمذي (329)، وابن الجارود (305)، والنسائي 2/114-115.

3() انظر: مفاهيم يجب أن تصحح، محمد علوي المالكي، ص201.

المنسوب لرسول الله ﷺ على هـذا الفـرض، لا تشـد الرحـال إلى مكان إلا إلى ثلاثة مساجد، ومعـنى هـذا تحـريم كـل أنـواع السـفر حتى لو كان سفر تجارة أو علم أو خير، وهذا لا يقول به أحــد، بــل كــل النصــوص المقدســة تنفيــه، وتــدعو إلى الســير في الأرض، والسفر للعلم والتجارة وغيرها.

وإن فرضـنا أن المسـتثنى منـه لفـظ [مسـجد] يكـون سـياق الحديث بلفظ: (لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى ثلاثــة مســاجد)، وهذا معنى منتظم وجرى على الأسلوب اللغوي الفصــيح، واختفى التهافت الواضح في الصورتين المتقدمتين.

2. أن هناك روايات أخـرى للحـديث تؤكـد أن المسـتثنى منـه المساجد، وليس المقابر، ومنها ما رواه الإمام أحمـد عن شـهر بن حوشب قال: سمعت أبا سعيد وذكرت عنـده الصـلاة والسـلام في الطور فقال: قال رسول الله ﷺ: (لا ينبغي للمطي أن يشد رحالـه إلى مسـجد تبتغى فيـه الصـلاة غـير المسـجد الحـرام والمسـجد الأقصى ومسجدي)، وفي رواية: (لا ينبغي للمطي أن تشـد رحالـه إلى مسـجد يبتغى فيـه الصـلاة غـير المسـجد الحـرام والمسـجد الأقصى ومسجدي هذا)، وقد قال ابن حجـر تعليقـا على الحـديث: (وشــهر حســن الحــديث وإن كــان فيــه بعض ضـعف)[1]، وقــال الهيثمي: (وفيه شهر، فيه كلام وحديثه حسن)[2]

ومنها ما روي عن عائشـة قـالت: قـال رسـول اللـه ﷺ: (أنـا خاتم الأنبياء، ومسجدي خاتم مسـاجد الأنبيـاء، أحـق المسـاجد أن يزار، وتشد إليه الرواحل: المسـجد الحـرام ومسـجدي، صـلاة في مسـجدي أفضــل من ألــف صــلاة فيمــا ســواه من المســاجد إلا المسجد الحرام)[3]

وهذه الأحاديث تبين أن ما عدا هذه المسـاجد الثلاثـة متسـاو في الفضل، فلا فائدة في التعب بالسفر إلى غيرها، أمـا هي فلهـا مزيد فضل، ولا دخل للمقابر في هذا الحـديث، فإقحامهـا في هـذا

1() فتح الباري ج3 ص65.

2() مجمع الزوائد ج4 ص3.

3() رواه البزار. (مجمع الزوائد ج4 ص3).

الحديث يعتبر من التكلف والكذب على رسول الله ﷺ.

الحديث الثالث:

وهو قوله ﷺ: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)[1]، وهو من الأحاديث القوية التي يعتمدها أصحاب الرؤية الإيمانية، ولذلك حاول أصحاب الرؤية التكفيرية رده على الرغم من ثبوته، مستعملين كل ما أتاح لهم علم الحديث من حيل وخدع، تجعلهم يضعفون ما شاءوا، ويصححون ما شاءوا، كما شرحنا ذلك بتفصيل في كتاب [التراث السلفي تحت المجهر]

وقد ذكرنا في الفصل الخاص بذلك، مظاهر الذاتية في الحكم على الأحاديث، وهي: (أولا ــ الطائفية في التعامل مع الحديث رواية ودراية.. ثانيا ـ الذاتية في قبول الرواة ورفضهم.. ثالثا ـ الذاتية في تحديد علل الحديث.. رابعا ــ الذاتية في تفسير الأحاديث وتأويلها.. خامسا ـ مزاحمة الحديث بالرواية عن السلف)

وقدمنا لها بقولنا: (وبهذا الترتيب لن ينجو من منخل أهل الحديث إلا ما يرتضونه من أحاديث، أو ما وضعه لهم سلفهم من الحديث.. اللهم إلا الأحاديث التي لا تضرهم، ولا تصيب مقاتلهم، فإنهم يتركونها تمر، فالشيطان لا يأتي من أبواب الشر المجردة، بل يخلط الخير بالشر، حتى يعبث من خلال ذلك بالعقول.. وأول ما يبدؤون به فرزهم للحديث بحسب أهوائهم هو حرمانهم لمن لا ينتسب لهم من الكلام في الحديث حتى لو بلغ ما بلغ من الحفظ والإتقان.. وهكذا يتعاملون مع رواة الأحاديث، فمن حدث بما يوافق أهواءهم قبلوه ووثقوه، ومن خالفها ضعفوه ووهنوه واتهموا حديثه.. فإن نجا الحديث منهم بصحة السند، ذكروا أن السند لا يكفي وحده للصحة، بل قد يضعف لعلة خفية فيه.. ثم راحوا يذكرون أي علة، ولا يحاسبهم أحد في ذلك، لأن العلل الخفية قد لا يطاق التعبير عنها.. فإن نجا الحديث منهم بعد ذلك كله فسروه أو أولوه بما يتناسب مع مزاجهم.. فإن نجا من ذلك ولم يكن هناك محمل آخر يمكن حمله عليه زاحموه بأقوال السلف التي

---

[1] () سنن الدارقطني 2 / 278 / 194، السنن الكبرى للبيهقي 5 / 245، شعب الإيمان للبيهقي 3 / 49

يعتبرونها أكثر حرمة من القرآن الكريم والسنة المطهرة..)[1]

وقد طبقوا كل هذه المناهج مع هذا الحديث وغيره، ومن أمثلتها قول ابن تيمية فيه في كتابه (الفتاوى الكبرى): (وأما قوله: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)، فهذا الحديث رواه الدارقطني فيما قيل بإسناد ضعيف، ولهذا ذكره غير واحد من الموضوعات، ولم يروه أحد من أهل الكتب المعتمد عليها من كتب الصحاح، والسنن، والمسانيد. وأما الحديث الآخر: قوله: (من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني)، فهذا لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث، بل هو موضوع على رسول الله ومعناه مخالف الإجماع فإن جفاء الرسول ﷺ من الكبائر، بل هو كفر ونفاق)[2]

بناء على هذا، سنلخص هنا ما أورده أصحاب الرؤية الإيمانية من دلائل قبول هذا الحديث، وكونه لا يقل عن تلك الأحاديث التي يستدل بها في الأحكام الفقهية في الوجوه التالية[3]:

1. صحة السند الذي أورده الدارقطني للحديث، وهو يبدأ من القاضي المحاملي، ثم عبيد بن محمد الوراق، ثم موسى بن هلال العبدي، ثم عبيد الله بن عمر، ثم نافع، ثم ابن عمر.

وكل هؤلاء ثقات، بلا خلاف، وإنما وقع الكلام في عبيد الله بن عمر[4]، وهو ثقة أيضا، غير أن بعضهم رواه عن عبد الله، أخي عبيد الله، وهو دون أخيه [5] ـ بحسب الرؤية الذاتية للرواة، ذلك

---

[1]() التراث السلفي تحت المجهر (ص / 55).

[2]() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 147)

[3]() انظر: الزيارة والتوسل، سلسلة المعارف الإسلامية، مركز الرسالة، ص32.

[4]() هو عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، من صغار التابعين، ولد بعد سنة 70 هـ، سمع الحديث من سالم بن عبدالله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، ونافع مولى عمر، وكان ملازما له، وقد سئل أحمد بن حنبل عن مالك بن أنس، وأيوب السختياني، وعبيدالله بن عمر، أيهم أثبت في نافع؟ قال / عبيدالله أثبتهم وأحفظهم وأكثرهم رواية (سير أعلام النبلاء 6 / 304 ، 305)

[5]() هو عبد الله بن عمر بن حفص، بن عاصم بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن العمري، خرج مع محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن المثنى في ثورته على المنصور، فحبسه المنصور أخرجه عنه، توفي سنة 171 وقبل 173هـ. ويأتي الكلام في أقوال أهل الجرح والتعديل فيه لاحقا. تهذيب التهذيب 5 / 285 ، 286.

أنه كان من الخارجين مع محمد ذي النفس الزكية على العباسيين ـ وبهذا تمسك من ذهب إلى تضعيف الحديث.

غير أن الثابت في جميع نسخ سنن الدارقطني (عبيد الله) مصغرا، وهكذا رواه الدارقطني في غير السنن أيضا، وكذلك أورده أبو اليمن زيد ابن الحسن في كتابه (إتحاف الزائر وإطراف المقيم المسافر في زيارة سيدنا رسول الله ﷺ)، والحافظ أبو الحسين القرشي في كتابه (الدلائل المبينة في فضائل المدينة)، والخلعي عن الدارقطني، وأورده ابن عساكر عن الخلعي، كلهم يذكرون (عبيد الله) مصغرا، فاتفقت الرواية بهذا الاسناد عن (عبيد الله)(1)، وهكذا في رواية البيهقي بإسناده الذي يلتقي مع إسناد الدارقطني في عبيد بن محمد الوراق، وفيه (عبيد الله) المصغر(2).

وللحديث رواية أخرى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب من طريق آخر، أخرجها البزار في مسنده، قال: حدثنا قتيبة، ثنا عبد الله بن إبراهيم الغفاري، ثنا عبدالرحمن بن زيد، عن أبيه، عن ابن عمر، قال، قال رسول الله ﷺ: (من زار قبري حلت له شفاعتي)، وقد قال فيه الهيثمي: (وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري، وهو ضعيف)(3).

وبذلك فإن هذا الحديث، وانطلاقا من وثاقة جميع رواته، لا يشكك في صحته وقبوله إلا من يعتمد مزاجه ومذهبه، لا الموضوعية العلمية، ولذلك نرى أصحاب الرؤية التكفيرية يذكرون طرق الحديث الضعيفة، ويتركون القوية، حتى يوهموا القارئ أنه ليس لذلك الحديث إلا تلك الطريق.

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الحافظ ابن كثير ــ تلميذ ابن تيمية ـ حيث اقتصر في رواية هذا الحديث في مسند ابن عمر من هذا الطريق، طريق عبد الله بن إبراهيم الغفاري، وترك الطريق

1() شفاء السقام، السبكي / 2.

2() شعب الإيمان / البيهقي 3 / 490.

3() مجمع الزوائد 4 / 2.

الذي اعتمده الدارقطني، والآخر الذي اعتمده البيهقي[1].

وهكذا فعل محقق الكتاب الذي اقتصر على ما ذكره الهيثمي في تضعيفه للغفاري، دون أن يذكر الطريق الآخر للحديث[2].

وهكذا فعل صاحب (موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف) فقد أخرج الحديث بلفظه عن سنن الدارقطني، و(الكنى والاسماء) للدولابي، و(مجمع الزوائد) للهيثمي، و(تلخيص الحبير) لابن حجر، و(الدر المنثور) للسيوطي، و(إتحاف السادة المتقين) للزبيدي، و(كنز العمال) للمتقي الهندي، و(تذكرة الموضوعات) للفتني، و(الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة) للسيوطي، و(الكامل في الضعفاء) لابن عدي[3]، ولم يشر إلى رواية البيهقي في (السنن الكبرى) وفي (شعب الإيمان) المؤيدة لرواية الدارقطني، مع كونهما من مصادر كتابه.

الحديث الرابع:

وهو قول رسول الله ﷺ: (من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة)[4]

وقد اتفق على رواية هذا الحديث بصيغ مختلفة كلا المدرستين السنة والشيعة، في نفس الوقت الذي اجتهد فيه أصحاب الرؤية التكفيرية في رفضه مستعملين كل ما لديهم من مناهج في ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك هذا المنهج الذي اعتمده ابن تيمية، والذي يبدع التكفيريون من يستعمله، باعتباره يستعمل عقله مع

1() جامع المسانيد والسنن 28 / 130 / 244.

2() المرجع السابق.

3() موسوعة أطراف الحديث 8 / 286.

4() الدارقطني في سننه (2/278)، البيهقي في شعب الإيمان (3/488) والمحاملي والساجي كما في الميزان، وعلقه بن عبد البر في الاستذكار.قال ممدوح: ولكن الضعف في هذا الحديث غير شديد، بل ضعفه قريب ويحتج الفقهاء بمثله في إثبات مشروعية أمر ما، ودونك كتب الفقه لتتحقق من صحة مقولتي، فكيف ولأحاديث الزيارة طرق بعضها من شرط الحسن.

النصوص، فقد قال في كتابه [التوسل والوسيلة]: (إن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين، فإن من زاره في حياته، وكان مؤمنا به، كان من أصحابه، لاسيما إن كان من المهاجرين إليه، المجاهدين معه. وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)، أخرجاه في الصحيحين. والواحد من بعد الصحابة لايكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة ؛ كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين، بل ولا شرع السفر إليه، بل هو منهي عنه. وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه، والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه هو مستحب، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب. فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه في حياته، فكيف بالسفر المنهي عنه؟)[1]

وهذه خلاصة للوجوه التي تبين مدى قوة الحديث، خاصة إذا انضم إلى غيره من الأدلة التي ذكرناها سابقا، والتي سنذكرها لاحقا[2]:

1. الحديث رواه الدارقطني عن أبي عبيد، والقاضي أبي عبد الله، وابن مخلد، قالوا: حدثنا محمد بن الوليد البسري، حدثنا وكيع، حدثنا خالد بن أبي خالد وأبو عون، عن الشعبي والأسود بن ميمون، عن هارون بن قزعة، عن رجل من آل حاطب، عن حاطب، قال: قال رسول الله ﷺ: (من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة)[3]، وهكذا رواه البيهقي في (السنن) و(شعب الإيمان)[4]، وأخرجه ابن عساكر بالإسناد نفسه: حدثنا وكيع بن الجراح، عن خالد وابن عون، عن هارون بن قزعة مولى حاطب، عن

1() التوسل والوسيلة (ص134)

2() انظر: الزيارة والتوسل، سلسلة المعارف الإسلامية، مركز الرسالة، ص41.

3() سنن الدارقطني 2 / 287 / 193.

4() السنن الكبرى 5 / 245، شعب الإيمان 3 / 488..

حاطب[1].

وقد قال الذهبي عن إسناد هذا الحديث: (إنه أجود أحاديث الزيارة إسنادا)، وأقره السخاوي في (المقاصد الحسنة) والسيوطي في (الدرر المنتثرة)[2]

2. مما يقوي الحديث ما روي من طريق آخر عن الإمام علي، رواه أبو الحسين يحيى بن الحسن ابن جعفر الحسيني في كتاب (أخبار المدينة) قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني أبو أحمد الهمداني، حدثنا النعمان بن شبل، حدثنا محمد بن الفضل سنة ست وسبعين، عن جابر، عن محمد بن علي، عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ: (من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزرني فكأنما جفاني)[3]

3. مما يقوي الحديث ما روي من طريق آخر عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حي، ومن زارني كنت له شهيدا وشفيعا يوم القيامة)[4] (2).

4. مما يقوي الحديث ما روي من طريق آخر عن هارون بن قزعة، عن رجل من آل الخطاب، عن النبي ﷺ قال: (من زارني متعمدا كان في جواري يوم القيامة)، وقد أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) والعقيلي في (الضعفاء الكبير)، وهارون بن قزعة ذكره ابن حبان في الثقات [5]، أما العقيلي، فلم يزد عند الحكم عليه بالضعف على ما نقله عن البخاري: (لا يتابع عليه)[6]

بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكر أن في هذا الإسناد تصحيفا، فهو

1() مختصر تاريخ دمشق 2 / 406.

2() المقاصد الحسنة، 413، الدرر المنتثرة، 173، شفاء السقام، 103.

3() نقلا عن: شفاء السقام، 39.

4() شفاء السقام: 35 ، 36.

5() الثقات لابن حبان 7 / 580.

6() الضعفاء الكبير 4 / 361 رقم 1973.

(رجل من آل حاطب)[1]، مثل الذي ذكرناه من رواية الدارقطني عن هارون بن قزعة نفسه عن رجل من آل حاطب، عن حاطب.

الحديث الخامس:

وهو قول رسول الله ﷺ: (من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا)، وقد وراه ابن أبي الدنيا والبيهقي وغيرهم[2].

وقد نقل ابن الجوزي رواية ابن أبي الدنيا في كتابه (مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن) ومن خطه نقله السبكي[3].

ورواه البيهقي بإسناده ويلتقي مع الأول في إسماعيل بن أبي فديك، عن سليمان بن يزيد الكعبي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات في أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة، ومن زارني محتسبا إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة)[4]

وله إسناد آخر هو: أبو عوانة موسى بن يوسف القطان، عن عباد بن موسى الختلي، عن ابن أبي فديك، عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس بن مالك..

وبذلك دارت الطرق الثلاثة على ابن أبي فديك، وسليمان بن يزيد الكعبي:

فأما سليمان الكعبي، فهو التابعي يروي عن أنس، وقد طعن فيه أبو حاتم الرازي، فقال: منكر الحديث، ليس بقوي، غير أن ابن حبان ذكره في الثقات[5].

1() شفاء السقام: 32.

2() انظر: البيهقي في شعب الإيمان (3/488)، وحمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان (ص434) ومن طريقه السبكي في شفاء السقام (ص35)، وابن أبي الدنيا في (كتاب القبور).

3() شفاء السقام: 36 ، 37.

4() شعب الإيمان 3 / 490 / 4158.

5() الثقات لابن حبان 6 / 395.

وأما محمد بن إسماعيل بن أبي فديك فهو مجمع على وثاقته، وقد روى عنه الشافعي وأحمد والحميدي وغيرهم، وأخرج حديثه الستة (1).. وبذلك، فإن هذا الحديث لا يهبط عن درجة الحسن الغريب.

وله بالإضافة إلى ذلك شواهد تقويه منها ما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيدا - أو قال - شفيعا)(2)، وما روي ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: (من زارني إلى المدينة كنت له شهيدا - أو - شفيعا)(3)

الحديث السادس:

وهو قوله ﷺ: (ليهبطن عيسى بن مريم حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، وليسلكن فجاً حاجاً أو معتمراً أو بنيتيهما، وليأتين قبري حتى يسلم علي ولأردن عليه)، وقد رواه الحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، ووافقه الذهبي (4).

ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده بهذا اللفظ: (والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى بن مريم، إماماً مقسطًا، وحكماً عدلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليصلحن ذات البين، وليذهبن الشحناء، وليعرضن عليه المال فلا يقبله، ثم لئن قام على قبري فقال: يا محمد لأجبته)(5)

وذكر الهيثمي في تخريجه له أن (رجاله رجال الصحيح)(6)، وقد ذكر الشيخ المحدث محمود سعيد ممدوح أنه بحث في

1() تهذيب التهذيب 9 / 52 / 62.

2() الضعفاء الكبير، للعقيلي 3 / 457.

3() رواه الدارقطني في السنن 2 / 278 / 194.

4() رواه الحاكم في المستدرك (2/595)

5() أبو يعلى الموصلي في مسنده (حديث رقم 6584).

6() مجمع الزوائد / 8/211).

الحديث فوجد أنه حسن على الأقل، خاصة مع وجود الطريق الذي في مسند أبي يعلى الموصلي، والذي لم يقف عليه الألباني فقصر كلامه على الحديث في ضعيفته على إسناد الحاكم فقط فأخطأ.

وذكر أن الألباني مع سعيه المستميت في إنكار أحاديث الزيارة ولو بالتحاكم إلى تشدد وشذوذ ابن عبد الهادي، تنازل، فأورد الحديث من رواية أبي يعلى الموصلي في سلسلته الصحيحة، وقال عنه: (وهذا إسناد جيد)[1]

ثم قال بعد كلام: (والجملة الأخيرة لها طريق أخرى عنه بلفظ: وليأتين قبري حتى يسلم علي، ولأردن عليه.. أخرجه الحاكم وصححه الذهبي وغيرهما من المتأخرين، وفيه علتان بينتهما في الضعيفة تحت الحديث (5540)، لكن لعله يصلح شاهداً للطريق الأولى)، وإذا كان كذلك فهذا مصير منه إلى تقوية ما ضعفه، فعليه أن يخرج هذا القوي من ضعيفته.

وهذا الحديث وحده كافٍ لرد دعوى ابن تيمية ومن شايعه كابن عبد الهادي في زعم وضع أحاديث الزيارة، حتى وإن سلمنا بضعفه – وهو بعيد جداً – فما بالك إذ ضم للأحاديث المتقدمة.

الحديث السابع:

وهو قوله ﷺ: (من حج فزار قبري بعد وفاتي، فكأنما زارني في حياتي)، وقد رواه الدارقطني في (السنن) [2] من حديث أبي الربيع الزهراني، عن حفص بن أبي داود، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ.

ورواه بنفس الإسناد البيهقي والطبراني، وأبو يعلى، وابن عساكر[3]، وليس في أحد من رجال إسناد هذا الحديث كلام:

فأما حفص بن أبي داود، وهو حفص بن سليمان القارىء

---

[1] () السلسلة الصحيحة، (2733)

[2] () سنن الدارقطني 2 / 278 / 192.

[3] () السنن الكبرى / البيهقي 5 / 246، المعجم الكبير 12 / 310 / 13497، مختصر تاريخ دمشق 2 / 406، نيل الأوطار 5 / 108.

صاحب القراءة المعتمدة، والمعروفة بـ (قراءة حفص عن عاصم)، فهو أخص الناس بعاصم بن أبي النجود شيخ أصحاب القراءات، وقد ذكره ابن عدي في الضعفاء، وقال البيهقي بعد أن أخرج الحديث: تفرد به عاصم، وهو ضعيف.وضعفه ابن حبان [1].

وهذا التضعيف لا يؤثر في الحديث من الوجوه التالية[2]:

1. أن تضعيف عاصم في الرواية مرتبط بالذاتية التي تعامل بها أصحاب الجرح والتعديل مع الرواة، فكيف يقبلون راويته لقراءة القرآن كله عن عاصم، ثم يعدونه في الضعفاء في رواية الحديث، ولو طبقنا هذا المقياس مع الكثير من رواة البخاري ومسلم وأصحاب السنن، لضعفنا الكثير من الأحاديث الصحيحة.

2. أن الضعف المنسوب إلى حفص بن سليمان لا يتجاوز حدود الضبط، أو الرواية عن الضعفاء، وهذه العلة ساقطة هنا، لأنه أسند هذا الحديث إلى ثقات مجمع على وثاقتهم عند أهل الجرح والتعديل: ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عمر.

3. أن ابن حبان ذكر رجلين باسم حفص بن سليمان، أحدهما المقرىء وهو هذا، والآخر حفص بن سليمان، وهو ابن أبي داود المذكور في الأسناد، وهو ثقة ثبت، قال السبكي: فإن صح مقتضى كلام ابن حبان زال الضعف المذكور[3].

4. أن أحمد بن حنبل دافع عنه في روايتين، فقد روى الأولى عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سألت أبي عن حفص بن سليمان المنقري - وهو المقرىء - فقال: (هو صالح)، وأما الثانية فرواها حنبل بن إسحاق، قال: قال أبو عبد الله (أحمد بن حنبل): (ما كان بحفص بن سليمان المنقري بأس)[4]

1() الكامل في الضعفاء 3 / 789 ـ 790، السنن الكبرى 5 / 246، المجروحين / ابن حبان 2 / 250.

2() انظر: الزيارة والتوسل، سلسلة المعارف الإسلامية، مركز الرسالة، ص46.

3() شفاء السقام، 24 ، 25.

4() شفاء السقام، 25.

5. أن هذا الحديث لم يتفرد به حفص كما ذكر البيهقي، فقد روي عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد عن ابن عمر من طريق آخر عن سبط ليث بن أبي سليم وزوجته: قال سبطه الليث ابن بنت الليث بن أبي سليم: حدثتني جدتي عائشة بنت يونس امرأة الليث، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: (من زار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي)[1]، وبذلك يزول كل ضعف ينسب إلى الحديث، والاختلاف الوارد في اللفظ بين: (من حج فزار قبري) كما في رواية حفص، وبين (من زار قبري) لا تمس في دلالة الحديث على استحباب زيارة قبره الشريف وفضيلتها، والنص بعدها متطابق تماما.

6. أن للحديث شواهد، منها حديث النعمان بن شبل، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني)، والذي ذكرناه سابقا.

3 ـ موقف السلف من زيارة الأضرحة:

بناء على كون أصحاب الرؤية التكفيرية لا يكتفون بما ورد في النصوص المقدسة من أحكام، بل يطالبون أيضا بأفعال السلف وأقوالهم التي تؤكد ذلك، ذلك أن الكتاب والسنة عندهم لا يكفي فيها فهم الخلف، بل يشترط لها فهم السلف، كما عبر عن ذلك أحمد بن حنبل في قوله لبعض أصحابه:(إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام)[2]، ويروون قوله في رواية الميموني: (من تكلم في شئ ليس له فيه إمام أخاف عليه الخطأ)[3] والإمام كما يفهمونه هنا هو سلفهم الذي يشاركهم في عقائدهم ومواقفهم.

وهكذا يرون عن مالك بن أنس قوله: (سمعت من ابن شهاب أحاديث لم أحدث بها إلى اليوم، قلت: لِمَ يا أبا عبد الله؟

---

[1] () الطبراني في المعجم الكبير 12 / 406 / 13496، وفي حاشية أخرجه المحقق عن المعجم الأوسط أيضا، 1 / 201 / 157.

[2] () إعلام الموقعين (4/266)

[3] () الآداب الشرعية لابن المفلح (2/60)

قال: لم يكن العمل عليها فتركتها)[1]

ولهـذا نـراهم يعتـبرون من يرجـع للسـنة وحـدها دون أقـوال السلف مبتدعا ومنحرفا، ولـذلك يعتـبرون من عيـوب أبي القاسـم عبد العزيز بن عبد اللـه الشـافعي المعـروف بالـدّاركي أنـه (ربمـا أفتى على خلاف مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة، فيقال لــه في ذلك، فيقول: ويحكم! حدث فلان عن فلان عن رسول اللـه ﷺ بكذا وكذا، والأخذ بالحـديث أولى من الأخـذ بقـول الشـافعي وأبي حنيفة)[2]

وقد علق الذهبي على كلام الـدّاركي بقولـه:(قلت:هـذا جيـد، لكن بشرط أن يكون قد قال بذلك الحديث إمام من نظراء هــذين الإمامين مثل مالك، أو سفيان، أو الأوزاعي، وبـأن يكـون الحـديث ثابتاً سـالماً من علـة، وبـأن لا يكـون حجـة أبي حنيفـة والشـافعي حديثاً صحيحاً معارضاً للآخر، أما من أخذ بحديث صحيح وقد تنكبــه سائر أئمة الاجتهاد، فلا)[3]

وعبر ابن رجب عن موقف السلفية من هذا الشـرط، فقـال: (فأما الأئمة وفقهاء أهل الحديث فـإنهم يتبعـون الحـديث الصـحيح حيث كان، إذا كان معمولاً بـه عنـد الصـحابة ومن بعـدهم، أو عنـد طائفة منهم، فأما ما اتفق السلف على تركه فلا يجـوز العمـل بـه لأنهم ما تركوه إلا على علم أنه لا يعمل به)[4]

وبنــاء على هــذا الشــرط نــرى ابن تيميــة يشــترط على من يسميهم المبتدعة مراعاة إجماع سلفه، فلا يكفي تحاكمهم للقرآن والحديث دون مراعاة ما قال السلف، يقول في ذلك: (وكـل قـول قيل في دين الإسلام مخالف لما مضى عليـه الصـحابة والتـابعون، لم يقله أحـد منهم، بـل قـالوا على خلافـه، فإنـه قـول باطـل)[5]،

1() رواه أبو نعيم في الحلية (6/322)، انظر السير للذهبي (8/107)

2() وفيات الأعيان (3/189)

3() سير أعلام النبلاء (16/405)

4() فضل علم السلف على الخلف، ص31.

5() منهاج السنة (5/262)

ويقول:(فمن بنى الكلام في العلم:الأصول والفروع على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة)[1]

ويقول موضحا سبب ذلك: (ومن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل كان مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً)[2]

وقد سار على هذا المنهج خلفهم من السلفية المحدثين، وقد قال الألباني: (فقد قلنا: إن العلم النافع يجب أن يكون على منهج السلف الصالح، فحينما يحيد كثير من الدعاة الإسلاميين اليوم عن التقيد بهذا القيد الثابت، الذي أشار إليه الإمام ابن القيم في شعره السابق حين قال: العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه، فعدم الالتفات إلى ما كان عليه السلف الصالح يعود بالناس بعد أن اتفقوا إلى الفُرقة التي تُبَاعِدُ بينهم، كما باعدت من قبل بين كثير من المسلمين، فجعلتهم شيعاً وأحزاباً)[3]

وهكذا قال الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان: (كان جواب شيخنا الألباني على سؤال له: لم الإقتصار على القول بكراهة الجماعة الثانية، وقد قامت الأدلة على منعها، والأصل في العبادات التوقيف، فما المانع من القول بحرمتها أو بدعتها؟ فقال حفظه الله: ما رأينا في ذلك لنا سلفا)[4]

بناء على هذا سنذكر هنا ما ورد في المصادر التي يعتمدونها

---

[1] مجموع الفتاوى(10/363)

[2] مجموع الفتاوى (13 / 361)

[3] في شريط الأجوبة الألبانية على الأسئلة الكويتية.

[4] إعلام العابد (ص10) بالهامش.

من فعل السلف من الصحابة والتابعين الذين يعتبرونهم، ولو كنا نعتقد أن دلالة القرآن الكريم والسنة المطهرة كافية لذلك، لأن بيان الدين محصور فيهما، ولكنا طولبنا بأن نخاطب الناس على قدر عقولهم، فمن تلك الروايات:

1 ـ ما رواه أبو هريرة قال: خرج عمر حاجا في نفر من أصحابه حتى بلغ الأبواء، إذا هو بشيخ على قارعة الطريق فقال الشيخ: يا أيها الركب قفوا، فوقفوا له، وقال عمر: قل يا شيخ قال: أفيكم رسول الله ﷺ. قالوا: لا وقد توفي! قال: أوقد توفي؟ قالوا: نعم، فبكى حتى ظننا أن نفسه ستخرج من جنبيه، ثم قال: من ولي الأمة بعده؟ قالوا: أبو بكر، قال: نجيب بني تيم؟ قالوا: نعم، قال: أفيكم هو؟ قالوا: لا وقد توفي. قال: توفي! قالوا: نعم، فبكى حتى سمعنا لبكائه نشيجًا، وقال: من ولي الأمة بعده؟ قالوا: عمر بن الخطاب، قال: فأين كانوا من أبيض بني أمية ـ يريد عثمان بن عفان ـ فإنه كان ألين جانبًا وأقرب؟! ثم قال: إن كانت صداقة أبي بكر لعمر لمسلمة إلى خير، أفيكم هو؟ قالوا: هو الذي منذ اليوم يكلمك، قال: أغثني، فإني لم أجد مغيثًا، قال: ومن أنت بلغك الغوث؟ قال: أنا أبو عقيل أحد بني مليك، لقيت رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فآمنت به وصدقت بما جاء به، فسقاني شربة سويق شرب رسول الله ﷺ أولها وشربت آخرها، فما برحت أجد شبعها إذا جعت وريها إذا عطشت وبردها إذا سخنت، ثم يممت في رأس الأبيض أنا وقطعة غنم، أصلي في يومي وليلتي خمس صلوات وأصوم شهرًا هو رمضان، وأذبح شاة بعشر ذي الحجة أنسك بها حتى إذا أتت علينا السنة فما أبقت لنا منها غير شاة واحدة ننتفع بدرها، فأكلها الذئب البارحة الأولى فأدركنا زكاتها وأكلناها وبلغناك فأغث أغاثك الله، قال عمر: بلغك الغوث بلغك الغوث، أدركني على الماء، قال الراوي: فنزلنا المنزل وأصبنا من فضل أزوادنا، فكأني أنظر إلى عمر متقنعًا على قارعة الطريق، آخذًا بزمام ناقته لم يطعم طعامًا ينتظر الشيخ ويرمقه، فلما رحل الناس دعا عمر صاحب الماء فوصف له الشيخ وقال: إذا أتى عليك فأنفق عليه وعلى عياله حتى أعود عليك إن شاء الله تعالى، قال: فقضينا حجنا وانصرفنا، فلما نزلنا المنزل دعا عمر صاحب الماء فقال: هل أحسنت إلى الشيخ؟ قال: نعم يا

أمير المؤمنين، أتاني وهو موعدك فمرض عندي ثلاثًا ومات فدفنته وهذا قبره، فكأني أنظر إلى عمر وقد وثب مباعـدًا مـا بين خطـاه حتى وقف على القبر فصلى عليه ثم اعتنقه وبكى، ثم قـال: كـره الله له صلتكم واختار له ما عنده، ثم أمر بأهلـه فحملـوا فلم يـزل ينفق عليهم حتى قبض)(1)

والشاهد فيها واضح، ذلك أن عمر أسرع لزيـارة قـبر شـخص بعينه، ثم اعتنقه وبكى، وصلى عنـده، أو دعـا لـه، وكـل ذلـك ممـا يفعلـه زوار الأضـرحة.. وهـذا يـدل على أن زيـارة القبـور ليسـت خاصة بالموعظة والاعتبار، وإلا لم يكن بحاجة إلى ذلك.

2. ما رواه أبو الدرداء، أن بلالا رأى النبي ﷺ في منامه وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال؟ ما آن لك أن تزورنا؟ فانتبه حزينا، فركب إلى المدينة، فأتى قبر النبي ﷺ وجعل يبكي عنده ويتمرغ عليه، فأقبل الحسن والحسين، فجعل يقبلهما ويضمهما، فقالا له: نشتهي أن تؤذن في السحر، فعلا سطح المسجد، فلما قال: الله أكبر، الله أكبر، ارتجت المدينة، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، زادت رجتها، فلما قال: أشهد أن محمدا رسول الله، خرج النساء من خدورهن، فما رئي يوم أكثر باكيا، وباكية من ذلك اليوم(2).

وإسناد هذا الخبر جيد، فقد أسند الخبر إلى إبراهيم بن محمد بن سليمان بن بلال بن أبي الـدرداء، قـال: حـدثني أبي محمـد بن سـليمان، عن أبيـه سـليمان بن بلال، عن أم الـدرداء، عن أبي الـدرداء.. وليس في هـذا الإسـناد من يطعن عليـه في سـائر كتب الرجال.

وروي بهـذا الإسـناد من طـريقين، ومـداره على (محمـد بن الفيض الغسـاني) وهـو الـذي يرويـه عن إبـراهيم بن محمـد بن سليمان بن بلال، ومحمد بن الفيض هذا هو المولود سنة 219 هــ، والمتوفى سـنة 315 هــ، قـال السـبكي: (روى عن خلائـق، وروى عنه جماعة منهم: أبو أحمد بن عدي، وأبو أحمد الحاكم، وأبـو بكـر

(1) الرياض النضرة في مناقب العشرة (2/ 386)

(2) اسد الغابة 1:ـ 307 -ـ 308، ترجمة بلال بن رباح، وأخرجه ابن عساكر في ترجمـة بلال أيضا، وفي ترجمة إبراهيم بن محمد الأنصاري، انظر: مختصر تاريخ دمشق 4: 118 و5: 265، وتهذيب الكمال 4: 289/ 782.

المقرئ في معجمه)[1].

وهـذا الحـديث كـاف في الدلالـة على موقـف الصـحابة من الزيـارة، فقـد جـاء بلال من الشـام بقصـد زيـارة رسـول اللـه ﷺ، وأخبر أبو الدرداء راوي الحديث عن ذلك، وأقره عليه، ولم ينكـره، وهكذا سمع جميع أهل المدينة بذلك، ولم ينكروا، وهو ما يعتبرونـه إجماعا سكوتيا، وكثيرا ما يستعملون أمثاله، بل ما هو دونه.

3. ما روي من زيارة الإمام علي لقبر خباب، وقـد روى ذلـك زيد بن وهب قال: سرنا مـع علي حين رجـع من صـفين، حـتى إذا كان عند باب الكوفة إذا نحن بقبـور سـبعة عن أيماننـا، فقـال: مـا هذه القبور؟ فقالوا: يا أمـير المؤمـنين، إن خبـاب بن الأرت تـوفي بعد مخرجك إلى صفين، فأوصى أن يدفن في ظاهر الكوفة، وكان الناس إنما يدفنون موتاهم في أفنيتهم، وعلى أبواب دورهم، فلمـا رأوا خبابا أوصى أن يدفن بـالظهر دفن النـاس، فقـال علي رضـي الله عنـه: (رحم اللـه خبابـا، أسـلم راغبـا، وهـاجر طائعـا، وعـاش مجاهدا، وابتلى في جسمه، ولن يضيع اللـه أجـر من أحسـن عملا، ثم دنـا من قبـورهم، فقـال: السـلام عليكم يـا أهـل الـديار من المؤمنين والمسـلمين، أنتم لنـا سـلف فـارط ونحن لكم تبـع عمـا قليل لاحق، اللهم أغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، وأرضي الله عـز وجل)[2]

4. ما روي من زيارة عائشة لقبر أخيها، فعن عبد الله بن أبي مليكة، أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، «كان قد نهى، ثم أمر بزيارتها»[3]

والشاهد فيه واضح، وهو أن عائشة خصصت أخاها الميت بزيارة قبره، وهو ما يتنافى مع المقصد الذي حصروا فيه زيارة

[1] شفاء السقام: 54.

[2] أسد الغابة (2/ 147).

[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 532).

القبور، وهو التذكير بالآخرة، ذلك أنه متحقق في أي مقبرة.

5. ما روي من زيارة أبي أيـوب الأنصـاري لقـبر رسـول اللـه ﷺ، والذي رواه الحاكم وصححه، ووافقـه عليـه الـذهبي، فعن داود بن أبي صالح، قال: أقبل مروان يوما فوجد رجلا واضعا وجهه على القبر، فأخذ برقبته وقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم، فأقبـل عليـه فإذا هو أبو أيوب الأنصـاري رضـي اللـه عنـه، فقـال: جئت رسـول الله ﷺ ولم آت الحجر سـمعت رسـول اللـه ﷺ، يقـول: «لا تبكـوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله»[1]

وهذا الحديث يكشف الجذور التي انطلق منها ابن تيميـة في إنكاره للزيارة، وتبديعه لهـا، وهي الجـذور الأمويـة، ذلـك أن الـذي أنكر ذلك التصرف، وربما ربطه بالشرك مروان بن الحكم، والـذي يعتبرونه فقيها من فقهاء التابعين، مع أن الذي فعل ذلـك صـحابي جليل اتفقت الأمة جميعا على مكانته واحترامه.

وهـذا يـدل على الجـذور الأمويـة للفكـر السـلفي التكفـيري، وكـونهم أبعـد المـدارس عن صـحابة رسـول اللـه ﷺ المنتجـبين.. فالصحبة عندهم يمثلها الطلقـاء والمتخلفـون الـذين وافقـوا الفئـة الباغية، ووقفوا معها.

6. ما وري من طرق كثيرة أن عمـر بن عبـدالعزيز، وهـو من السلف المعتبرين الثقاة لدى التكفـيريين، أنـه كـان يرسـل البريـد من الشام ليسلم لـه على رسـول اللـه ﷺ.. أي أن ذلـك المكلـف بالبريد لم يكن له من غرض سـوى زيـارة رسـول اللـه ﷺ بالنيابـة عن عمر للتسليم عليه.

وقد نقل هذا المتقدمون من الفقهاء وغـيرهم، منهم أبـو بكـر أحمد بن عمر بن أبي عاصم النبيل (توفي سنة 280 هـ) في كتابه (المناسك) الذي قـال: (كـان عمـر بن عبـدالعزيز يبعث بالرسـول قاصدا من الشام إلى المدينة ليقرئ النبي ﷺ السلام، ثم يرجع)

ومثله ابن الجوزي في كتابه الذي أفرده لهذا، وسـماه (مثـير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن)،وقد قال السـبكي: (نقلتـه من

1() المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 560).

خطه)[1]

4 ـ موقف آل البيت من زيارة الأضرحة:

على الــرغم من كــل ذلــك الحقــد الشــديد الــذي يحملــه التكفـيريون على كـل مـا يرتبـط بـالعترة الطـاهرة، أو تلاميـذهم ومواليهم، إلا أنه لا مناص لنا من ذكر ذلك، لسببين:

أولا ـ أنه لا يعقل أن نقبل بكل من يسمونهم سلفا، حتى لــو كانوا ممتلئين باليهودية والنصـب والانحرافـات بكـل أنواعهـا، ثم لا نقبـل مـا يـذكره آل رسـول اللـه ﷺ، أولئـك الـذين أوصـى بهم، واعتبرهم سفينة نجاة، ومنارة هـدى، ولا شـأن لنـا بمن يتكـبر عن ذلك، فقد تكبر نوح عليه السلام عن الركوب مـع أبيـه، وتصـور أن جبال سلفه ستنجيه من الغرق..

ثانيا ــ أن المراجــع الــذين يعتمــد عليهم التكفـيريون قبلــوا الكثـير من الروايـات والآراء الفقهيـة من أئمـة أهـل الـبيت، ومن خلال تلاميذهم الذين يلقبون بالشيعة، وأولهم ابن تيمية وابن القيم وغيرهما في الكثير من مسائل الطلاق، وخالفوا فقهـاء مدرسـتهم بسبب ذلك.

وقد ذكـر ابن القيم في كتابـه [الصـواعق المرسـلة في الـرد على الجهميـة والمعطلـة] جـواز الأخـذ عنهم في مسـائل الفقـه، وذلك عنـد بيانـه لمسـألة [الحـالف بـالطلاق والعتـاق إذا حنث في يمينه أنه تطلق عليه زوجتـه ويعتـق عليـه عبـده أو جاريتـه]، فقـد قال: (حكى ذلك بضعة عشـر من أهـل العلم وعـذرهم أنهم قـالوا بموجب علمهم وإلا فالخلاف في ذلك ثـابت عن السـلف والخلـف من وجوه)[2]

ومن تلك الوجوه التي ساقها [الوجه التاسع]، وهو ـ كما عــبر عنه ـ (إن فقهاء الإماميـة من أولهم إلى آخـرهم ينقلـون عن أهـل البيت أنـه لا يقـع الطلاق المحلـوف بـه، وهـذا متـواتر عنـدهم عن جعفر بن محمد وغيره من أهل البيت)

---

[1] () شفاء السقام: 55.

[2] () الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (2/616)

ثم برر قبوله للروايات المستفيضة عنهم، فقال: (وهب أن مكابراً كذّبهم كلهم، وقال: قد تواطئوا على الكذب عن أهل البيت، ففي القوم فقهاء وأصحاب علم ونظر في اجتهاد وإن كانوا مخطئين مبتدعين في أمر الصحابة فلا يوجب ذلك الحكم عليهم كلهم بالكذب والجهل! وقد روى أصحاب الصحيح عن جماعة من الشيعة وحملوا حديثهم واحتج به المسلمون، ولم يزل الفقهاء ينقلون خلافهم ويبحثون معهم، والقوم وإن أخطأوا في بعض المواضع لم يلزم من ذلك أن يكون جميع ما قالوه خطأ حتى يرد عليهم هذا لو انفردوا بذلك عن الأمة؛ فكيف وقد وافقوا في قولهم من قد حكينا قولهم وغيره ممن لم تقف على قوله)[1]

وبناء على هذا، سنذكر هنا نماذج عن الروايات الواردة عن العترة الطاهرة، والتي تدل على مشروعية زيارة لرسول الله ﷺ أو لغيره من الأولياء والعلماء والصالحين، سواء تلك التي نقلت في المصادر السنية أو الشيعية.

1. ما روي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وبضعته الطاهرة، وسيدة نساء العالمين، ومنها ما ثبت في المصادر السنية من أنها كانت في حياة أبيها رسول الله ﷺ تخرج في كل جمعة لزيارة قبر عمها حمزة بن عبد المطلب، فتصلي وتبكي عنده.

وقد أخرج الحديث البيهقي، والحاكم [2]، وقال الحاكم معقبا عليه: (هذا الحديث رواته عن آخرهم ثقات)[3]

وهكذا كانت تزور قبر رسول الله ﷺ، وتبكي عنده، وتشكو له، وقد روى الإمام علي عنها بعض ذلك، فقال: (لما رمس رسول الله ﷺ، جاءت فاطمة، فوقفت على قبره، وأخذت قبضة من تراب القبر ووضعته على عينيها، وبكت، وأنشأت تقول:

ماذا على من شم   أن لا يشم مدى الزمان

---

[1] الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (2/616).

[2] السنن الكبرى للبيهقي 4: 78، المستدرك على الصحيحين 1: 533/ 1396.

[3] المستدرك على الصحيحين 1: 533/ 1396.

صبت علي مصائب   صبت على الأيام عدن

[illegible](1)

2. ما روي أن الإمام علي قال: (من زار قبر رسول الله ﷺ كان في جواره)(2)، ويوافقه الحديث الذي رواه عن النبي ﷺ أنه قال: (من زارني في حياتي وبعد موتي، كان في جواري يوم القيامة)(3)، وقد سبق أن ذكرنا زيارته لقبر خباب.

وروي أنه قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي ﷺ وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله، قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله سبحانه فوعينا عنك، وكان في ما أنزل عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]، وقد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر (قد غفر لك)(4)

3. ما روي عن الإمامين الحسنين سيدي شباب أهل الجنة، فقد حدث الإمام الصادق عن آبائه، قال: (بينا الحسن بن علي في حجر رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه فقال: يا أبه، ما لمن زارك بعد موتك؟ فقال: يا بني، من أتاني زائرا بعد موتي فله الجنة، ومن أتى أباك زائرا بعد موته فله الجنة، ومن أتى أخاك زائرا بعد موته فله الجنة، ومن أتاك زائرا بعد موتك فله الجنة)(5)، ونفس الرواية رويت عن الإمام الحسين(6).

وروي أن الإمام الحسين، وقبل مسيره إلى كربلاء، زاره قبر جدّه ﷺ، وراح يودعه، ويشكو إليه قائلاً: (السلام عليك يا رسول الله ! أنا الحسين بن فاطمة، أنا فرخك وابن فرختك، وسبطك في الخلف الذي خلفت على أمتك، فاشهد عليهم يا نبى الله. أنهم قد

1()) السيرة النبوية لابن سيد الناس 2: 432.

2() مختصر تاريخ دمشق، 2: 406.

3() تهذيب الأحكام 6: 3/ 2.

4() المواهب اللدنية للقسطلاني 4: 583.

5() تهذيب الأحكام 6: 20/ 1، و40/ 1.

6() تهذيب الأحكام 6: 21/ 5، و40/ 2.

خذلوني وضيعوني وأنهم لم يحفظوني، وهـذا شـكواي إليـك حـتى ألقاك)، ثم وثب قائما وصف قدميه، ولم يزل راكعا وساجدا(1).

فلما كانت الليلة الثانية خرج الى القبر أيضا فصـلى ركعـتين، فلمل فرغ من صلاته جعل يقول: (اللهم إن هذا قـبر نبيـك محمـد وأنا ابن بنت محمـد وقـد حضـرني من الأمـر مـا قـد علمت، اللهم وإني احب المعـروف وأكـره المنكـر، وانـا أسـألك يـا ذا الجلال والاكرام بحق هذا القبر ومن فيه ما اخترت من أمري هـذا مـا هـو لك رضى) (2)

وقد روي أنه غلبه النـوم حينهـا؛ فـرأى جـدّه الرسـول ﷺ قـد أقبلَ في كتيبة مِن الملائكة، فضمّه إلى صدره وقبّل ما بين عينيه، وهو يقول له: (يا بُني، كأنّي عن قريب أراك مقتولاً مذبوحاً بـأرض كـربٍ وبلاء، بين عصـابة مِنْ أُمّـتي، وأنت مـع ذلـك عطشـان لا تُسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شـفاعتي، مـالهم لا أنالهم اللـه شـفاعتي يـوم القيامـة؛ فمـا لهم عنـد اللـه من خلاق، حبيبي يا حسين إن أباك وأمـك وأخـاك قـد قـدموا علي وهم إليـك مشتاقون، وإن لك في الجنة درجات لن تنالها إلا بالشهادة)(3)

4. ما روي عن محمد بن الحنفية، وزيارته لقبر أخيه الحسن، وقد روي أنه خنقته العبرة حينها، وقال: (رحمك الله يا أبـا محمـد، فلئن عـزت حياتـك، فلقـد هـدت وفاتـك، ولنعم الـروح روح ضـمه بدنك، ولنعم البدن بدن ضمه كفنـك، وكيـف لا يكـون كـذلك وأنت بقية ولد الأنبياء، وسليل الهدى، وخامس أصـحاب الكسـاء، عـذتك أكف الحق، وربيت في حجر الإسلام، فطبت حيا وطبت ميتـا، وإن كانت أنفسنا غير طيبة بفراقك، ولا شاكة في الخيار لك)(4)

5. ما روي عن الإمام الباقر أنه قـال: (مـروا شـيعتنا بزيـارة قبر الحسين عليه السلام، فـإن إتيانـه يزيـد في الـرزق، ويمـد في

1() الفتوح 5: 19، مقتل الحسين للخوارزمي 1: 186، وفيه بدل في الخلف (والثقل)، العوالم 17: 177.

2() المراجع السابقة.

3() الفتوح 5: 20، مقتل الحسين للخوارزمي 1: 186، بحار الأنوار 44: 328.

4() العقد الفريد 3: 13، الغدير 5: 25/ 9.

العمر، ويدفع مدافع السوء. وإتيانه مفترض على كل مؤمن يقر له بالإمامة من الله)(1)

6. ما روي عن الإمام الصادق من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب، ومنها أن بعض أصحابه سأله: إنا نأتي المساجد التي حول المدينة، فبأيها أبدأ؟ فقال: (أبدأ بقبا، فصل فيه، وأكثر، فإنه أول مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ في هذه العرصة، ثم ائت مشربة أم إبراهيم فصل فيها، فهو مسكن رسول الله ﷺ ومصلاه، ثم تأتي مسجد الفضيخ فتصلي فيه، فقد صلى فيه نبيك، فإذا قضيت هذا الجانب أتيت جانب أحد فبدأت بالمسجد الذي دون الحرة فصليت فيه، ثم مررت بقبر حمز بن عبدالمطلب عليه السلام فسلمت عليه، مررت بقبور الشهداء...)(2)

ومنها ما رواه عنه ابنه الإمام الكاظم قال: (جاء الإمام الصادق يوم عيد الفطر إلى قبر النبي ﷺ، فسلم عليه، ثم قال: قد فضلنا الناس اليوم بسلامنا على رسول الله ﷺ)(3)

ومنها قوله: (مروا بالمدينة فسلموا على رسول الله ﷺ من قريب، وإن كانت الصلاة تبلغه من بعيد)(4)، وقوله: (صلوا إلى جانب قبر النبي ﷺ وإن كانت صلاة المؤمنين تبلغه أينما كانوا)(5)

ومن أحاديثه في هذا الباب ما رواه الشيخ الطوسي عن أبي عامر الساجي واعظ أهل الحجاز، قال: أتيت أبا عبد الله جعفر بن محمد فقلت له: يا ابن رسول الله ما لمن زار قبر أمير المؤمنين وعمر تربته؟ قال: (يا أبا عامر، حدثني أبي عن أبيه عن جده الحسين بن علي عليه السلام: ان النبي ﷺ قال له: والله لتقتلن بأرض العراق وتدفن بها، فقلت: يا رسول الله، ما لمن زار قبورنا وعمرها وتعاهدها؟ فقال لي: يا أبا الحسن، إن الله جعل قبرك

1() تهذيب الأحكام 6: 42/ 1.

2() تهذيب الأحكام 6: 22/ 7.

3() تهذيب الأحكام 6: 17 - 18/ 19.

4() الكافي 4: 553/ 7، تهذيب الأحكام 6: 7/ 4.

5() الكافي 4: 552/ 5.

وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة، وعرصة من عرصاتها، وان الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوته من عباده تحن إليكم، وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم ويكثرون زيارتها تقربا منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك - يا علي - المخصوصون بشفاعتي، والواردون حوضي، وهم زواري غدا في الجنة...) الحديث(1)

ومنها قوله: (لو أن أحدكم حج دهره ثم لم يزر الحسين بن علي عليهما السلام لكان تاركا حقا من حقوق رسول الله ﷺ، لأن حق الحسين فريضة من الله تعالى واجبة على كل مسلم)(2)

7. ما روي عن الإمام الكاظم، فقد روي الشيخ الطوسي أنه عندما: أتى هارون المدينة المنورة ومعه عيسى بن جعفر، فاستدعى الإمام موسى الكاظم لصحبته، فقصدوا قبر النبي ﷺ فتقدم هارون فسلم عليه وقال: (السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابن عم) فتقدم الإمام الكاظم فقال: (السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبه، أسأل الله الذي اصطفاك واجتباك وهداك وهدى بك أن يصلي عليك) فقال هارون لعيسى: سمعت ما قال! قال: نعم، قال هارون: أشهد أنه أبوه حقا(3).

8. ما روي عن الإمام علي بن موسى الرضا، فقد روي عنه أنه قال: (إن لكل إمام عهدا في عنق أوليائهم وشيعتهم، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء، زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقا لما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة)(4)

9. ما روي عن الإمام الجواد، فقد روي عن ابن أبي نجران، قال: سألت أبا جعفر الثاني عمن زار النبي ﷺ قاصدا، قال: (له

1() تهذيب الأحكام 6: 22/ 7.

2() تهذيب الأحكام 6: 42/ 2.

3() تهذيب الأحكام 6: 6/ 3، تاريخ بغداد 13: 31، وفيات الأعيان 5: 309، سير أعلام النبلاء 6: 273.

4() تهذيب الأحكام 6: 78 - 79.

الجنة)[5].

ثالثا ـ المصادر المقدسة والتوسل والاستغاثة:

يعتبر التوسل والاستغاثة التي يقوم بها عادة من يزور الأضرحة، من أكثر الأمور التي توجه إليها التكفير السلفي ابتداء من ابن تيمية، وانتهاء إلى هذا العصر، فهم يعتبرون كلا من التوسل والاستغاثة من نواقض الإيمان، ويشبهون من يتوسل أثناء دعائه أو يستغيث بالمشركين، ويطبقون عليه كل ما ورد من آيات القرآن الكريم التي تذكر دعاء المشركين لأصنامهم.

ولهذا نراهم يعتبرون الأضرحة أصناما، ويعتبرون من يدعو هناك متوسلا إلى الله تعالى بها، أو يستغيث، مشركا شركا جليا، يبيح دمه وماله وكل شيء..

وقبل أن نذكر الأدلة على تهافت ذلك، نحب أن نحرر النزاع في المسألة، ونبين مدى صلتها بالشرك، أو بالإيمان..

فكلا الفريقين من أصحاب الرؤية الإيمانية والتكفيرية يتفقون على أن التوسل أو الاستغاثة برسول الله ﷺ أو بغيره جائزة، وليست شركا، ما دام ذلك المستغاث به حيا، أما إن كان ميتا، فإن أصحاب الرؤية التكفيرية يحولونها من كونها أمرا مباحا وطبيعيا إلى أمر ليس محرما فقط، وإنما شرك جلي، كذلك الشرك الجلي الذي ذكره القرآن الكريم.

أما أصحاب الرؤية الإيمانية، فيختلفون معهم في هذه المسألة، بسبب اختلافهم في حقيقة الموت.. فالموت عند أصحاب الرؤية التكفيرية عدم وفناء، يصبح صاحبه، وكأنه لا وجود له.. بينما يرى أصحاب الرؤية الإيمانية أن موت الرسول ﷺ، أو موت الصالحين لا يؤثر فيما آتاهم الله تعالى من فضله.. فكما يتوسل بهم في الحياة يتوسل بهم في الممات، وكما يستغاث بهم وهم أحياء، يستغاث بهم وهم أموات، لأن موتهم لن يختلف عن حياتهم، بل إن فضل الله عليهم بعد الموت أكثر.

---

[5] () تهذيب الأحكام 6: 14/ 9.

ولهذا يطبقون ما ورد في النصوص المقدسة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتي تجيز التوسل والاستغاثة على الأموات، مثل تطبيقها على الأحياء.

بناء على هذا، سنذكر الأدلة من القرآن الكريم والسنة المطهرة وفعل السلف من الصحابة والتابعين والعترة الطاهرة، لنثبت كلا الأمرين:

1. مشروعية التوسل والاستغاثة بالأحياء، وهي من المتفق عليه بين كلا الرؤيتين.

2. مشروعية التوسل والاستغاثة بالأموات بناء على مشروعيتها في الأحياء، وهي التي انفرد بها أصحاب الرؤية الإيمانية، واختلفوا فيها مع أصحاب الرؤية التكفيرية.

1 ـ القرآن الكريم.. والتوسل والاستغاثة:

يورد أصحاب الرؤية التكفيرية الكثير من الآيات القرآنية التي وردت في المشركين في هذا الباب، ويعتبرون إمكانية تطبيقها على المؤمنين الموحدين الذين يقومون بالتوسل والاستغاثة، بل يرون أنهم أولى من المشركين بذلك.

فهم يطبقون عليهم ـ مثلا ـ قوله تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (يونس:18)، باعتقادهم أن التوسل والاستغاثة دعاء لهم، والدعاء عبادة، بل مخ العبادة.

وهكذا يطبقون عليهم قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّار﴾ [سورة الزمر:3]، ويذكرون أن المتوسلين المتعلقين برسول الله ﷺ، أو بالعلماء والصالحين، اتخذوهم أولياء من دون الله، ليتقربوا بهم إلى الله.

وغيرها من الآيات الكريمة التي لا يمكن الجدال فيها، أو في

تأويلها وردها، فالقرآن الكريم كله محكم، ولا يصح أن نضرب بعضه ببعض، ولذلك فإن المشكلة التي جعلت أصحاب الرؤية التكفيرية يقعون في الخطأ في المصاديق تكمن في عاملين مهمين:

العامل الأول: هو الرؤية التجسيمية التي يتفق فيها أصحاب الرؤية التكفيرية مع المشركين.. ذلك أن المشركين كانوا يرون أن هناك إلها في السماء، وأنه جرم من الأجرام، وأنه وضع في كل محل آلهة تنوب عنه، مثلما يضع الملوك العمال والولاة على الأقاليم..

ولذلك كان المشركون يتصورون أنه يكفيهم التقرب لأولئك العمال والولاة حتى ينالوا ما يشتهون من حظوظ، ولذلك كانوا يقولون، وهم يطوفون بالبيت:(لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)

ولهذا نرى ربط القرآن الكريم الشرك بكونه من [دون الله]، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ ﴾ [سورة البقرة:165]، وقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم ﴾ [سورة المائدة:76]، وقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم﴾ [سورة المائدة: 76]، وقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم﴾ [سورة المائدة:76].

ويتفق أصحاب الرؤية التكفيرية مع المشركين في اعتقادهم بمحدودية الله وكونه في السماء، مثل سائر الأجرام الموجودة فيها، ولهذا يعتبرون إقامة أي صلة مع عباده الصالحين نوعا من الغلو الذي يؤدي إلى الشرك، لتصورهم أن أولئك الولاة الأرضيين قد يقومون بالتمرد، ويصبحون هم المتحكمين في شؤون ولاياتهم.

لكنهم لو اعتمدوا التنزيه الذي ورد به القرآن الكريم، ويقول به أصحاب الرؤية الإيمانية لرأوا الأمر بصورة مختلفة تماما، ذلك أنهم ينطلقون من أن كل شيء من الله تعالى ابتداء وانتهاء، حتى الرحمة التي نراها في الأم، وهي تحن لولدها، وتضحي في سبيله

رحمة إلهية، كما قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم:50)، باعتبار أن الله تعالى غير محدود، ولا مقيد بتلك القيود التي يذكرها أصحاب الرؤية التجسيمية.

ولهذا يرون أن مدح الصالحين، والتعلق بهم، والثناء عليهم ليس إلا مدحا لله تعالى وتعلقا به وثناء عليه، ذلك أن الصالحين ليسوا سوى مظاهر وتجليات للفضل الإلهي.. كما قال تعالى عن رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران:164]

ولذلك لا يتنافى عندهم التوحيد والتنزيه مع التعلق بالصالحين ومحبتهم والتوسل بهم إلى الله تعالى.. ذلك أن الله تعالى هو الذي جعلهم بتلك الصورة، فهم مرائي للكمال الإلهي.. فكما نرى جمال الله تعالى من خلال الطبيعة الجميلة، نرى كذلك جماله وكماله وفضله وهدايته من خلال رسله والصالحين من عباده.

وحتى نقرب المسألة، نذكر أن المباني التكفيرية تُهدم جميعا مع تلك الآيات الكريمة التي يرد فيها السجود لغير الله تعالى، مثل سجود الملائكة لآدم عليه السلام، أو سجود إخوة يوسف له.. ذلك أن السجود عندهم عبادة لا يستحقها إلا الله.. والذي يسجد لغير الله مشرك، مع أن الله تعالى أثنى على أولئك الساجدين على غيره..

أما عند أصحاب الرؤية التنزيهية، فالأمر معقول جدا، ذلك أن السجود لآدم أو يوسف أو لغيرهما ليس إلا سجودا لله تعالى.. فكلاهما آثار للرحمة والفضل والجمال الإلهي.. وتعظيم الآثار تعظيم للمؤثر.. ومن أثنى على قصيدة شاعر، أو تصميم مهندس، فقد أثنى على الشاعر والمهندس..

العامل الثاني: هو هجرهم وعدم تفعيلهم لكل الآيات الكريمة التي تتنافى في تصورهم مع تلك الآيات التي اعتمدوها، ولهذا اختلط عليهم الأمر، وأصبحوا يبحثون عن أي تأويل يصرف الآيات أو الأحاديث عن معانيها، كاعتبار كل النصوص الواردة في

التوسل والاستغاثة خاصة بالحياة دون الموت.

ولهذا نراهم يستعملون كـل مـا لـديهم من حيلـة ليوهمـوا أن الحياة الأخرى لا علاقة لها بهذه الحياة، وأن الإنسان إذا مات، فقد صلته تماما بهذا العالم.

ومن الأمثلة على ذلك ما يذكرونه في الرد على ما يستدل به أصـحاب الرؤيـة الإيمانيـة من جـواز الاسـتغاثة بقولـه تعـالى: ﴿ فَاسْـتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِـيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَـدُوِّهِ فَـوَكَزَهُ مُوسَـى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَـذَا مِنْ عَمَـلِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ عَـدُوٌّ مُّضِـلٌّ مُّبِين﴾ [سورة القصص:15]

حيث يعتبرون أن ذلك (ليس مَحلّ استدلال بجواز التوسّـل أو الاستغاثة بـالأموات، بـل فيـه الاسـتغاثة بـالحيّ القـادر فيمـا يَقـدر عليه.. ولو كانت الاستغاثة بِنـوحٍ عليـه الصـلاة والسـلام في زمـان موسى عليه الصلاة والسلام لربما استدلّ به المخـالِف، ولـو كـان يجوز ذلك في شريعة من قبلنا لم يَكن ليُستَدلّ به في شريعتنا، إلا أن تأتي شريعتنا بإقراره، ولذلك لا يجوز الاسـتدلال بِفعـل يوسـف عليـه الصـلاة والسـلام مـع أبويـه بجـواز السـجود لغـير اللـه، لأن شـريعتنا جـاءت بمنعـه، وهـذا من الأدلـة الـتي يضـعونها في غـير مواضعها ! فإن استغاثة الرّجل بموسى عليه الصلاة والسلام فيمـا كان موسى يقدر عليه في حال حياته عليه الصلاة والسلام)[1]

وهـذا من الاسـتدلالات العجيبـة، ذلـك أن اعتقـاد كـون الضـر والنفع لغير الله تعالى شرك سواء تحقق ذلك في حياة المستغاث به أو موته، بالإضافة إلى النصـوص المقدسـة الكثـيرة الـتي تخـبر عن صـلة المـوتى بالأحيـاء، كمـا قـال تعـالى عن الشـهداء: ﴿ وَلَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ (169) فَـرِحِينَ بِمَـا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَيَسْتَبْشِـرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾ [آل عمران: 169، 170]

وقد ورد في الحديث عن ابن عباس قـال: بينمـا رسـول اللـه

1() الجواب المفصّل عن شبهات في التوسل، الشيخ عبدالرحمن السحيم، مكتبة شـبكة مشكاة الإسلامية، ص7.

ﷺ جالس وأسماء بنت عميس قريبة منـه إذ رد السـلام، ثم قـال: (يا أسماء هذا جعفر بن أبي طالب مع جبريل وميكائيل وإسـرافيل سلموا علينا فردي عليهم السلام، وقد أخبرني أنه لقي المشركين يوم كذا وكذا قبل ممره على رسول الله ﷺ بثلاث أو أربع، فقـال: لقيت المشركين فأصبت في جسدي من مقـاديمي ثلاثـا وسـبعين بين رمية وطعنة وضربة، ثم أخذت اللـواء بيـدي اليمـنى فقطعت، ثم أخذت بيدي اليسرى فقطعت، فعوضني الله من يـدي جنـاحين أطير بهما مع جبريل وميكائيل أنزل من الجنـة حيث شـئت، وآكـل من ثمارها ما شئت)، فقالت أسماء: (هينئاً لجعفـر مـا رزقـه اللـه من الخير، ولكن أخاف أن لا يصدق الناس فاصعد المنبر أخبر به)، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليـه، ثم قـال: (يـا أيهـا النـاس إن جعفرا مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوضه اللـه من يديـه سـلم علي، ثم أخبرهم كيف كان أمره حيث لقي المشـركين)، فاسـتبان للناس بعد اليوم الذي أخبر رسول الله ﷺ أن جعفر لقيهم، فلذلك سمي الطيار في الجنة)[1]

بل إن ابن القيم نفسه ـ وهو تلميذ ابن تيمية، والـذي يعتمـده أصحاب الرؤية التكفيريـة ــ عقـد في كتابـه [الـروح] فصـلا خاصـا بعنوان [هل يعرف الأموات زيـارة الأحيـاء وسـلامهم أم لا]، وممـا جاء فيه قوله: (قال ابن عبد البر ثبت عن النـبي ﷺ أنـه قـال: (مـا من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام)، فهذا نص في أنه بعينه، ويرد عليه السلام، وفي الصحيحين عنه من وجوه متعددة أنه أمــر بقتلى بـدر، فـألقوا في قليب ثم جـاء حـتى وقـف عليهم ونـاداهم بأسـمائهم: يـا فلان ابن فلان ويـا فلان ابن فلان هـل وجـدتم مـا وعدكم ربكم حقا؛ فـإني وجـدت مـا وعـدني ربى حقـا؟ فقـال لـه عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا، فقال: (والذي بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقـول منهم ولكنهم لا يسـتطيعون جوابا)، وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشـيعين لـه إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول: (السـلام عليكم دار

1() رواه الحاكم (3/ 209 - 210 و212) ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً -كما في مجمع الزوائد (9/ 272)

قوم مؤمنين)، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد)[1]

ولم يكتف ابن القيم بكل هذه النصوص القطعية، بل راح يذكر السلف الذين يعتمدهم أصحاب الرؤية التكفيرية على ذلك، حيث قال: (والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به) [2]

ثم ساق أمثلة كثيرة عن ذلك منها ما رواه عن ابن أبى الدنيا في [كتاب القبور] في باب [معرفة الموتى بزيارة الأحياء]، ومنها أن ما رواه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم) [3]

ومنها ما رواه عن أبى هريرة قال: (إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام) [4]

ومنها ما رواه عن رجل من آل عاصم الجحدرى قال: رأيت عاصما الجحدرى في منامى بعد موته بسنتين فقلت: أليس قدمت قال: بلى قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم، قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات بليت الاجسام وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمته) [5]

---

[1] () الروح (ص: 5).

[2] () المرجع السابق، ص6.

[3] () المرجع السابق، ص6.

[4] () المرجع السابق، ص6.

[5] () المرجع السابق، ص6.

وغيرها من النصوص الكثيرة التي لا يمكن لأصحاب الرؤية التكفيرية أن يجادلوا فيها، خاصة وهي مروية عن سلفهم، وفي مصادر الحديث التي يعتمدونها.

وبناء على هذا، فإن كل تلك التأويلات التي جعلتهم يصرفون التوسل والاستغاثة عن الموتى تنهد من أساسها، لأن الموت لا يفرق بين الصالحين والأحياء، بل قد يزيد صلتهم بهم، خاصة مع ورود الآيات القرآنية التي تخبر عن دعاء الملأ الأعلى للمؤمنين، واهتمامهم بما يجري لهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7]

وهكذا يمكن تطبيق الآية الكريمة على قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 105]، فالآية الكريمة لم تخص رؤية المؤمنين بالحياة دون الموت، بل هي تشملهما جميعا.

وبناء على ذلك كله نرى القرآن الكريم يعتبر الوسائط، ويأمر باحترامها، ويخبر أنها لا تتنافى مع التوحيد، ولذلك كان التوسل بها إلى الله داخلا في العبودية لله، بل لا يمكن تحقيق العبودية مع الإعراض عن الوسائط.

فلا يمكننا التعرف على الله، وأسمائه الحسنى من غير توسط الرسل عليهم السلام الذين جعلهم الله تعالى وسائل لهداية عباده، كما قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف:35)، وقال:﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:38)، وقال: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ (طه: 123)

فالآيات الكريمة تذكر مرة أن الله تعالى سيرسل لعباده

رسلا يهدونهم، وترد مرة أخرى بوصف الهدى المجرد عن ذكر الرسل عليهم السلام، باعتبار أنهم ليسوا سوى مصاديق لذلك الهدي الإلهي.

وذلك مثل قوله تعالى عن توفي الأحياء، فمرة يسند الأمر إلى الملك الموكل بذلك، ويسنده مرة أخرى إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11]، ثم قال عز وجل: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42]، فإسناد الأمر للملك ليس شركا، لأن الملك لا يتصرف من عنده، وإنما يتصرف بإذن الله.

وهكذا نرى القرآن الكريم يضيف الأفعال للعباد، ثم يضيفها لله نفسه.. فالعباد يفعلونها باعتبارهم وسائط، بينما الفاعل الحقيقي هو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: 63] أضاف ذلك إلينا، ثم قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: 25 - 28]

وهكذا قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: 14]، فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه، والتعذيب هو عين القتل.. بل صرح، فقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: 17]، وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾

وهكذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]، فالآية الأولى تطلب الدعاء المباشر لله، والآية الثانية تذكر وسيلة من وسائل ذلك الدعاء، أو أدبا من آدابه التي تجعله أكثر جدوى، وهو التوسل برسول الله ﷺ.

وغير ذلك من آيات القرآن الكريم الكثيرة التي تخبر عن هذه الوسائط التي جعلها الله بينه وبين عباده، وأن مراعاتها لا يتنافى مع التوحيد، فالقيام بالحرث والزرع والسعي في الأرض، لا يتنافى مع الإيمان بكون الله تعالى هو الرزاق، واستعمال كل الوسائل لحفظ النفس من الآفات لا يتنافى مع كون الله تعالى هو

الحافظ..

وهكذا عندما يذهب المريض للطبيب، يطلب منه الشفاء لا يتنافى مع كون الله تعالى هو الشافي.. وهكذا فإن التوسل بالرسل أو الصالحين بسبب قربهم من الله تعالى لا يتنافى مع التوحيد، فالله تعالى لم يجعل الصالحين وسائط هداية فقط، بل جعلهم وسائط رحمة أيضا، حيث يغيث الله تعالى بهم عباده، مثلما يغيثهم بالمطر، كما قال تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: 31]، وقال عنه: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 49]

وهكذا أخبر تعالى عن أدوار الرسل عليهم السلام في حياة الناس في جوانبها المختلفة، لا الدينية فقط، كما قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 36 - 39]

وقال عن الرسول ﷺ: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 74]، فالآية الكريمة ـ وفق الرؤية التكفيرية ـ تحمل مضامين شركية، لأنها عندهم تجعل رسول الله ﷺ ندا لله تعالى، لكنها وفق الرؤية التنزيهيه لا تدل على ذلك، بل هي تدل على أن فضل الله تعالى قد يتنزل على عباده مباشرة، وقد يتنزل عليهم عبر تلك الوسائط، مثلما يتنزل الغيث عبر السحب وغيرها.

وبناء على هذا كله، فإن المؤمنين الذين يتوسلون برسول الله ﷺ، ويستغيثون به، يفعلون مثلما كان يفعل أصحابه الذين يعيشون معه في عهده، ذلك أن فضل رسول الله ﷺ وكونه رحمة للعالمين ليس خاصا بعصر النبوة، بل هو ممتد لكل العصور، ولذلك لا يصح أن نجيز للذين عاصروه أن يستغيثوا به في كل شيء، فيغيثهم، ثم نحرم المؤمنين بعده من ذلك.

ولهذا ورد في الحديث شوق رسول الله ﷺ لرؤية المؤمنين الذين لم يكتب لهم أن يعيشوا في عهده، بل سماهم [إخوانا]، وهم ـ لغة ـ أكرم وأرفع درجة من [الأصحاب]، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (وددت أني لقيت إخواني)، قال: فقال أصحاب النبي ﷺ: أوليس نحن إخوانك؟ قال: (أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني)(1)

هذا مختصر عن الرؤية القرآنية للتوسل والاستغاثة والتي عبر عنها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]، فالآية الكريمة كما تأمرنا بتقوى الله وتوحيده، تأمرنا كذلك بطلب الوسائل ومراعاتها واحترامها.. فمن طلب العلم بحث عن العالم.. ومن طلب الشفاء بحث عن الطبيب.. ومن طلب فضل الله دعاه أو توسل إليه بمن يرى قربه منه.. وليس في ذلك كله أي شرك، لأن المؤمن يعتقد أن الله تعالى هو الذي يملك كل شيء، وما عداه لا يملك إلا ما أعطاه الله.

2 ـ السنة النبوية.. والتوسل والاستغاثة:

من العجائب التي وقع فيها التكفيريون الذين يزعمون لأنفسهم أنهم الممثلون الوحيدون للسنة النبوية، رد كل ما ورد من الأحاديث في التوسل والاستغاثة وما يرتبط بهما، وبأتفه الأسباب، في نفس الوقت الذي يقبلون فيه كل الخرافات التي تؤيد تصوراتهم التجسيمية لله تعالى، أو تؤيد مواقفهم من عصمة الأنبياء، وكون الخطأ يجوز عليهم.

وهم لا يكتفون بتوهين القوي من الأحاديث، وإنما يستعملون معها صنوف التأويل المتكلف الذي لا يمكن لعاقل يحترم نفسه أن يقبله.

وكان في إمكانهم مع ورود تلك الأحاديث، ومثلها الآيات القرآنية المؤيدة للتوسل والاستغاثة أن يعتبروا المسألة خلافية، ويتبنوا الاحتياط فيها؛ فلم يلزمهم أحد بالتوسل ولا بالاستغاثة..

1() رواه أحمد 20/38 ح(12579)، وأبو يعلي (3390)، والطبراني في الأوسط (5490).

ولم يقل أحد من أصحاب الرؤية الإيمانية بوجوب التوسل والاستغاثة..

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، وإنما راحوا يكفرون المتوسلين والمستغيثين، ويشبهونهم بالمشركين، مع كونهم مجتهدين، لا بناء على قياس واستحسان قد يؤاخذون عليه، وإنما بناء على أحاديث كثيرة صحت لديهم، وهم يطبقونها بناء على تلك الصحة.

لكن التكفيريين، لتكبرهم وغرورهم، راحوا يفرضون عليهم مقاييسهم في التصحيح والتضعيف، ومقاييسهم في تفسير النصوص وفهمهم لها، مع أن الله تعالى لم يكلفنا بفهم أحد من الناس.. فالنص إذا احتمل وجوها كثيرة يصبح متاحا لكل أحد أن يتعامل معه وفق فهمه، من غير أن يفرضه على غيره..

بناء على هذا سنذكر هنا ـ مثلما ذكرنا سابقا ـ سبعة أحاديث في التوسل والاستغاثة، وهي جميعا يقوي بعضها بعضا، وهي كافية للدلالة على مشروعية التوسل والاستغاثة.

ونحب أن نبين أن التوسل والاستغاثة لا يدخلان ضمن المسائل العقدية، وإنما هما من فروع الفقه المرتبطة بآداب الدعاء، مثله مثل تلك السنن التي سنها النبي ﷺ مثل تقديم حمد الله والصلاة عليه على ما نطلبه من حاجات، فقد قال ﷺ لمن رآه يصلى ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه ﷺ:(عجل هذا)، ثم دعاه، فقال:(إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، وليصل على النبي، وليدع بعد بما شاء)[1]، ففي تقديم الثناء على الله معرفة بالله، تدعو إلى محبته وإيثاره والثقة فيه، وفي الصلاة على رسول الله ﷺ تقرب منه ومحبة له تصفي القلب وتطهره، فإذا ما صفا القلب بهذه الصورة كان أهلا لقضاء حاجته.

ولهذا ــ أيضا ــ سن لنا النبي ﷺ المقدمات الطويلة لبعض الأدعية لتناسبها مع نوع الدعاء، فذكر ﷺ أن سيد الاستغفار أن نقول:(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا

1() رواه أبو داود الترمذي وصححه، انظر: شرح مشكل الآثار 6/18 ح(2242)

أنت) [1]

فإن مقدمات هذا الدعاء تتناسب تماما مع نوعه، فقد قدم الدعاء بمخاطبة الله التي تستدعي حضور القلب معه، ثم الإقرار بالوحدانية، والتي تدل على تصحيح الإيمان، أو تشير إلى أن الذنب لا يتعلق بالتوحيد، لأن الله وعد أن يغفر غير الشرك، ثم تجديد العبد العهد مع الله بحسب الاستطاعة، ثم الاستعاذة بالله من الذنب وشره، مع الإقرار بنعمة الله، وفي الأخير طلب المغفرة المشفوع بمعرفة أن المتفرد بمغفرة الذنب هو الله تعالى.

وهكذا في كل الأدعية نجد الحقائق الإيمانية التي تناسبها، ومن ذلك قوله ﷺ:(إذا خفت سلطانا أو غيره، فقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، لا إله إلا أنت، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك) [2]، فهذه الصيغة تتناسب تماما مع نوع الحاجة.

ومن هذا الباب كان التوسل برسول الله ﷺ، وهو نوع من الحضور معه، والشعور بمعيته، وله تأثير كبير في ربط القلب بمحبته، وهو السبيل الصحيح لسلوك سنته.

فالتوسل بذلك، والذي يستحضر فيه قلب السائل رسول الله ﷺ، ثم يستشفع به إلى الله، مع الخلو من اعتقاد الوساطة الشركية، والامتلاء بالشعور بالمنة، يملأ القلب شعورا برسول الله ﷺ، وذلك لا يفيد السائل فقط في تحقيقه ما أراده، بل يزيده قربا من رسول الله ﷺ.

الحديث الأول:

وهو توسل الأعمى بالنبي ﷺ في دعاء علمه إياه النبي ﷺ بنفسه، وهو صيغة من صيغ صلاة الحاجة، ولهذا نجد المحدثين في كتبهم يروونه في الأبواب المرتبطة بالدعاء وصلاة الحاجة، فهكذا ذكره النسائي، وابن السُّني في عمل اليوم والليلة، والترمذي في الدعوات، والطبراني في الدعاء، والحاكم في المستدرك،

1() صحيح البخاري 8/67 ح(6306)

2() عمل اليوم والليلة لابن السني 1/305 ح(345)

والمنذري في الترغيب والترهيب، والهيثمي في مجمع الزوائد في صـلاة الحاجـة ودعائهـا، والنـووي في الأذكـار، وابن الجـزري في (العدة) في بـاب صـلاة الضـرِّ والحاجـة، وقـد قـال الشـوكاني فى (تحفـة الـذاكرين): (وفي هـذا الحـديث دليـل على جـواز التوسـل برسول الله ﷺ إلى الله عز وجل مـع اعتقـاد أن الفاعـل هـو اللـه سبحانه وتعالى، وأنه المعطى المانع ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)[1]

ونص هذا الحديث هو أن رجلاً ضريراً أتى إلى النبي ﷺ فقال: ادعُ الله أن يعافيني، فقال ﷺ: إن شئت دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ وهـو خـير؟ قـال: فادعُـهُ، فـأمره ﷺ أن يتوضّـأ فيُحسـن وضـوءه ويُصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبي الرحمـة يـا محمّـد إنّي أتوجّـه بـك إلى ربّي في حـاجتي لتُقضى، اللهمّ شفّعه فيّ)، قال الراوي: فوالله ماتفرّقنا وطال بنـا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضُرّ[2].

ونص الحـديث واضـح في الدلالـة على أنّ النـبي ﷺ أرشـد الأعمى إلى التوسّل بـه في دعائـه الـذي علّمـه إيّـاه: ففي قولـه: (بنبيّـك) متعلّـق بفعلين: أسـألك بنبيّـك.. وأتوجّـه إليـك بنبيّـك.. والمسؤول به وما يتوجّه به إلى الله هو نفس النبي الأطهـر ﷺ، لا دعاؤه ـ كما يذكر ابن تيمية ــ وإلاّ كـان عليـه أن يقـول: اللهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بدعاء نبيّك.. وفي قوله: (محمد نـبي الرحمـة) دلالة على أنّ المسؤول به نفس النبي ﷺ لا دعاؤه.. وفي قوله (يا محمـد إنّي أتوجـه بـك إلى ربي) دليـل على أن الأعمى بحكم هـذا الدعاء اتّخذ منزلة النبي ﷺ وجاهه وسيلة لاستجابة دعائه.. وبـذلك يتّضح أنّ رسول الله ﷺ بشخصه ونفسه الكريمة، هو محور الدعاء كلّه، وليس فيه أي دليل على التوسّل بدعائه ﷺ أصلاً..

وقـد أقـر ابن تيميـة بصـحة هـذا الحـديث، فقـال في كتابـه

---

[1]() تحفة الذاكرين (ص 162).

[2]() رواه أحمد في المسند (4 / 138)، والترمذي (تحفة 10 / 132ـ 133)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 417)، وابن ماجة في السنن (1 /ـ 441) والبخاري في التاريخ الكبير (6 / 210). والطبراني في المعجم الكبير (9 /19)، وفي الدعاء أيضاً (2 / 1289) والحاكم في المستدرك (1 / 313ـ 519) وصححه وسلمه الذهبي والبيهقي في دلائل النبوة (6 / 166)، وفي الدعوات الكبير.

[التوسل والوسيلة] ـ الذي يستند إليه التكفيريون كثيرا ـ يعد طرقه، ويحكم له بالصحة من خلالها: (قال البيهقي: ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد، عن أبيه، بطوله. ورواه أيضا هشام الدستوائي عن أبي جعفر، عن أبي أمامة بن سهل، عن عمه عثمان بن حنيف.. قلت: وقد رواه ابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة، من طريقين، وشبيب هذا صدوق روى له البخاري.. وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم ـ ثم ذكر الحديث بطوله بإسناد آخر ثم قال ـ قال الطبراني: روى هذا الحديث شعبة، عن أبي جعفر - واسمه عمير بن يزيد - وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمير عن شعبة، قال أبو عبد الله المقدسي: والحديث صحيح.. قلت: والطبراني ذكر تفرده بمبلغ علمه، ولم تبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة، وذلك إسناد صحيح يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمير)[1]

لكنه بعد كل هذا الإقرار الذي لم يجد فكاكا عنه، ومع وضوح الحديث، وكون صيغة التوسل التي وردت فيه هي نفس الصيغة التي يتبناها القائلون بالتوسل، راح يؤول معناه، ويصرفه عن حقيقته، بوجوه من التأويل، وهي التي تبناها أصحاب الرؤية التكفيرية، وتصوروا أنها حقائق لا يجوز الجدال فيها مع كونها فهوما عقيمة لا يراد منها سوى الفرار من مقتضيات الحديث، ومن تلك الوجوه:

التأويل الأول: ذكرهم أنّ التوسّل كان في حياة النبي ﷺ وإن لم يكن في محضره، وبذلك لا يصح عندهم التوسل برسول الله ﷺ بعد وفاته، مع أن كل الأحاديث تبقى على إطلاقها ما لم تقيد بزمن معين.

بالإضافة إلى ذلك، فإنهم بهذا الموقف يخرجون عما شرطوه على أنفسهم من التقيد بفهم السلف، وخصوصا الصحابة، وخصوصا راوي الحديث، وقد ورد في الروايات ما يدل على أن الراوي للحديث فهم منه شموله لفترة حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته، فقد روى الطبراني عن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً كان يختلف على عثمان بن عفان في حاجته، وكان عثمان لا يلتفت

---

[1]() التوسل والوسيلة: 105 - 106.

إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين وقل: اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي. وتذكر حاجتك ورُح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك، فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال:ما كانت لك من حاجّة، فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلّمتَه فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمتُه فيك، ولكنّي شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي ﷺ... إلى آخر الحديث[1].

بالإضافة إلى هذا فإن التفريق بين حياة رسول الله ﷺ ووفاته عين الشرك، ذلك أن الله هو الفاعل في الجميع، ورسول الله ﷺ مجرد واسطة، فالتفريق بين الحياة والموت يدل على أن الشخص له من القدرة والتأثير في الحياة ما ليس له في الممات، مع أن الأمر لله جميعا.

التأويل الثاني: أن العميان من الصحابة، لم يعد لهم بصرهم، ويعتبرون هذا دليلا على عدم مشروعية التوسل أو عدم جدواه أو كونه خاصا براوي الحديث، يقول ابن تيمية: (ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدعُ لهم النبي ﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله)[2]، وقد علق على هذا محقق الكتاب بقوله: (وقد عمي بعض الصحابة بعد النبي ﷺ منهم ابن عباس وجابر وكان ابن عباس راغباً في الشفاء، فلو كان التوسل بذات النبي ﷺ مشروعاً لتوسل بذاته ﷺ ولشفي وهو أولى بأن يجاب من هذا الصحابي المجهول بل عمي عتبان بن مالك في حياة رسول الله ﷺ وكذلك

1() المعجم الكبير للطبراني:9/30 و31.

2() قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (1/ 123)

ابن أم مكتوم)[1]

وقال في موضع آخر: (وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسول ﷺ بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه) [2]

ومثله قال الألباني: (لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه كما يفهم عامة المتأخرين لكان المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذين يتوسلون بجاهه ﷺ بل ويضمون إليه أحياناً جاه جميع الأنبياء المرسلين وكل الأولياء والشهداء والصالحين وجاه كل من له جاه عند الله من الملائكة والإنس والجن أجمعين، ولم نعلم ولا نظن أحداً قد علم حصول مثل هذا خلال هذه القرون الطويلة بعد وفاته ﷺ إلى اليوم)[3]

وإيراد مثل هذا عجيب، وهو دليل على التلاعب بالنصوص والاحتيال عليها، والجواب عن هذا من جهتين:

الأولى هي أن من الصحابة من رضي بحاله، ولم يسأل الله تغييره رضى بقسمة الله، بل في حديث الأعمى دليل على استحباب ذلك، وقد ورد في الحديث أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، وبها طيف، فقالت: (إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله أن يشفيني)، فقال:(إن شئت دعوت لك أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة)، فقالت:(بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع اللّه

1() قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (1/ 123).

2() الرد على البكري، ابن تيمية، 1/268.

3() في توسله (ص 76).

لي أن لا أتكشف)، فدعا لها فكانت لا تتكشف[1].

والثانية أن اشتراط تأييد كل ما ورد من الأحاديث القولية أو الفعلية لرسول الله ﷺ بالآثار الدالة على الفعل به من كل الصحابة، يكلفنا شططا، بل يلغي أكثر السنن، فلذلك يكتفي العلماء كلهم ــ بما فيهم ابن تيمية ــ بما ورد من الأحاديث، بل يرون أن في خلاف الصحابة للأحاديث دليل على عدم بلوغ الحديث لهم، لا دليلا على ضعف الحديث أو صرفه عن حقيقة معناه، وقد جعل ابن تيمية نفسه ــ هذا المعنى ــ من أسباب الخلاف الفقهي في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، بل اعتبره أول الأسباب، فقال:(السبب الأول أن لايكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالما بموجبه، وإذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب قياس أو موجب استصحاب فقد يوافق ذلك الحديث تارة ويخالفه أخرى وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث فان الاحاطة بحديث رسول لله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة)[2]

الحديث الثاني:

ما ورد من الروايات الكثيرة التي تخبر عن الحياة بعد الموت، وعلاقة تلك الحياة بالأحياء على الأرض، أو علاقتها بالقبور، وهي التي يستند إليها أصحاب الرؤية الإيمانية في التعامل مع الصالحين وهم موتى، وكأنهم أحياء، فيخاطبونهم، مثلما يخاطبون الأحياء تماما.

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون)[3]، وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: (مررت على

---

[1] رواه البخاري 7/116 ح(5652)

[2] مجموع الفتاوى:20/233.

[3] رواه البيهقي في حياة الأنبياء (ص15). وأبو يعلى في مسنده (6/147)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (2/44)، وابن عدي في الكامل (2 /ـ 739)، وقال الهيثمي في المجمع (8 /211): (ورجال أبي يعلى ثقات).

موسى وهو قائم يصلي في قبره)(1)

وقد قال ابن القيم – وهو تلميذ ابن تيمية النجيب - في نونيته عند الكلام على حياة الرسول بعد مماتهم(2):

والرسل أكمل حالة منه بلا شك وهذا ظاهر التبيان
فذلك كانوا بالحياة أحق من شهدائنا بالعقل والبرهان
وبأن عقد نكاحه لم ينفسخ فنساؤه في عصمة وصيان
ولأجل هذا لم يحل لغـيره منهن واحدة مدى الأزمان
أفليس في هذا دليل أنـــــه حــي لمن كانت له أذنـــان

بالإضافة إلى هذا، فقد ورد في الروايات الكثيرة ــ الـتي يقـر بصحتها ابن تيمية وغيره من أصحاب الرؤية التكفيريـة ــ أن النـبي ﷺ قد صلى إماماً بالأنبياء عليهم السلام في الإسراء، وهذا متواتر، وكانوا قد ماتوا جميعاً، وراجعه موسى عليه السـلام في الصـلوات ورأى غـيره في السـماوات، فمن كـان هـذا حالـه فكيـف يقـال بالتفريق بين حياته وموته؟

وبذلك فإن العلة التي وضعها التكفيريون ابتداء من ابن تيمية للنهي عن التوسل والاستغاثة، وهي مـوت المتوسـل بهم، منتفيـة بهذه الأحاديث، ذلك أن المتوسلين يشعرون أنهم يخـاطبون أحيـاء يسمعونهم، ويجيبونهم، مثلما يتعاملون مع الأحياء تماما.

فكما أنه لا يكفـر من يقصـد طبيبـا، ويطلب منـه أن يعالجـه، فكذلك لا ينبغي أن يكفر من يقصد رسول اللـه ﷺ أو يقصـد بعض

1() مسـلم (4/1845)، وأحمـد (3 /120) والبغـوي في شـرح السـنة (13 /ـ 351) وغيرهم.

2() (النونية مع شرح ابن عيسى 2 / 160)

الصالحين، وهو يشعر بحياتهم، ويطلب منهم أي طلب كتلك الطلبات التي كان يطلبها الصحابة من رسول الله ﷺ من شؤون دنياهم ودينهم، فيقضيها لهم، وقد ورد الكثير منها بصيغة الاستغاثة كما سنرى.

وقد استعمل التكفيريون كل التأويلات لصرف هذا النوع من الحديث عن معناه، ومن ذلك قول بعضهم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، وهو قوله ﷺ: : (مررت على موسى وهو قائم يصلي في قبره)(1): (اعلم أن الحياة التي أثبتها هذا الحديث للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما هي حياة برزخية، ليست من حياة الدنيا في شيء، ولذلك وجب الإيمان بها دون ضرب الأمثال لها ؛ ومحاولة تكيفها وتشبيهها بما هو المعروف عندنا في حياة الدنيا. هذا هو الموقف الذي يجب أن يَتّخذه المؤمن في هذا الصَّدَد: الإيمان بما جاء في الحديث دون الزيادة عليه بالأقيِسَة والآراء، كما يَفعل أهل البِدع الذين وصَل الأمر ببعضهم إلى ادِّعاء أن حياته ﷺ في قبره حياة حقيقية.. فإذا أثبتنا حياة الأنبياء في قبورهم، وأنها ليست من جنس حياة الأحياء في هذه الدنيا، فليس لأحد أن يتوسّل بهم، ولا أن يَدعوهم، لأن إخباره ﷺ عن حياته في قبره أو عن حياة الأنبياء ليس فيه إذن ولا أمر بالتوسّل به ﷺ ولا بِغيره من الأنبياء)(2)

ولست أدري كيف أجاز لنفسه التفريق بين الحياتين في هذا المعنى، مع أن الله تعالى نهى أن يحسب الشهداء أمواتا من جميع النواحي، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: 169ـ 170]، فأخبر عن حياتهم، وصلتهم بالأحياء، وارتباطهم بهم.

بل إن ابن القيم ــ تلميذ ابن تيمية ــ عقد فصلا في كتابه [الروح] ليثبت فيه أن الموتى يعلمون بما يقوله الأحياء،

---

(1) مسلم (4/1845)، وأحمد (3 /120) والبغوي في شرح السنة (13 /ـ 351) وغيرهم.

(2) الجواب المفصّل عن شبهات في التوسل، ص9.

ويسمعونهم، ويتفاعلون معهم، قال فيه: (ويدل على هذا أيضا ما جرى عليه عمل الناس قديما وإلى الآن من تلقين الميت في قبره، ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة، وكان عبثا، وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل، ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبرانى في معجمه من حديث أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ: (إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم يقول يا فلان ابن فلانة، فإنه يسمع ولايجيب، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعدا، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة يقول أرشدنا رحمك الله، ولكنكم لاتسمعون، فيقول: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وبالقرآن إماما فإن منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما، ويقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا، وقد لقن حجته ويكون الله ورسوله حجيجه دونهما، فقال رجل: يا رسول الله فإن لم يعرف أمه قال ينسبه إلى أمه حواء)، فهذا الحديث، وإن لم يثبت فاتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار كاف في العمل به، وما أجرى الله سبحانه العادة قط بأن أمة طبقت مشارق الأرض ومغاربها وهي أكمل الأمم عقولا وأوفرها معارف تطيق على مخاطبة من لا يسمع ولا يعقل وتستحسن ذلك لاينكره منها منكر، بل سنه الأول للآخر ويقتدي فيه الآخر بالأول فلولا أن المخاطب يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم، وهذا وان استحسنه واحد فا لعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه، وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لا بأس به أن النبي ﷺ حضر جنازة رجل فلما دفن قال: (سلوا لأخيكم التثبيت، فإنه الآن يسأل فأخبر أنه يسأل حينئذ وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين، وقد صح عن النبي ﷺ أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا منصرفين)[1]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي أوردها ابن القيم ليثبت من خلالها أن حياة الميت حقيقية، وأن له علاقة بالأحياء، يسمعهم، ويتفاعل معهم، ولذلك كان التفريق بين الموت والحياة في التوسل والاستغاثة لا معنى له، خاصة مع ورود النصوص بعدم

---

[1] الروح (ص: 13)

التفريق.

أما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلاَ الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [سورة فاطر:22]، فبعيد جدا، بل نص المفسرون الذين يعتمدهم أصحاب الرؤية التكفيرية على عدم صحة هذا الاستدلال، ذلك أن الآية الكريمة، تنص على أن الكفار المصرين على الباطل لن ينتفعوا بالتذكير والموعظة كما أن الأموات الذين صاروا إلى قبورهم لن ينتفعوا بما يسمعونه من التذكير والموعظة بعد أن خرجوا من الدنيا على كفرهم، فشبه الله تعالى هؤلاء الكفار المصرين بالأموات من هذا الوجه.

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن كثير في تفسيرها: (كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه)[1]

ثم ذكر موقف عائشة من ذلك، فقال: (وقد استدلت أم المؤمنين عائشة، بهذه الآية على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال: (والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون)، وتأولته عائشة على أنه قال: (إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق)[2]

ثم عقب عليه بقوله: (والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححا له، عن ابن عباس مرفوعا: (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا

1() تفسير ابن كثير (6/ 324)

2() تفسير ابن كثير ت سلامة (6/ 324)

رد الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام)، وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه، وقد شرع النبي ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين)، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم) [1]

الحديث الثالث:

ما ورد من الروايات في حياة رسول الله ﷺ بعد موته، وعلاقته بأمته، ومعرفته بها، وتواصله معها، ومن تلك الأحاديث ما رواه عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: (حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم)[2]

وهذا الحديث واضح في الدلالة على علاقة رسول الله ﷺ بأمته، وعدم اقتصارها على حياته الدنيوية، وقد اتفق أكثر المحدثين على تصحيحه، فقد رواه البزار في مسنده [3] بإسناد رجاله رجال الصحيح، كما نص على ذلك الحافظ نور الدين الهيثمي[4]، وقال الحافظ السيوطي: سنده صحيح[5]، وقال

1() تفسير ابن كثير ت سلامة (6/ 324)

2() رواه البزار (كشف الأستار 1/397) قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (9/24) رجاله رجال الصحيح.

3() كشف الأستار عن زوائد البزار (1/397)

4() مجمع الزوائد (9/24)

5() الخصائص الكبرى (2/281)

الحافظان العراقيان – الزين وابنه ولي الدين –: (إسناده جيد)(1)، وروى الحديث ابن سعد بإسناد حسن مرسل(2).

وقد ألف فيه المحدث الكبير عبد الله بن الصديق الغماري جزءا حديثيا خاصا سماه (نهاية الآمال في صحة وشرح حديث عرض الأعمال) قرظه له شقيقه الحافظ السيد أحمد بن الصديق الغماري الحسني، وذكر فيه بتفصيل كلمات من صححوه من أمثال الحافظ النووي، والحافظ ابن التين، والقرطبي، والقاضي عياض، وابن حجر العسقلاني، والحافظ زين الدين العراقي، وولده الحافظ ولي الدين العراقي أبو زرعة، والحافظ السيوطي، والحافظ الهيثمي كما في «مجمع الزوائد»، والمناوي في «فيض القدير»، والحافظ المحدث السيد أحمد الغماري، وعبد الله بن الصديق وغيرهم كثير.

بالإضافة إلى هذا، فقد أكد هذا الحديث بقوله ﷺ: (إن الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره)(3)

بل إن المحدث الكتاني ذكر تواتر ذلك، فقد قال في [نظم المتناثر]: (قال السيوطي في مرقاة الصعود: تواترت بحياة الأنبياء في قبورهم الأخبار، وقال في [إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء] ما نصه: (حياة النبي ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعيا، لما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت بها الأخبار الدالة على ذلك، وقد ألف الأمام البيهقي رحمه الله تعالى جزءا في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم)، وقال ابن القيم في كتاب الروح: (صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء خصوصا بموسى، وقد أخبر بأنه: (ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام)،

1() طرح التثريب (3/297).

2() الطبقات (2/194)، وانظر: فيض القدير (3/401)

3() صحيح مسلم 4/1791 ح(2288)

إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن مـوت الأنبيـاء إنمـا هو راجع إلى أن غيبوا عنـا بحيث لا نـدركهم، وإن كـانوا موجـودين أحياء وذلك كالحال في الملائكة، فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم) (1)

ويدل لهذا أيضا ما رواه أبو هريرة قال: قال رسـول اللـه ﷺ: (والـذي نفس أبي القاسـم بيـده ليـنزلن عيسـى بن مـريم إمامـا مقسطا وحكما عدلا، فليكسرن الصليب ويقتلن الخنزير وليصـلحن ذات البين وليذهبن الشحناء وليعرضن المال فلا يقبله أحد، ثم لئن قـام على قـبري فقـال يـا محمـد لأجبتـه)، وقـد رواه الحـاكم في المستدرك، وقال: هـذا حـديث صـحيح الإسـناد ولم يخرجـاه بهـذه السياقة، وسلمه الذهبي (2).

ومع ذلـك كلـه راح أصـحاب الرؤيـة التكفيريـة يجـادلون فيـه كعادتهم، فيذكرون أنـه ضـعيف بسـبب غـريب جـدا، وهـو أن هـذا الحديث يعارض حديثا ثابتـا في الصـحيح، وهـو مـا روي أن رسـول اللـه ﷺ قـال: (ألا وإنـه يجـاء برجـال من أمـتي، فيؤخـذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربِّ أصحابي. فيقال: إنـك لا تـدري مـا أحـدثوا بعدك. فـأقول كمـا قـال العبـد الصـالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيدًا مَـا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَـوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الـرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117])(3)

فذكروا أنه لو كانت الأعمال تعرض عليه ﷺ لعرف ما صـنعوا بعده، مع أنهم ينكرون على كل من استعمل عقله في التعامل مع الأحاديث.. بينما هم يجيزون لأنفسـهم مـا شـاءت لهم من صـنوف التأويلات البعيدة.

وقد أجاب العلماء الـذين يقبلـونهم على هـذا الإشـكال، فقـد قال ابن حجر في [فتح الباري] في كيفية الجمع بين الحديثين ناقلا ذلـك عن أربـع من أكـابر حفـاظ الأمـة وهم: النـووي وابن الـتين والقرطبي والقاضي عياض وهو خامسهم حيث قال: (هؤلاء الـذين

1() نظم المتناثر 135 (حديث رقم 115)

2() المستدرك (2/595)

3() صحيح البخاري 6/ 69، صحيح مسلم 4/ 2195.

يـذادون عن الحـوض هم المنـافقون والـذين ارتـدوا عن الإسـلام، فهـؤلاء لا تعـرض أعمـالهم عليـه في الـدنيا لخـروجهم من أمتـه حقيقة، وان كانوا في الصورة يصلون ويتوضأون فيحشرون بالغرة والتحجيل، فإذا أبعدتهم الملائكة، وقال لهم سحقا سحقا أطفا الله تعالى غرتهم وتحجيلهم وأذهبه ساعتئذ)(1)

الحديث الرابع:

مـا ورد من توسـل النـبي ﷺ بـالموتى، وهي من الأحـاديث العملية التي يستدل بها كل المسلمين على شـرعية الأعمـال، مـا لم يرد دليل يخصصها، ولم يرد أي دليل من ذلك النوع.

ومن تلك الأحاديث ما روي أنه: لمـا مـاتت فاطمـة بنت أسـد أم علي بن أبي طـالب دخـل عليهـا رسـول اللـه ﷺ، فجلس عنـد رأسـها فقـال: (رحمـك اللـه يـا أمي كنت أمي بعـد أمي، تجـوعين وتشبعيني، وتعـرين وتكسـيني، وتمنعين نفسـك طيبـاً وتطعميـني، تريدين بذلك وجه اللـه والـدار الآخـرة).. ثم دخـل رسـول اللـه ﷺ قبرها، فاضطجع فيه ثم قال: (الله الذي يحـيي ويميت وهـو حي لا يموت اغفـر لأمي فاطمـة بنت أسـد ولقنهـا حجتهـا، ووسـع عليهـا مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنـك أرحم الـراحمين) (2)

وهو حديث حسن، والشاهد فيه واضح على توسله ﷺ بنفسـه وبالأنبياء من قبله: (بحق نبيك والأنبياء الـذين من قبلي)، وهي من صيغ التوسل، وواضح أن التوسـل فيهـا بـذواتهم، وليس بـدعائهم،

1() فتح الباري (11/385).

2() رواه الطبراني في المعجم الكبير (24/352) وفي الأوسط (1 / 152)، ومن طريقه أبونعيم في الحلية (3 / 121)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (1 / 268)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (9 / 257): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح وثقة ابن حبان، والحاكم، وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.

كما يذكر التكفيريون، فلم يقل النبي ﷺ: (بحق دعاء نبيك)، وإنما قال(بحق نبيك)

ومنها قوله ﷺ: (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمع وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك)

وإسناد هذا الحديث من شرط الحسن، وقد حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ الدمياطي في (المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح)(1)، والحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ الحافظ المنذري(2)، وغيرهما(3).

فهؤلاء الحفاظ كلهم صححوا أو حسنوا الحديث وقولهم حقيق بالقبول، والوقوف عنده، والإذعان إليه.

ودلالة الحديث على التوسل واضحة، فإن رسول الله ﷺ توسل فيه بحق السائلين على الله، وهو عين التوسل.

ومنها ما أثبته ابن تيمية نفسه من حديث ابن ماجة عن النبي ﷺ أنه ذكر في دعاء الخارج للصلاة، أن يقول: (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت).

ففي هذا الحديث دلالة واضحة على جواز التوسل بهم بعد موتهم، فقوله ﷺ: (بحق السائلين) لفظ عام يستوعب كل

1() المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح) (ص471_472).

2() الترغيب والترهيب (3/273)

3() ومنهم الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الحياء (1/291)، والحافظ بن حجر العسقلاني في أمالي الأذكار (1/272)، وقال الحافظ البوصيري في مصباح الزجاجة (1/99): رواه ابن خزيمة في صحيحه، من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده..

السائلين من لدن آدم عليه السلام إلى يوم السائل هذا، بل يستوعب الملائكة وغيرهم، ولا يمكن حصره بالسائلين هذا اليوم أو من الأحياء، إذ لا دليل على هذا يحمله الحديث، ولا مخصص له من خارجه أيضا.

ومن هذا الباب ما رواه الطبراني في معجمه الكبير قال: (كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين)(1)، وقد قال الحافظ الهيثمي في سنده: (رواه الطبراني ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح)(2)

والدلالة فيه على التوسل واضحة، لأن معنى الاستفتاح هو التوسل.. فإن كان التوسل بصعاليك المهاجرين شرعيا، فكيف بالتوسل برسول الله ﷺ؟

الحديث الخامس:

ما ورد صريحا في الاستغاثة، وهو يهدم كل المباني التي بنيت عليها الرؤية التكفيرية، والحديث رواه الطبراني وأبو يعلى في مسنده وابن السني في (عمل اليوم والليلة)، ورواه من بعدهم الكثير من المحدثين مقرين له، داعين إلى العمل به، وهو أن رسول الله ﷺ قال: (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد: يا عباد الله احبسوا علي، يا عباد الله احبسوا علي، فإن لله في الأرض حاضرا سيحبسه عليكم)(3)

وفي رواية أخرى للحديث: (إذا ضل أحدكم شيئا، أو أراد أحدكم غوثا، وهو بأرض ليس بها أنيس، فليقل: يا عباد الله أغيثوني، يا عباد الله أغيثوني، فان لله عبادا لا نراهم)(4)

ورواه البزار عن ابن عباس بلفظ: (إن لله تعالى ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا

---

(1) الطبراني في معجمه الكبير (1/292)

(2) مجمع الزوائد (10/262).

(3) رواه الطبراني في المعجم الكبير (17 /117) وغيره.

(4) رواه الطبراني في المعجم الكبير (10/217)، وأبو يعلى في مسنده (9/177)

أصابت أحدكم عرجة بأرض فلاة فلیناد: یا عباد الله أعینوني)[1]

وقد قـال الحافـظ تعليقـا على الحـديث: (هـذا حـديث حسـن الإسناد غريب جدا، أخرجه البزار، وقـال: لا نعلم يـروى عن النـبي ﷺ بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد)[2]

وهذا الحديث – برواياته المختلفة - ينسف كل مـا يدعيـه ابن تيمية وأتباعه من اعتبـار الاسـتغاثة بغـير اللـه شـرك، وإلا اعتبرنـا رسول الله ﷺ يدعونا في هذا الحديث إلى الشرك.

وقد أقر كبار المحدثين بالحديث، ودعوا إلى العمل به، ومنهم الإمام أحمد الذي يزعم ابن تيمية أنه ممثل السنة وناصــرها، ففي المسائل، وشعب الإيمان للبيهقي: قال عبد الله بن الإمـام أحمـد: سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج منهـا اثنـتين راكبـاً، وثلاثـة ماشـياً، أو ثنـتين ماشـياً وثلاثـة راكبـاً، فضـللت الطريـق في حجـة وكنت ماشياً فجعلت أقول: (يا عباد الله دلونـا على الطريــق، فلم أزل أقول ذلك حتى وقعت على الطريق، أو كما قال أبي)[3]

ومثله أبو القاسم الطبراني، فقـد قـال بعـد أن روى الحـديث في معجمه الكبير: (وقد جرب ذلك)[4].

وقـال النـووي في الأذكـار بعـد أن ذكـر الحـديث: (حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم أنه انفلتت له دابة أظنها بغلة، وكان يعرف هذا الحديث فقاله، فحسبها الله عليهم في الحال، وكنت أنا مرةً مع جماعة فانفلتت منا بهيمة وعجزوا عنها فقلته فوقفت في الحال بغير سوى هذا الكلام)[5]

وقد حاول أصحاب الرؤية التكفيرية رده بكـل مـا أمكنهم من صنوف التأويل، ومن ذلك قول الألباني: (وهذا الوصف إنما ينطبق

1() مسند البزار = البحر الزخار 11/181 ح(4922)

2() كما في شرح ابن علان (5 / 151).

3() رواه البيهقي في الشعب (2 / 455 / 2) وابن عساكر (3 / 72 / 1).

4() معجمه الكبير (17/117)

5() الأذكار (ص133)

على الملائكة أو الجن ؛ لأنهم الذين لا نراهم عادة، فلا يجوز أن يُلحَق بهم المسلمون من الجن أو الإنس ممن يسمونهم برجال الغيب من الأولياء والصالحين، سواء كانوا أحياء أو أمواتا، فإن الاستغاثة بهم وطلب العون منهم شرك بيِّن ؛ لأنهم لا يسمعون الدعاء، ولو سمعوا لما استطاعوا الاستجابة وتحقيق الرغبة، وهذا صريح في آيات كثيرة، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: 13، 14])(1)

ولست أدري هل كان واعيا في استدلاله بالآية الكريمة أم لا؟ لأنها تنطبق على من يعتقد ندية المخلوق لله، وهو يصدق على الجن والملائكة وغيرهم.. وليس خاصا بالبشر أو الجن فقط.

ومقتضى كلامه أن من اعتقد إغاثة الملائكة له، لا يكون مشركا، بخلاف ما لو اعتقد إغاثة الصالحين له، لما آتاهم الله في عالمهم من القدرات على ذلك.

وقد كان في إمكان أصحاب الرؤية التكفيرية لو كانوا متواضعين أن يرحموا أولئك المساكين الذين يعتقدون بأن الله آتى أولياءه في العالم الغيبي من فضله ما يستطيعون به عون الأحياء، لأن العون إلهي، ولا يهم مصدره، هل هو من الملائكة أم من الجن أم من البشر؟

لكنهم لم يفعلوا مع أن ابن تيمية نفسه والفريق الذي ينتمي إليه يرى فضل صالحي البشر على الملائكة، وخاصة بعد موتهم (2).. ولكنهم للأسف، ونتيجة غلبة المزاجية والهوى، يرمون بكل عقائدهم التي يتبنونها ويدافعون عنها في سبيل الحكم على المسلمين بالشرك الجلي في قضايا فرعية وردت بها الأدلة الصحيحة الصريحة التي لا يمكن دفعها.

وكمثال على ذلك ما قاله بعضهم في بعض المنتديات مغتاظا

1() سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (656).

2() (مجموع الفتاوى) (11/ـ 350)، وإلى لوامع الأنوار (2/ـ 368)، وإلى شرح العقيدة الطحاوية (ص338)

حانقا، وهو يعلق على الحديث السابق: (لا يوجد فيه أي نوع من الاستغاثة التي يذكرها الوثنيون المعاصرون ويحتجون -من ضمن ما يحتجون به هذا الحديث- فالحديث يتضمن نداء ملائكة أحياء يسمعون ويجيبون بنص الحديث -إن صح- في أمر مقدور عليه عندهم.. بالإضافة إلى أنه أمر مأذون به بنص الحديث.. وليس في الحديث نداء من في القبور ولا الاستشفاع بهم عند الله تعالى ولا جعلهم واسطات.. وإلا فما علاقة دل الطريق أو إعادة الدابة بالاستغاثة وجعل الوسائط بين الله تعالى وعباده؟! ومن الذي أذن لهم باتخاذ الشفعاء إلى الله تعالى؟! وأين في الحديث الذبح والنذر لهم أو السجود والتمسح بهم؟! فالحديث لا يؤيد الوثنيين الذين يدعون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله!!)(1)

وهكذا يظلون يتخبطون، ويتلاعبون بتأويل النصوص بدل التسليم لها، ومراجعة الأخطاء من خلالها.

الحديث السادس:

ما ورد في الروايات عن استغاثة الصحابة وغيرهم برسول الله ﷺ حال حياته، وهي إذا ضممنا إليها الأحاديث السابقة الدالة على علاقته بأمته بعد موته، كان في ذلك دلالة على مشروعية الاستغاثة به مطلقا.

ومن تلك الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم من (أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائما، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع لنا الله تعالى يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: (اللهم أغثنا، اللهم أغثنا)، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال: فلا والله ما رأينا الشمس سبتا)(2). أي أسبوعا كاملا.

وفي حديث آخر عن جبير بن مطعم، قال: أتى رسول الله

1() انظر هذا التعليق في ملتقى أهل الحديث، وهو أكبر منتدى للسلفيين.

2() صحيح البخاري / كتاب الإستسقاء، باب 643، صحيح مسلم / كتاب صلاة الإستسقاء..

ﷺ أعرابي، فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام، فاستسق لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال ﷺ: (ويحك، أتدري ما تقول؟! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك)[1]، فقد أنكر عليه ﷺ قوله (نستشفع بالله عليك) ولم ينكر عليه قوله (نستشفع بك على الله)

وفي حديث آخر عن أنس بن مالك: جاء أعرابي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أتيناك وما لنا من صبي يصطبح، ولا بعير ينط، وأنشد:

أتيتك والعذراء تدمي	وقد شغلت أم الصبي عن
وألقى بكفيه الفتى	من الجوع هونا ما يمر ولا
ولا شيء مما يأكل	سوى الحنظل العامي
وليس لنا إلا إليك	وأين فرار الناس إلا إلى

فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه حتى صعد المنبر، فرفع يديه، ثم قال: (اللهم اسقنا..) وذكر الدعاء، ثم قال فما رد النبي يده حتى ألقت السماء بأرواقها، وجاء أهل البطانة يضجون: الغرق الغرق! فقال النبي ﷺ: (حوالينا ولا علينا)، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالأكليل، وضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: (لله در أبي طالب، لو كان حيا قرت عيناه، من ينشدنا قوله؟) فقال علي بن أبي طالب: (يا رسول الله كأنك تريد قوله:

وأبيض يستسقى	ثمال اليتامى عصمة
يطوف به الهلاك من	فهم عنده في نعمة
كذبتم وبيت الله	ولما نطاعن دونه
ونسلمه حتى نصرع	ونذهل عن أبنائنا

فقال رسول الله ﷺ: (أجل)، فقام رجل من كنانة، فقال:

---

[1] () سنن أبي داود 4: 232.

لك الحمد والحمد   سقينا بوجه

إلى قوله:

فكان كما   أبو طالب أبيض

فقال رسول اللَه ﷺ: (إن يكُ شاعر أحسن فقد أحسنت)[1]

وهكذا نجد الأحاديث الكثيرة التي يلجأ فيها الصحابة لرسول الله ﷺ، ويستغيثون به لتحقيق بعض مصالحهم الدنيوية، وهي كثيرة جدا، ومنها ما روي عن حبيب بن فديك أن أباه خرج به إلى رسول الله ﷺ وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئا، فسأله: (ما أصابك؟) فقال: وقعت رجلي على بيضة حية فأصيب بصري، فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر، فرأيته وهو يدخل الخيط في الإبرة، وانه لابن الثمانين سنة، وإن عينيه لمبيضتان[2].

ومنها ما روي أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه يوم أحد، فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فقالوا: حتى تستأمر رسول الله ﷺ، فاستأمروه، فقال: (لا)، فدعي به فرفع حدقته ثم غمزها براحته، وقال: (اللهم اكسبه جمالا، وبزق فيها)، فكانت أصح عينيه وأحسنها[3].

ومنها ما روي عن رفاعة بن رافع بن مالك قال: رميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شئ[4].

ومنها ما روي أنه أصيبت عين أبي ذر يوم أحد، فبزق فيها

1() دلائل النبوة 6: 140 - 142، شفاء السقام: 170 - 171..

2() المعجم الكبير للطبراني: 4/30، وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1414 هـ، 1994 م، 8/298..

3() دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1405 هـ، (3/ 252)

4() ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (6:ـ 82)، وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط.

رسول الله ﷺ فكانت أصح عينيه[1].

الحديث السابع:

ما ورد في الروايات عن استغاثة البشر برسـول اللـه ﷺ في المحشر، وبعد أن يعرف الناس جميعـا حقـائق التوحيـد والشـرك، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمـع الله النـاس الأولين والآخـرين في صـعيد واحـد، يسـمعهم الـداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب مـا لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون مـا قـد بلغكم، ألا تنظـرون من يشـفع لكم إلى ربكم؟ فيقـول بعض النـاس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشـر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لـك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى مـا نحن فيـه، ألا تـرى إلى مـا قـد بلغنا؟... فيأتون محمدا فيقولون: يا محمد أنت رسول اللـه وخـاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبـك ومـا تـأخر، اشـفع لنـا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيـه؟ فـأنطلق فـآتي تحت العـرش، فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا، لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفـع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع فـأرفع رأسـي، فـأقول: أمـتي يـا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يـا محمـد أدخـل من أمتـك من لا حسـاب عليهم من البـاب الأيمن من أبـواب الجنـة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسـي بيـده، إن مـا بين المصـراعين من مصـاريع الجنـة، كمـا بين مكـة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى)[2]

فهذا الحديث يدل على مشروعية الاسـتغاثة من نـواح كثـيرة جدا منها:

1. أن البشـر عنـد اتصـالهم بكـل الأنبيـاء عليهم السـلام، لا

---

[1]() دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، حققه: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية، 1406 هـ - 1986 م، (ص: 484)

[2]() البخاري (4712)، ومسلم (194)، والترمذي (2434).

يطلبون منهم دعاء الله مباشرة، بل يرسلونهم إلى غيرهم من الأنبياء، على خلاف ما يدعيه أصحاب الرؤية التكفيرية من أن الكمال هو دعاء الله مباشرة..

2. أنه من الغرابة أن تعتبر الاستغاثة برسول الله ﷺ يوم القيامة، واللجوء إليه إيمانا وتسليما، في نفس الوقت الذي يعتبر فيه اللجوء إليه في الدنيا شركا وكفرا.. فهل لرسول الله ﷺ وجود يوم القيامة، وليس له وجود الآن؟.. أو أن مكانته عند الله، والتي تؤهله للشفاعة، مؤجلة إلى يوم القيامة، أما في هذه الدنيا، فلا مكانة له؟

والأخطر من ذلك كله هو كيفية استحالة القضية الواحدة إلى إيمان من جهة، وإلى شرك من جهة أخرى.. وهذا من أعجب العجب الذي يقع فيه أصحاب الرؤية التكفيرية، إذ أنهم يعتبرون لجوء الخلق إلى رسول الله ﷺ، ومد أيديهم إليه في الآخرة إيمانا وتسليما، في نفس الوقت الذي يعتبرون مد أيديهم إليه في الدنيا شركا.. مع أنه لو كان ذلك شركا، لكان في الآخرة أكبر لأن الخلق في ذلك الموقف عاينوا أهوال القيامة، وانكشفت الحقائق أمامهم رأي العين.

وهذا التخلخل في مبانيهم ما جعل الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ يقول تعليقا على بعض الأبيات في البردة، واعتبارها شركا: (بلغنا من نحو سنتين اشتغالكم ببردة البوصيري، وفيها من الشرك الأكبر ما لا يخفى، من ذلك قوله: (يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك) إلى آخر الأبيات، التي فيها طلب ثواب الدار الآخرة من النبي ﷺ وحده، وكونه ﷺ أفضل الأنبياء لا يلزم أن يختص دونهم بأمر نهى الله عنه عباده عموماً، وخصوصاً، بل هو مأمور أن ينهى عنه، ويتبرأ منه، كما تبرأ منه المسيح بن مريم في الآيات في آخر سورة المائدة، وكما تبرأت منه الملائكة في الآيات التي في سورة سبأ.. وأما اللياذ: فهو كالعياذ، سواء، فالعياذ لدفع الشر، واللياذ لجلب الخير، وحكى الإمام أحمد وغيره الإجماع على أنه لا يجوز العياذ إلا بالله، وأسمائه، وصفاته، وأما العياذ بغيره: فشرك، ولا فرق)[1]

---

[1] رسائل وفتاوى الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد عبد الوهاب: 1/82.

3 ـ موقف السلف من التوسل والاستغاثة:

لا تنهـد المبـاني التكفيريـة من خلال المصـادر المقدسـة من القرآن والسنة فقط، بل تنهد من طـرف أولئـك الـذين يتصـورون أنفسهم موالين لهم، ويصرخون كل حين بتلك الحروب ضد الأمـة، وطوائفها بسببهم، مـع أننـا لـو طبقنـا عليهم معـاييرهم في تكفـير المسلمين بسبب التوسل والاستغاثة والقبوريـة، لوجـدناها تنطبـق عليهم، مثلما تنطبق على غيرهم.

وســنذكر هنــا نمــاذج عن ذلــك من كبــار الصــحابة الــذين يعتمدونهم:

النموذج الأول:

ما روي عن ابن عمر، وهو من كبار الصحابة الـذين نجـد لهم حضـورا قويـا في كتب أصـحاب الرؤيـة التكفيريـة، ويسـتدلون بـه خصوصا على مدى حرصه على السنة.

ومع ذلك لو طبقنا عليه أحكامهم التكفيرية، فسنجدها تنطبق عليه مثلما تنطبق على غيره ممن يسمونهم قبوريين.. فقد اشتهر ابن عمر بتتبعه للآثار النبوية وتبركه بها، وبحثه عنها، وقد أقر بهـذا ابن تيمية نفسه، وخطأه فيه، مع أنهم يمنعون غـيرهم من تخطئـة الصحابة أو نقدهم، يقول في مجموع الفتـاوى: (وكـذلك ابن عمـر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النـبي ﷺ ويـنزل مواضـع منزلـه ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ ويصب فضل مائه على شـجرة صـب عليهـا ونحـو ذلـك ممـا اسـتحبه طائفـة من العلمـاء ورأوه مستحبا ولم يسـتحب ذلـك جمهـور العلمـاء؛ كمـا لم يسـتحبه ولم يفعله أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمـان وعلي وابن مسـعود ومعاذ بن جبل وغيرهم لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر. ولــو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعته والاقتـداء بـه. وذلـك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجـه الـذي فعـل فـإذا فعـل فعلا على وجه العبادة شـرع لنـا أن نفعلـه على وجـه العبـادة وإذا قصد تخصيص مكـان أو زمـان بالعبـادة خصصـناه بـذلك كمـا كـان يقصد أن يطوف حول الكعبة وأن يستلم الحجر الأسود وأن يصلي خلف المقام وكان يتحرى الصـلاة عنـد أسـطوانة مسـجد المدينـة

وقصد الصعود على الصفا والمروة والدعاء والذكر هناك وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما. وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده ـ مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه ـ فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول لم نكن متبعين بل هذا من البدع)(1)

إلى أن قال: (ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي ﷺ وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمرو بن زاذان بالكوفة فإن هذا لما لم يكن مما يفعله سائر الصحابة، ولم يكن النبي ﷺ شرعه لأمته؛ لم يمكن أن يقال هذا سنة مستحبة؛ بل غايته أن يقال: هذا مما ساغ فيه اجتهاد الصحابة أو مما لا ينكر على فاعله لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد لا لأنه سنة مستحبة سنها النبي ﷺ لأمته أو يقال في التعريف: إنه لا بأس به أحيانا لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة. وهكذا يقول أئمة العلم في هذا وأمثاله: تارة يكرهونه وتارة يسوغون فيه الاجتهاد وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة ولا يقول عالم بالسنة: إن هذه سنة مشروعة للمسلمين. فإن ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله ﷺ إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع) (2)

وهذا النص كله رمي لابن عمر بالبدعة، وأنه لم يكن يعرف السنة، وأن غيره من الصحابة كانوا أعلم منه بذلك، مع أنه في مواضع أخرى، وخاصة في أحاديث الفتنة، والموقف من يزيد أو ترتيب الأفضلية بين الصحابة، يجعله أفقه الصحابة وأعلمهم.

ولم يكتف ابن عمر بتتبع الآثار النبوية والتبرك بها فقط، بل ورد عنه نص صريح بالاستغاثة، وهو ما يقلب كل المباني التي بنى عليها التكفيريون مواقفهم، ولهذا راحوا يستعملوا كل صنوف التأويلا لتأويل الرواية.

ونص الرواية كما ذكرها البخاري في [الأدب المفرد] هي: (حدثنا أبو نعيم قال حدثنا سفيان عن أبي اسحق عن عبد الرحمن بن سعد قال: (خدرت رجل ابن عمر فقال له رجل: اذكر أحب

1() مجموع الفتاوى (1/ 280).

2() مجموع الفتاوى (1/ 281).

الناس إليك فقال: يا محمد)، وما يزيد طين التكفيريين بلة، هو أن البخاري وضع هذا الحديث تحت عنوان: (باب ما يقـول الرجـل إذا خدرت رجله)(1)

بل إن ابن تيميـة نفسـه ذكـره في كتابـه [الكلم الطيب] في فصل في الرجل إذا خدرت، فقال: (عن الهيثم بن حنش قال: كنـا عند عبد الله بن عمر فخـدرت رجلـه فقـال لـه رجـل: اذكـر أحب الناس إليك فقال: يا محمد فكأنما نشط من عقال)(2)

وهكذا عنون النووي للحديث في [الأذكار] [باب مـا يقـول إذا خدرت رجله]، ثم قال: (روينا في كتاب ابن الســني عن الهيثم بن حنش قال: كنا عند عبد الله بن عمر فخدرت رجله فقال له رجل: اذكر أحب الناس إليك فقال: يا محمد، فكأنمـا نشـط من عقـال)، ورويناه عن مجاهد قال: خدرت رجل رجل عند ابن عبـاس، فقـال ابن عباس: اذكر أحب الناس إليك، فقال: محمد ﷺ فذهب خـدره) (3)

وهذا الحديث فيـه نـداء للنـبي ﷺ بعـد وفاتـه [يـا محمـد]، ثم اعتبار لتأثير ذلك [فكأنما نشط من عقـال]، وهـذا كلـه شـرك في مبانيهم، لأن أفعال المستغيثين لا تتجاوز هذا، فهم يتصــورون أنهم باستغاثتهم برسول الله ﷺ ـ لمكانته العظيمـة عنـد اللـه ـ سـيحل كل عقال حصل لهم، سواء كان خدر رجل أو غيره.

النموذج الثاني:

مـا ورد من اسـتغاثة الصـحابة ومن بعـدهم برسـول اللـه ﷺ بصيغة [يا محمداه]، وهي كثيرة جدا، وسنذكر هنـا أمثلـة عنهـا من روايات الطبري، وهو معتبر عند التكفيريين، لثناء ابن تيمية الكثـير عليه.

1() رواه البخـاري في الأدب المفـرد (رقم/964)، والـدارقطني في العلـل (13/242) ورواه علي بن الجعد في المسند (ص/369)، وإبراهيم الحربي في غريب الحديث (2/674)، وابن سعد في الطبقات (4/154)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (31/177).

2() الكلم الطيب (1/ـ 172 ـ 173 بـرقم 236 طبعـة المكتب الإسـلامي - بـيروت - الطبعة الثالثة - 1977 يتحقيق الالباني.

3() الأذكار للإمام النووي ص271.

ومن تلك الروايات ما رواه في تأريخه للحرب مع مسيلمة الكذاب، وأن شعار الصحابة كان حينها [يا محمداه]، قال الطبري: (ثم برز خالد، حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز وانتمى، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر وزيد! ونادى بشعارهم يومئذ، وكان شعارهم يومئذ: يا محمداه! فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله)(1)

ومنها ما رواه عن عاصم بن عمر بن الخطاب، قال: قحط الناس زمان عمر عاما، فهزل المال، فقال أهل بيت من مزينة من أهل البادية لصاحبهم: قد بلغنا، فاذبح لنا شاة، قال: ليس فيهن شيء، فلم يزالوا به حتى ذبح لهم شاة، فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمداه! فأري فيما يرى النائم ان رسول الله ﷺ أتاه، فقال: أبشر بالحيا! ائت عمر فأقرئه مني السلام، وقل له: إن عهدي بك وأنت وفي العهد، شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر! فجاء حتى أتى باب عمر، فقال لغلامه: استاذن لرسول رسول الله ﷺ، فأتى عمر فأخبره، ففزع وقال: رأيت به مسا! قال: لا، قال: فأدخله، فدخل فأخبره الخبر، فخرج فنادى في الناس، وصعد المنبر، وقال: أنشدكم بالذي هداكم للإسلام، هل رأيتم مني شيئا تكرهونه! قالوا: اللهم لا، قالوا: ولم ذاك؟ فأخبرهم، ففطنوا ولم يفطن، فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء، فاستسق بنا، فنادى في الناس، فقام فخطب فأوجز، ثم صلى ركعتين فأوجز، ثم قال: ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا، وأحي العباد والبلاد!)(2)

فهذا الحديث يدل على اشتهار تلك الصيغة في ذلك العهد، وأنه لم ينكر عليها أحد، وفيها دلالة صريحة على الاستغاثة برسول الله ﷺ، لأن الزمن كان زمن جدب، وهم يحتاجون إلى السقيا.

وهكذا روى الطبري هذه الرواية عن زينب بنت الإمام علي، قال: (قال: فما نسيت من الأشياء لا أنس قول زينب ابنة فاطمة حين مرت بأخيها الحسين صريعا وهي تقول: يا محمداه، يا محمداه! صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرمل

1() تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (3/ 293)

2() المرجع السابق، (4/ 99).

بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه! وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفي عليها الصبا قال: فأبكت والله كل عدو وصديق، قال: وقطف رءوس الباقين، فسرح باثنين وسبعين رأسا مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجاج وعزرة بن قيس، فأقبلوا حتى قدموا بها على عبيد الله بن زياد)(1)

وهكذا ذكر نداءهم بتلك الاستغاثة أيام فتنة ابن الأشعث عام 82 هـ، فقد قال الطبري: (وذكر ضمره بن ربيعه، عن ابى شوذب، أن عمال الحجاج كتبوا إليه: أن الخراج قد انكسر، وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار، فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية فليخرج إليها.فخرج الناس فعسكروا، فجعلوا يبكون وينادون: يا محمداه يا محمداه! وجعلوا لا يدرون أين يذهبون! فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيبكون لما يسمعون منهم ويرون) (2)

النموذج الثالث:

ما روي أن بلال بن الحارث المزني ـ وهو صحابي معروف ـ جاء إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتى الرجل في المنام فقيل له: (ائت عمر)، ائت عمر فأقرئه السلام، وأخبره أنكم مسقيون وقل له: عليك الكيس، عليك الكيس، فأتى الرجل فأخبر عمر، فقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه)(3)

ومع وضوح هذا الحديث، إلا أن أصحاب الرؤية التكفيرية راحوا يردونه بعقولهم، وبمبانيهم التي هدمت كل شيء، ومن ذلك قول بعضهم: (هذا مخالف لما ثبت في الشرع من استحباب إقامة صلاة الاستسقاء لاستنزال الغيث من السماء، كما ورد ذلك في أحاديث كثيرة، وأخذ به جماهير الأئمة، بل هي مخالفة لما أفادته

1() المرجع السابق، (5/ 456).

2() المرجع السابق، (6/ 381).

3() رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (6/ـ 356) والبخاري في التاريخ الكبير (7/304)ـ - مختصرا - والبيهقي في الدلائل (7/47)، وابن عساكر في تاريخه (44/345)، وانظر: فتح الباري:2/496.

الآيـة من الـدعاء والاسـتغفار، وهي قولـه تعـالى في سـورة نـوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نـوح: 10 - 12].. وهكـذا كـانت عـادة السـلف الصـالح كلمـا أصابهم القحط أن يصلوا ويدعوا، ولم ينقل عن أحـد منهم مطلقـاً أنه التجأ إلى قبر النبي ﷺ، وطلب منـه الـدعاء للسـقيا، ولـو كـان ذلك مشروعاً لفعلوه ولـو مـرة واحـدة، فـإذا لم يفعلـوه دل ذلـك على عدم مشروعية ما جاء في القصة)[1]

النموذج الرابع:

ما رواه الدارمي تحت عنوان [ما أكرم اللـه تعـالى نبيـه بعـد موته] عن أبي الجوزاء أوس بن عبد الله قال: (قحط أهل المدينة قحطا شديدا، فشكوا إلى عائشـة فقـالت: انظـروا قـبر النـبى ﷺ، فاجعلوا منـه كـوى إلى السـماء حـتى لا يكـون بينـه وبين السـماء سقف. قال: ففعلوا، فمطرنـا مطـرا حـتى نبت العشـب وسـمنت الإبل، حتى تفتقت من الشحم، فسمى عام الفتق)[2]

وهــو من الأحــاديث الدالــة على لجــوء الصــحابة للنــبي ﷺ، والاسـتغاثة بـه، وبطـرق مختلفـة، وهـو لا يـدل فقـط على فعـل عائشة، بل يدل على موافقة الصحابة لها.

وقد استعمل التكفيريون كل الوسائل لرده وتأويله، ومنها مـا عبر عنه ابن تيمية بقوله: (وما روي عن عائشة من فتح الكوة من قبره إلى السماء لينـزل المطـر فليس بصـحيح، ولا يثبت إسـناده، ومما يبين كذب هذا: أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للـبيت كـوة بـل كـان باقيـا كمـا كـان على عهـد النـبي ﷺ، بعضـه مسـقوف، وبعضـهم مكشـوف، وكـانت الشـمس تـنزل فيـه، كمـا ثبت في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ كـان يصـلي العصـر والشـمس في حجرتها لم يظهر الفيء. بعد ولم تزل الحجرة كذلك حـتى زاد الوليد بن عبد الملك في المسـجد في إمارتـه لمـا زاد الحجـر في

1() انظر: فتوى بعنوان: خبر الرجل الذي جاء في عهد عمر إلى قبر النـبي ﷺ يقـول: يـا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، موقع الإسلام سؤال جواب.

2() رواه الدارمي (1/56) رقم (92) تحت باب: ما أكرم الله تعالى نبيه بعد موته..

مسجد الرسول ﷺ.. ومن حينئذ دخلت الحجرة النبوية في المسجد ثم إنه بنى حول حجرة عائشة التي فيها القبر جدارا عاليا وبعد ذلك جعلت الكوة لينزل منها من ينزل إذا احتيج إلى ذلك لأجل كنس أو تنظيف. وأما وجود الكوة في حياة عائشة فكذب بين)[1]

وهكذا راح يستعمل العقل الذي ينهى غيره عن استعماله في التعامل مع السنة النبوية، مع أن العقل نفسه يجيز لفتح الكوة وجوها كثيرة، غير التي ذكرها ابن تيمية.. ولكن التعامل المزاجي مع الدين جعلهم يقعون في كل التناقضات.

النموذج الخامس:

ما ورد من الآثار الكثيرة على أن الصحابة كانوا يتوسلون برسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته، ولو كان ذلك محرما أو بدعة أو شركا ما فعلوه، وابن تيمية يقر بذلك، بل إنه يبدع ويكفر من يتهمهم بذلك.

ومن الأحاديث الدالة على توسلهم به ﷺ في حياته الحديث الذي رواه البخاري وغيره، وهو أن عمر بن الخطاب كان إذا قُحطُوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: (اللّهم إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبينا فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبينا فاسقنا، فيسقون)[2]

فالحديث يدلّ على أنّ إمام الناس في صلاة الاستسقاء عمر بن الخطاب كان هو الداعي، وأنّه كان يقول في دعائه ذلك القول: (إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا وإنّا نتوسّل إليك بعم نبينا فاسقنا)

وهذا يعني أنّهم كانوا يتوسّلون بالنبيّ ﷺ نفسه وبذاته وكرامته وقداسته لا بدعائه ﷺ، وأنّهم يتوسّلون الآن بشخص العباس لا بدعائه، وعلى ذلك فتقدير كلمة (بدعائه) تخرّص على الغيب.

---

[1] () الاستغاثة في الرد على البكري (ص: 104)

[2] () صحيح البخاري 2/27 ح(1010).

وقد اهتم ابن تيمية كثيرا بهـذا الحـديث، لأنـه يخـدم مـا ذهب إليــه في بدعيــة التوســل بــالموتى، وغفــل أنــه يهــدم مذهبــه في التوسل بالذوات والأشـخاص، لأن عمـر ذكـر أنهم كـانوا يتوسـلون بـذات النـبي ﷺ، لا بدعائـه.. ولـذلك إن ثبتت حيـاة النـبي ﷺ بعـد موته، ثبت التوسل به مطلقا.

بالإضافة إلى هذا، فإن زعم ابن تيمية ـ بناء على هذه الرواية ـ بأن الصحابة مجمعون على حرمة التوسـل بـالنبي ﷺ بعـد وفاتـه تحكم لا دليل عليه، لأن هذا يمثل رأي عمر بالتوسل بالحي، وليس فيه دلالة على حرمة التوسل بالميت.

بالإضــافة إلى أنــه إذا صــح أن رأي عمــر كــان عــدم صــحة التوسـل بـالميت، فليس فيـه دلالـة على أن هـذه هي قناعـة كـل الصـحابة حـتى المشـاركين لـه في هـذا الاستسـقاء؛ فـإذا حمـل إقرارهم قول عمر على أنه إجماع سكوتي يـدل على صـحة رأيـه، فهو يدل على إقرارهم التوسل بـالحي الـذي تم بالفعـل، ولا يـدل على نفي التوسل بالميت.

وهذا كله إذا اعتبرنا الإجماع السكوتي حجة، وهو ليس كذلك، فقد أنكر حجيتـه المالكيـة، وهـو قـول الشـافعي، وداود الظـاهري إمام الظاهرية، وإليـه ذهب الآمـدي، والفخـر الـرازي، والبيضـاوي وغيرهم[1].

وقد قال ابن حزم منتقدا لـه: (إن القـول بمثـل هـذا الاجمـاع يعني إيجاب مخالفة أوامره ﷺ ما لم يجمع الناس عليها، وهذا عين الباطل.. بل إذا تنازع الناس رددنا ذلك إلى ما افترض اللـه تعـالى علينا الرد عليه من القرآن والسنة، ولا نراعي ما أجمعوا عليه مــع وجود بيان السنة)[2]

1() راجع: الأحكام / للآمدي 1: 312، موسوعة الاجماع في الفقه الاسلامي / سعدي أبو حبيب 1: 31.

2() المحلى 7: 165 - 166.

الفصل الثاني

المزارات الدينية.. والمدارس الفقهية

من المناهج التي يعتمدها التيـار السـلفي في إقنـاع جمهـوره إيراده لأقوال من يتبناهم من المشـايخ من أمثـال ابن تيميـة وابن عبـــد الوهـــاب وابن بـــاز وابن العـــثيمين وغـــيرهم من القـــدماء والمحدثين، وهو يطنب في ذلك لدرجـة يتصـور الكثـير من العـوام أن هـذا هـو إجمـاع الأمـة، مـع أن الكثـير ممن يـذكرهم لا يمكن تعدادهم في الطلبة؛ فكيف بتعدادهم في العلماء.

فمحمـد بن عبـد الوهـاب، وهـو الـزعيم الأكـبر للسـلفية في المسـائل المتعلقـة بـالمزارات الدينيـة، ومن خلال الرسـائل الـتي تركهـا لا يمكن اعتبـاره طـالب علم، فضـلا عن اعتبـاره فقيهـا أو عالمـا، وليس هـذا قولنـا، ولا شـهادتنا، وإنمـا هي شـهادة أقـرب المقربين إليه.

فقد ورد في ترجمة والد محمد بن عبـد الوهـاب ذكـر غضـبه عليه بسبب عدم اهتمامه بالعلم، قال محمد بن عبد الله بن حميـد النجدي ثم المكي (المتوفى: 1295 هـ)، صـاحب كتـاب [السـحب الوابلة على ضرائح الحنابلـة]: (وهـو والـد محمّـد صـاحب الـدعوة التي انتشر شررها في الآفاق، لكن بينهما تباين مـع أن محمـدًا لم يتظاهر بالدعوة إلا بعد موت والده، وأخـبرني بعض من لقيتـه عن بعض أهـل العلم عمّن عاصـر الشـيخ عبـد الوهـاب هـذا أنـه كـان غضــبان على ولــده محمــد لكونــه لم يــرض أن يشــتغل بالفقــه كأسلافه وأهل جهته ويتفرس فيه أن يحدث منه أمر، فكـان يقـول للناس: يا ما تـرون من محمـد من الشـر، فقـدّر اللـه أن صـار مـا صار، وكذلك ابنه سـليمان أخـو الشـيخ محمـد كـان منافيًـا لـه في دعوته ورد عليـه ردًا جيـدا بالآيـات والآثـار لكـون المـردود عليـه لا يقبل سواهما ولا يلتفت إلى كلام عالم متقدمًا أو متأخرا كائنــا من كان غير الشيخ تقي الدين بن تيمية وتلميـذه ابن القيم فإنـه يـرى كلامهمـا نصّـا لا يقبـل التأويـل ويصـول بـه على النـاس وإن كـان كلامهما على غير ما يفهم، وسمى الشيخ سـليمان رده على أخيـه

[فصل الخطاب في الرد على محمّد بن عبد الوهاب] وسلّمه اللـه من شرّه ومكره مع تلك الصولة الهائلة التي أرعبت الأباعـد، فإنـه كان إذا باينه أحد ورد عليه ولم يقدر على قتله مجاهرة يرسل إليه من يغتاله في فراشه أو في السوق ليلا لقولـه بتكفـير من خالفـه واسـتحلاله قتلـه، وقيـل إن مجنونًـا كـان في بلـدة ومن عادتـه أن يضـرب من واجهـه ولـو بالسـلاح، فـأمر محمـدٌ أن يعطى سـيفًا ويدخل على أخيه الشيخ سليمان وهو في المسجد وحـده، فأدخـل عليه فلما رءاه الشيخ سليمان خاف منه فرمى المجنـون السـيف من يده وصار يقول: يا سليمان لا تخف إنـك من الآمـنين ويكررهـا مرارا، ولا شك أن هذه من الكرامات)[1]

ولذلك فإن المنهج الذي يواجه به هـذا التيـار هـو ذكـر أقـوال المحققين من العلماء من المذاهب الأربعة أو غيرها من المذاهب، والتي لها قيمة ووجود فاعل في المدارس والجامعـات الإسـلامية، والتي تعتبر كتبها مصادر للشريعة.

وقبل أن نـذكر بعض تصـريحات كبـار فقهـاء هـذه المـذاهب، نحب أن ننبـه إلى أن من عـادة التيـار التكفـيري أن يـأتي بـأقوال أخرى مناقضة لما يذكره مخالفوه، ونحن لا ننكر تلـك الأقـوال، ولا ندعو إلى إنكارها، أو التقليـل من شـأن أصـحابها، وإنمـا نـذكر لـه مقابل ما يطرحه من تصريحات وأقوال تصريحات وأقـوال أخـرى، وهو حينها بين أن يقبل بها؛ فيرجع عن رأيـه، أو يقـر بوجـود خلاف في المســألة، والقاعــدة في الخلاف الفقهي عــدم الإنكــار على المخالف، حتى لو لم يُستسغ دليله، لأن لكل فقيه حججه ومنهجــه في الاستدلال.

وقد عبر عن هذه القاعدة كبار الفقهاء من المدرسة السـنية، حتى أولئك الذين يعتبرهم السلفيون سـلفا صـالحا لهم؛ فقـد قـال يحيى بن سعيد الأنصـاري وهـو من كبـار التـابعين المعتـبرين عنـد التيار السلفي: (ما برح المستفتون يُستفتَوْن، فيُحـل هـذا، ويُحـرِّم هذا، فلا يرى المحرِّم أنَّ المحلِّل هلك لتحليله، ولا يرى المحلِّل أن المحرِّم هلك لتحريمه)[2]

---

[1] () السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (2/ 677)

ومثله قال سفيان الثوري، وهو من الذين يعتبرهم التيار السلفي من أئمته الكبار: (إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختُلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه)(1)

ومثله قال عطاء، وهو من أعيان المدرسة السلفية الأولى: (لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حتى يكون عالما باختلاف الناس، وإن لم يكن كذلك ردّ من العلم ما هو أوثق من الذي هو في يده)(2)،

ومثله قال الموفق ابن قدامة المقدسي في المرجع الذي يعتمده التيار السلفي عند ذكره للأخلاق والآداب [الآداب الشرعية]: (لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه؛فإنه لا إنكار على المجتهدات)(3)

وهكذا قال الغزالي، وهو من كبار أئمة الشافعية، بل له حضور في كل المذاهب الفقهية: (فكل ما هو محل الاجتهاد فلا حسبة فيه فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد)(4)

وقال أبو إسحاق الشيرازي، وهو من كبار أصوليي وفقهاء الشافعية: (الصحابة رضوان الله عليهم أجمعت على تسويغ الحكم بكل واحد من الأقاويل المختلف فيها، وإقرار المخالفين

2() جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م، (2/903)

1() الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الثانية، 1421هـ، (2/69)

2() انظر: جامع بيان العلم وفضله، (2/ 46)

3() الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي، عالم الكتب، (1/186)

4() إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة – بيروت، (2/ 325)

على ما ذهبوا إليه من الأقاويل)[1]

وقال النووي، وهو من الشافعية الـذين يسـتدل بهم السـلفية كثيرا، خصوصا من شرحه على صـحيح مسـلم، والـذي قـال فيـه: (العلماء إنما ينكرون مـا أجمـع عليـه الأمـة،أمـا المختلـف فيـه فلا إنكار فيه، لأنه على أحد المـذهبين:كـل مجتهـد مصـيب، وهـذا هـو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم، وعلى المـذهب الآخـر: المصيب واحد، والمخطئ غير متعين لنا، والإثم مرفوع عنه، ولكن إن ندبه على جهـة النصـيحة إلى الخـروج من الخلاف فهـو حسـن محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإن العلمـاء متفقـون على الحث على الخـروج من الخلاف، إذا لم يلـزم منـه إخلال بسـنة أو وقـوع في خلاف آخر)[2]

وقال العز بن عبد السلام وهو الشافعي الذي جمع بين الفقه والأصـول والمقاصـد: (الإنكـار مُتَعَلِّقٌ بمـا أُجْمِـعَ على إيجابـه أو تحريمه، فمن ترك ما اختلـف في وجوبـه، أو فعـل مـا اختُلِـف في تحريمـه؛ فـإن قلَّد بعض العلمـاء في ذلـك فلا إنكـار عليـه، إلا أن يقلده في مسألة ينقض الحكم في مثلها، فإن كان جـاهلا لم يُنكـر عليه، ولا بأس بإرشاده إلى الأصـلح، وإنمـا لم ينكـر عليـه لأنـه لم يرتكب محرما، فإنه لا يلزمه تقليد من قال بالتحريم ولا بالإيجـاب) [3]

وهذا هو قول جميع الصوفية، والذين تشكل طـرقهم النسـبة الأكبر في العالم الإسلامي، وفي فـترات كثـيرة من التـاريخ، فقـد قال على لسانهم الشيخ ابن عليوة مخاطبا مخالفه الذي اعتبر مـا يفعله من ممارسات صوفية ـ كالأوراد والخلوة وغيرهـا ــ نهيـا عن المنكر: (وكـلّ ذلـك أصـابك ولعلّـه من عـدم الفقـه في دين اللـه، ولهذا اشترط ﷺ في حق الآمر بالمعروف والناهي عن المنكــر أن

---

[1] () اللمع في أصول الفقه، أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية 2003 م - 1424 هـ، (ص:360)

[2] () المنهاج شرح صحيح مسـلم بن الحجـاج، أبـو زكريـا محـيي الـدين يحـيى بن شـرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392، (2/23)

[3] () شجرة الأحوال والمعارف، العز بن عبد السلام، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق، (ص:379).

يكون فقيها فيما يأمر به، فقيهـا فيمـا ينهى عنـه، لئلا يـأمر بمنكـر وينهى عن معروف، ومن أجل ذلك تورّع أكابر العلمـاء عن القـول في دين الله بغير نصّ صريح، أو ما هو كالصـريح.. فـإنّ من الحـق عليك أن تنكر ما علمت إنكـاره من الـدين بالضـرورة، وتـأمر بمـا تحققت معروفيته من الدين بالضرورة، وتحسن الظنّ فيمـا تفـرّع عن اجتهاد المجتهـدين من أئمـة الـدين من الصـوفيّة وغـيرهم، أو ليس في علمك قد يوجد من المشتبه مـا ثبت حرمتـه في مـذهب وإباحته في آخر، أو ندبه في مذهب، وكراهيته في الآخر؟)[1]

وغيرهـا من الأقـوال الكثـيرة الـتي نجـدها في كتب الفقـه والأصول والحسبة، والتي لم يجـادل فيهـا إلا التيـار السـلفي تعنتـا وتكبرا، لتصوره أنه صاحب الحق المجرد.

ولهـذا نـرى العلمـاء الـذين يـردون على التيـار السـلفي في موقفـه من المـزارات الدينيـة، يعتمـدون هـذا المنهج؛ فيـذكرون الخلاف الوارد في المسألة، ويسردون أقوال الفقهاء وتصـريحاتهم التي تدل على وقوع الخلاف، والذي يسـوغ لكـل مـؤمن مقلـد أن يتبع ما يشاء منها، لعدم قدرته على الاجتهاد.

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده العلامة الحافظ المغـربي أبـو الفيض أحمـد بن الصـديق الغمـاري الحسـني في رسـالته الـتي خصصها لهذا، وعنوانها (إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المسـاجد والقباب على القبور)، والذي أورد فيها كغيره من فقهـاء ومحـدثي الصوفية الخلاف الفقهي في هـذه المسـألة بشـقيه المجـيز وغـير المجيز، ليذكروا للمخالف أن الأمـر متسـع للجميـع، وأن الأمـة لم تختلـف في هـذه المسـألة إلا لكـون النصـوص الـواردة فيهـا غـير قطعية، أو معارضة بغيرها.

وليقول لهم كذلك: لا حرج عليكم أن لا تبنوا أو أن لا تـزوروا، ولكن كل الحرج عليكم أن تنكروا على من خالفكم لأن من أصول النهي عن المنكر أن يكون من المتفق عليه لا المختلف فيه.

بنـاء على هـذا سـنحاول هنـا ذكـر بعض تصـريحات الفقهـاء

---

[1] () أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، ابن عليوة، مطبعة ابن عليـوة، مسـتغانم، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص202.

ومواقفهم من الأضرحة، وما يرتبط بها من التوسل والاستغاثة، وقد اقتصرنا على المدارس السنية، لشهرة القول عن الشيعة، بل إجماعهم عليه، ولكونهم ليسوا معتبرين لدى أصحاب الرؤية التكفيرية.

أولا ـ موقف المدرسة الحنفية من المزارات الدينية:

تعتبر المدرسة الحنفية من أقدم المدارس الفقهية، وهي مثل غيرها من المدارس، تعتمد كتب المتأخرين سواء كانت متونا أو شروحا أو حواشي في تدريسها لهذا المذهب، وهي كلها تنص على مشروعية بناء المزارات الدينية وزيارتها، وعلى مشروعية التوسل والاستغاثة، وتختلف مع أصحاب الرؤية التكفيرية في ذلك كله اختلافا شديدا.

وسنذكر هنا نماذج عن كلا الأمرين، لتكون برهانا للتكفيريين للذين يتصورون أن كل الأمة معهم، مع أنهم شواذ عنها، وأحكامهم التكفيرية تجري عليها جميعا.

1 ـ موقف المدرسة الحنفية من زيارة الأضرحة:

من خلال العودة لكل المصادر التي يعتمدها الحنفية في تدريسهم أو فتاواهم، نجد إجماعهم على مشروعية زيارة الأضرحة، وأنها من المستحبات، والأعمال الصالحة.

ومن الأمثلة عن ذلك ما كتبه العلامة كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام (المتوفى: 861هـ) في كتابه الذي يعتبر من المراجع الكبرى في الفقه الحنفي، وهو [فتح القدير للعاجز الفقير]، وهو شرح على كتاب [الهداية في شرح البداية][1] للمرغيناني الحنفي (511 – 593 هـ)

وقد ورد في هذا المرجع الذي لا يزال يدرس إلى الآن في

[1] () كلاهما في الفقه الحنفي، ولهداية المرغيناني شروح كثيرة أخرى، لكن من أحسن هذه الشروح وأوسعها وأنفعها هو كتاب فتح القدير هذا إلا أن ابن الهمام توفي قبل أن يتمه حيث وصل إلى باب الوكالة فأتمة شمس الدين أحمد (قاضي زاده الرومي) أفندي قاضي عسكر روملي الحنفي (988) في كتابه (نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار).

المـدارس الحنفيـة عنـد حديثـه عن زيـارة قـبر النـبي ﷺ: (قـال مشايخنا رحمهم الله تعالى: من أفضـل المنـدوبات، وفي مناسـك الفارسي وشرح المختار: أنهـا قريبـة من الوجـوب لمن لـه سـعة، هذا والحج إن كان فرضا فالأحسـن أن يبـدأ بـه ثم يثـني بالزيـارة، وإن كان تطوعا كان بالخيار، فإذا نوى زيارة القبر فلينو معه زيارة المسجد.. والأولى فيما يقع عند العبد الضعيف تجريد النيـة لزيـارة قبر النبي ﷺ ثم إذا حصل لـه إذا قـدم زيـارة المسـجد أو يسـتفتح فضل الله سبحانه في مرة وأخرى ينويهما فيها لأن في ذلك زيادة تعظيمه ﷺ وإجلاله ويوافق ظاهر ما ذكرناه من قوله عليه الصـلاة السلام: لا تعمله حاجة إلا زيارتي)(1)

وهكـذا ورد في حاشـية الطحطـاوي على [مـراقي الفلاح]، والذي هو شرح لمتن [نور الإيضاح]، وهو من المتون المعتمدة في المذهب الحنفي، الذي وضعه الشـيخ حسـن الشـرنبلالي (994 - 1069 هـ)، والذي لقي قبولا كبيرا بين فقهـاء الحنفيـة، لأنـه يـذكر في الغـالب ظـاهر الروايـة عنـد الحنفيـة، وقـد وقـد شـرحه في [مراقي الفلاح]، وقام أحمـد بن محمـد بن إسـماعيل الطحطـاوي الحنفي (تـوفي 1231 هــ) بوضـع حاشـية عليـه، وقـد قـال فيهـا: (زيارة النبي ﷺ قالوا: إن كان الحج فرضـا قدمـه عليـه، وإلا تخـير والأولى في الزيارة تجريد النية لزيارة قبره ﷺ وقيل: ينـوي زيـارة المسـجد أيضـا نهـر، لأنـه من المسـاجد الثلاث الـتي تشـد إليهـا الرحال)(2)

وهكذا ورد في [حاشية رد المحتـار على الـدر المختـار شـرح تنوير الأبصار]، أو مـا يطلـق عليـه اختصـارا [حاشـية ابن عابـدين] لصاحبها محمـد أمين بن عمـر بن عبـد العزيـز عابـدين الدمشـقي الحنفي (المتوفى: 1252هـ)، وهي من أهم مراجع الفقـه الحنفي، وقد قال عند ذكر زيارة شهداء أحد: (استفيد منه ندب الزيارة وإن بعد محلها، وهل تندب الرحلة لها كما اعتيد من الرحلـة إلى زيـارة

1() فتح القدير، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمـام، دار الفكر، 3/ 179.

2() حاشـية الطحطـاوي على مـراقي الفلاح شـرح نـور الإيضـاح، أحمـد بن محمـد بن إسـماعيل الطحطـاوي الحنفي، المحقـق: محمـد عبـد العزيـز الخالـدي، دار الكتب العلميـة بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م، (ص: 745)

خليل الرحمن وأهله وأولاده وزيارة السيد البدوي وغيره من الأكابر الكرام لم أر من صرح به من أئمتنا، ومنع منه بعض أئمة الشافعية إلا لزيارته قياسا على منع الرحلة لغير المساجد الثلاث ورده الغزالي)(1)

ولهذا نجد كل علماء الحنفية تصدوا لدعوة ابن تيمية في تبديع زيارة رسول الله ﷺ، واعتبروه مبتدعا بذلك، ومنهم الشيخ محمد بن محمد العلاء البخاري الحنفي (779هـ - 841هـ)، الذي ورد في ترجمته أنه (كان يُسأل عن مقالات ابن تيمية التي انفرد بها فيجيب بما ظهر له من الخطأ، وينفر عنه قلبه إلى أن استحكم ذلك عليه فصرّح بتبديعه ثم تكفيره، ثم صار يُصرح في مجلسه أن من أطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام فهو بهذا الإطلاق كافر واشتهر ذلك..) (2)

ومنهم الشيخ أبو الحسنات محمد عبدالحي اللكنوي الحنفي (1264 -ـ 1304 هـ) الذي قال في كتابه (إبراز الغي الواقع): (أقول: مسألة زيارة خير الأنام ﷺ كلام ابن تيمية فيها من أفاحش الكلام، فإنه يحرم السفر لزيارة قبر الرسول ﷺ ويجعله معصية ويحرم نفس زيارة القبر النبوي أيضاً، ويجعلها غير مقدورة وغير مشروعة وممتنعة، ويحكم على الأحاديث الواردة في الترغيب إليها كلها موضوعة من حسن بعضها، أو لعلمي أن علم ابن تيمية أكثر من عقله، ونظره أكبر من فهمه، وقد شدّدّ عليه بسبب كلامه في هذه المسألة علماء عصره بالنكير، وأوجبوا عليه التعزير..) (3)

ومنهم مفتي الديار المصرية وشيخ حنفية عصره الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي (1271 هـ - 1354 هـ)، الذي قال في كتابه (تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد): (ولما أن تظاهر قوم

1() رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، دار الفكر-بيروت، الطبعة: الثانية، 1412هـ - 1992م، 2/ 242.

2() البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، ط الأولى، بيروت، 1418 هـ، ج2، ص 137. والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبدالرحمن السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، مصر، ج9 ص 292.

3() سعادة الدارين في الرد على الفرقتين: إبراهيم بن عثمان السمنودي، مكتبة الإمام مالك، موريتانيا، ط الأولى، 1426 هـ، ج1 ص 173.

في هـذا العصـر بتقليـد ابن تيميـة في عقائـده الكاسـدة وتعضـيد أقواله الفاسدة وبثهـا بين العامـة والخاصـة، واسـتعانوا على ذلـك بطبع كتابه المسمى بالواسطية ونشره، وقد اشـتمل هـذا الكتـاب على كثير مما ابتدعه ابن تيميـة مخالفـاً في ذلـك الكتـاب والسـنة وجماعة المسلمين فأيقظوا فتنة كانت نائمة)[1]

2 ـ موقف المدرسة الحنفية من التوسل والاستغاثة:

هـذا مـا ورد بخصـوص الزيـارة، وهي عـادة تتضـمن التوسـل والاستغاثة، أما ما ورد عنهم حول التوسـل، فكـل كتبهم مشـحونة به، وسـنذكر هنـا أمثلـة من أمهـات كتب الحنفيـة، وكيـف يتوسـل أصحابها برسول الله ﷺ.

1. أبــو بكــر محمــد بن أبي إســحاق بن إبــراهيم بن يعقــوب الكلاباذي البخاري الحنفي (المتوفى: 380هـ) الذي قال في كتابــه [التعرف لمذهب أهل التصوف]: (وباللـه أسـتعين، وعليـه أتوكـل، وعلى نبيـه أصـلي وبـه أتوسـل ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه العلي العظيم) [2]

2. عمر بن أحمد بن هبة اللـه بن أبي جـرادة العقيلي، كمـال الدين ابن العديم (المتوفى: 660هــ)، الـذي قـال في بعض كتبـه: (ببركة سيد المرسلين وأهل بيته) [3]

3. مجد الدين الموصلي الحنفي (المتوفى: 683 هـ) صــاحب [الاختيار فيمـا يقـال عنـد زيـارة النـبي ﷺ]، والـذي أورد فيـه هـذا الـدعاء: (جئنـاك من بلاد شاسـعة والاستشـفاع بـك إلى ربنـا.. ثم يقـول: مستشـفعين بنبيـك إليـك) ومثلـه في حاشـية الطحطـاوي (المتوفى: 1231هـ) على الدر المختار.

4. عثمان بن علي بن محجن البـارعي، فخـر الـدين الـزيلعي

---

[1] () تطهـير الفـؤاد من دنس الاعتقـاد، محمـد بخيت المطيعي، ط تركيـا، 1397هــ، ص 13.

[2] () التعرف لمذهب أهل التصوف (1/21)

[3] () بغية الطلب في تاريخ حلب (7/3242)

الحنفي (المتوفى: 743 هـ)، والذي قال في [تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق]: (هذا ما ظهر لكاتبه بلغه الله مقاصده بمحمد وآله) (1)

5. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، والذي قال في أوائل حاشية على (المطالع) عند بيان الشارح وجه الصلاة على النبي ﷺ في أوائل الكتب، ووجه الحاجة إلى التوسل بهم في الاستفاضة: (فإن قيل هذا التوسل إنما يتصور إذا كانوا متعلقين بالأبدان، وأما إذا تجردوا عنها فلا، إذ لا وجهة مقتضية للمناسبة. قلنا يكفيه أنهم كانوا متعلقين بها متوجهين إلى تكميل النفوس الناقصة بهمة عالية، فإن أثر ذلك باق فيهم، وكذلك كانت زيارة مراقدهم معدة لفيضان أنوار كثيرة منهم على الزائرين كما يشاهده، أصحاب البصائر)(2)

6. أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: 855هـ) الذي قال في [عمدة القاري شرح صحيح البخاري]: (فها نحن نشرع في المقصود بعون الملك المعبود ونسأله الإعانة على الاختتام متوسلا بالنبي خير الأنام وآله وصحبه الكرام)(3)

وقال: (فيه التبرك بمصلى الصالحين ومساجد الفاضلين وفيه أن من دعا من الصلحاء إلى شيء يتبرك به منه فله أن يجيب إليه إذا أمن العجب وفيه الوفاء بالعهد وفيه صلاة النافلة في جماعة بالنهار وفيه إكرام العلماء إذا دعوا إلى شيء بالطعام وشبهه)(4)

7. كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام (المتوفى: 861هـ) الذي قال في [فتح القدير]، كتاب الحج، باب زيارة النبي ﷺ: (ويسأل الله حاجته متوسلا إلى الله

1() تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (15/60)

2() الحاشية على مطالع الأنوار، ص7.

3() عمدة القاري شرح صحيح البخاري (1/11).

4() المرجع السابق، (4/170)

بحضرة نبيه)، ثم قال: (يسأل النبي ﷺ الشفاعة فيقول: يا رسول الله أسألك الشفاعة يا رسول الله أتوسل بك إلى الله)(1)

8. يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: 874هـ) الذي قال: (نسأل الله تعالى حسن الخاتمة بمحمد وآله)(2) وقال في [حوادث الدهور]: (فالله تعالى يحسن العاقبة بمحمد وآله)(3)

9. محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: 942هـ) الذي جمع أبواب التوسل بالنبي ﷺ في كتابه [سبل الهدى والرشاد في سير خير العباد] ومن أقواله: (اللهم إنا نسألك، ونتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ أن تحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأن تجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة)(4)

10. علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: 1014هـ) الذي قال في [شرح الشمائل]: (فليس لنا شفيع غيرك نؤمله، ولا رجاء غير بابك نصله،فاستغفر لنا واشفع لنا إلى ربك يا شفيع المذنبين، واسأله أن يجعلنا من عباده الصالحين. قال نور الدين ملا علي القاري في شرح المشكاة ما نصه: (قال شيخ مشايخنا علامة العلماء المتبحرين شمس الدين بن الجزري في مقدمة شرحه للمصابيح: إني زرت قبره بنيسابور (يعني مسلم بن الحجاج القشيري) وقرأت بعض صحيح علي سبيل التيمن والتبرك عند قبره ورأيت آثار البركة ورجاء الإجابة في تربته)

وقال في [المسلك المتقسط في المنسك المتوسط]: ([أجمعوا على أنّ أفضل البلاد مكّة والمدينة زادهما الله شرفًا وتعظيمًا، ثم اختلفوا بينهما أي في الفضل بينهما، فقيل: مكة أفضل من المدينة، وهو مذهب الأئمة الثلاثة وهو المرويُّ عن

1() فتح القدير، ج2، ص332.

2() النجوم الزاهرة (3/220).

3() حوادث الدهور ص 37.

4() سبل الهدى والرشاد: (12/408)

بعض الصحابة، وقيل: المدينة أفضل من مكة، وهو قول بعض المالكية ومن تبعهم من الشافعية، وقيل بالتسوية بينهما.. والخلاف أي الاختلاف المذكور محصورٌ فيما عدا موضع القبر المقدس، قال الجمهور: فما ضمّ أعضاءه الشريفة فهو أفضل بقاع الأرض بالإجماع حتى من الكعبة ومن العرش)[1]

11 عبد الرحمن وجيه الدين بن عيسى بن مرشد العمري نسباً الحنفي مذهباً (متوفى في منتصف القرن الحادي عشر) قال في خطاب له: (فالله تعالى يبقيك محروساً بجناب مأنوس القباب. متلفعاً من الجلالة بأشرف جلباب. مستقراً على كراسي الملك. وأعداؤك في الهلك. بجاه جدك عليه السلام. وآله البررة الكرام. وصحبه الخيرة الأعلام)[2]

12. حسن بن عمار بن علي الشرنبلالي المصري الحنفي (المتوفى: 1069هـ) الذي قال في [مراقي الفلاح في آداب الزيارة]: (يقف عند رأسه الشريف ويقول: اللهم انك قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]، وقد جئناك سامعين قولك، طائعين أمرك، مستشفعين بنبيك، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا انك رؤوف رحيم، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، سبحان ربنا رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد للّه رب العالمين. ويدعو بما يحضره من الدعاء)

13. محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، قال في خاتمة [تاج العروس] داعياً: (ولا يكلنا إلى أنفسنا فيما نعمله وننويه بمحمد وآله الكرام البررة)، وذكر في كتابه [إتحاف المتقين بشرح

---

[1] المسلك المتقسط في المنسك المتوسط ص351 - ص352.

[2] سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر لابن معصوم الحسني ص 41.

إحياء علوم الدين] صفوان بن سليم عند أحمد بن حنبل فقال: (هذا رجل يستسقى بحديثه وينزل القطر من السماء بذكره)([1])

وروى عن الشعبي قوله: (حضرت عائشة فقالت: إني قد أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثا ولا أدري ما حالي عنده فلا تدفنوني معه، فاني أكره أن أجاور رسول الله ﷺ ولا أدري ما حالي عنده، ثم دعت بخرقة من قميص رسول الله ﷺ فقالت: ضعوا هذه على صدري وادفنوها معي لعلي أنجو بها من عذاب القبر)([2])

14. محمد بن محمد بن مصطفى بن عثمان، أبو سعيد الخادمى الحنفي (المتوفى: 1156هـ)، قال في كتابه [بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية]: (ويجوز التوسل إلى الله تعالى والاستغاثة بالأنبياء والصالحين بعد موتهم، لأن المعجزة والكرامة لا تنقطع بموتهم، وعن الرملي أيضا بعدم انقطاع الكرامة بالموت، وعن إمام الحرمين: ولا ينكر الكرامة ولو بعد الموت إلا رافضي، وعن الأجهوري: الولي في الدنيا كالسيف في غمده، فإذا مات تجرد منه فيكون أقوى في التصرف) ([3])

15. إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى: 1127هـ)، الذي قال في عدة مواضع من تفسيره روح البيان: (بجاه النبي الأمين)([4])

16. محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني، أبو الفضل (المتوفى: 1206هـ) الذي قال:(فنتوجه اللهم إليك به ﷺ إذ هو الوسيلة العظمى)([5])، وقال في ترجمة أحمد بن ناصر الدين بن علي الحنفي البقاعي (المتوفى: 1171هـ): (هذا وعمره

1() إتحاف المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج 10 ص 130.

2() شرح الاحياء (10/ 333).

3() بريقة محمودية (1/204)

4() انظر مثلا: روح البيان (1/176)

5() سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (1/2)

مع السلام يطول بجاه جده النبي الرسول ﷺ آمين) (1) وغيرها من المواضع.

17. أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي (توفي 1231 هـ) الذي قال: (فيتوسل إليه بصاحبيه، ذكر بعض العارفين أن الأدب في التوسل أن يتوسل بالصاحبين إلى الرسول الأكرم ﷺ، ثم به إلى حضرة الحق جل جلاله، وتعاظمت أسماؤه فإن مراعاة لواسطة عليها مدار قضاء الحاجات) (2)

18. عبد الرحمن بن حسن الجبرتي المؤرخ (المتوفى: 1237هـ) الذي قال: (ويتوسل إليه في ذلك بمحمد ﷺ)(3)

19. ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: 1252هـ) الذي قال في حاشيته على الدر المختار داعيا: (دام في عز وإنعام، ومجد واحترام، بجاه من هو للانبياء ختام، وآله وصحبه السادة الكرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام، في البدء والختام)(4)، وقال في [تنقيح الفتاوى الحامدية] في ذكر حال بعض الجراد الذي غزا البلاد: (وادفع شرها عن أرزاق المسلمين بجاه النبي الأمين وآله وصحبه أجمعين) (5)

وقال: (يقول أسير الذنوب جامع هذه الاوراق راجيا من مولاه الكريم، متوسلا بنبيه العظيم وبكل ذي جاه عنده تعالى أن يمن عليه كرما وفضلا بقبول هذا السعي والنفع له للعباد، في عامة البلاد، وبلوغ المرام، بحسن الختام، والاختتام، آمين) (6)

وقال: (وإني أسأله تعالى متوسلا إليه بنبيه المكرم ﷺ وبأهل طاعته من كل ذي مقام علي معظم، وبقدوتنا الامام الاعظم، أن

1() سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (1/2)

2() حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص 360

3() عجائب الآثار (1/344)

4() حاشيته على الدر المختار (4/294)

5() تنقيح الفتاوى الحامدية لابن عابدين (7/417)

6() حاشية رد المحتار على الدر المختار 1/84

يسهل علي ذلك من إنعامه، ويعينني على إكماله وإتمامه، وأن يعفو عن زللي، ويتقبل مني عملي، ويجعل ذلك خالصا لوجهه الكريم، موجبا للفوز لديه في جنات النعيم)(1)

20. محمد عابد السندي الحنفي (ت 1257 هـ) المحدث، له رسالة فى الرد على ابن تيمية فى التوسل.

21. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ) الذي قال: (بحرمة سيد الثقلين)(2)، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89]: (نزلت في بني قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ــ قاله ابن عباس وقتادة ـ والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم به على المشركين، كما روى السدي أنهم كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي ﷺ، وقالوا: اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، كنى عن الكتاب المتقدم بما عرفوا، لأن معرفة من أنزل عليه معرفة له ووجه الدلالة من هذه الآية ظاهر فإن الله سبحانه أقر استفتاح اليهود بالرسول، ولم ينكره عليهم وإنما ذمهم على الكفر والجحود بعد إذ شاهدوا بركة الاستفتاح بالنبي ﷺ)(3)

وقال: (وبعد هذا كله أنا لا أرى بأسا في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي ﷺ حيا وميتا، ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى، مثل أن يراد به المحبة العامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته، فيكون معنى قول القائل أتوسل إليك بجاه نبيك ﷺ أن تقضي لي حاجتي يعني إلهي اجعل محبتك له

1() قره عين الأخيار لتكملة رد المحتار علي الدر المختار (7/ 416)

2() روح المعاني (1/82)

3() تفسير الألوسي = روح المعاني (1/ 319)

وسيلة في قضاء حاجتي) [1]

22. أحمد عارف حكمت بك بن السيد إبراهيم عصمت بك بن إسماعيل رائف باشا الحسيني الحنفي (المتوفى: 1275هـ) الذي قال في تقريظ له: (فأيد اللهم هذا السلطان الرحيم الحليم الأفخم، والملك الكريم السليم الأكرم، بالفتح المبين، والنصر على الأعداء والمشركين، بجاه سيد المرسلين، وخاتم النبيين) [2]

23. مؤلفو كتاب [الفتاوى الهندية]، وهم جماعة من علماء الهند برئاسة الشيخ نظام الدين البلخي بأمر من سلطان الهند أبي المظفر محيى الدين محمد أورنك زيب في كتاب المناسك، قالوا: (خاتمة في زيارة قبر النبي ﷺ، بعد أن ذكر كيفية وآداب زيارة قبر الرسول ﷺ، ذكر الأدعية التي يقولها الزائر فقال: (ثم يقف (أي الزائر) عند رأسه ﷺ كالأول ويقول: اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 64]، وقد جئناك سامعين قولك طائعين أمرك،مستشفعين بنبيك إليك) [3]

24. خليل أحمد سهارنبوري (المتوفي 1349 هـ)، وهو من كبار علماء أحناف ديوبند بالهند، قال في جواب هذا السؤال: هل للرجل أن يتوسل في دعوته بالنبي والصالحين والصديقين والشهداء والأولياء؟: (عندنا وعند مشايخنا يجوز التوسل بهم في حياتهم وبعد وفاتهم بأن يقول: (اللهم إني أتوسل إليك بفلان أن تجيب دعوتي وتقضي حاجتي)، كما صرح به الشاه محمد إسحاق الدهلوي والمهاجر المكي ورشيد أحمد الكنكومي وأيد ووافق على هذا الكتاب حوالي 75 نفرا من علماء الأحناف الكبار في باكستان) [4]

1() تفسير الألوسي = روح المعاني (3/ 297)

2() انظر حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار (1/73)

3() كتاب الفتاوى الهندية (ج1/266)

4() المهند على المفند(ص 86-87)

25. محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي (1271 هـ - 1354 هـ) كتب مقدمة لطيفة قدم بها لكتاب [شفاء السقام فى زيارة خير الأنام] للسبكى، تكلم فيها عن التوسل ومشروعيته، وقد سماها: [تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد]

26. محمد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري (1296 ـ 1371 هـ)، الذي قال: (إني أرى أن أتحدث هنا عن مسألة التوسل التي هي وسيلة دعاتهم إلى رميهم الأمة المحمدية بالإشراك , وكنت لا أحب طرق هذا البحث لكثرة ما أثاروا حوله من جدل عقيم مع ظهور الحجة واستبانة المحجة , وليس قصد أول من أثار هذه الفتنة سوى استباحة أموال المسلمين ليؤسس حكمه بأموالهم على دمائهم باسم أنهم مشركون , وأنا يكون للحشوية صدق الدعوة إلى التوحيد؟!. وهم في إنكارهم التوسل محجوجون بالكتاب والسنة والعمل المتوارث والمعقول)[1]

27. أبو الحسنات محمد عبد الحي بن الحافظ محمد عبد الحليم اللكنوى الانصاري الايوبي الحنفي (المتوفى 1304 هـ) الذي توسل قائلا: (متوسلا بنبيه) [2]

ثانيا ـ موقف المدرسة المالكية من المزارات الدينية:

تتفق أشهر المتون والشروح والحواشي المعتمدة في الفتوى والتدريس في المذهب المالكي على مشروعية المزارات الدينية وزيارتها، كما تتفق على مشروعية التوسل والاستغاثة، وسنذكر نماذج عن كلا الأمرين هنا:

1 ـ موقف المدرسة المالكية من زيارة الأضرحة:

أول المواقف التي نصادفها في المصادر المالكية، والمرتبطة بزيارة الأضرحة والتوسل والاستغاثة بأصحابها، موقف الإمام مالك صاحب المذهب نفسه، فقد روي أن المنصور العباسي سأله الإمام مالك: (أستقبل القبلة وأدعوا، أم استقبل رسول الله ﷺ؟،

1() مقالات الكوثري (صـ 409)

2() الرفع والتكميل في الجرح والتعديل (ص: ٢٧)

فقال مالك: (ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه‌السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفّعه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[النساء: 64])(1)

وقد نص كبار أعلام المالكية على أن القصة صحيحة(2)، وأن الإمام مالك يري الخير في استقبال النبي ﷺ في الدعاء والاستشفاع به، كما أن القصة تشير إلى حديث توسل سيدنا آدم عليه السلام.

ويدل لهذا أيضا ما ذكرناه في الفصل الأول من ذلك التعظيم الذي كان يبديه الإمام مالك للمدينة المنورة، تعظيما (للجناب النبوي، وهو الذي كان لا يمشي في المدينة المنورة متنعلاً ولا راكباً، ولا يقضي فيها حاجته احتراماً وتعظيماً وتكريماً لتراب المدينة الذي مشى عليه رسول الله ﷺ، وها هو يخاطب أمير المؤمنين المهدي لما جاء إلى المدينة في هذا الموضوع ويقول له: إنك تدخل الآن المدينة فتمر بقوم عن يمينك ويسارك وهم أولاد المهاجرين والأنصار فسلم عليهم فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة، ولا خير من المدينة. فقال له: ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: لأنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ، ومن قبر محمد عندهم فينبغي أن يعلم فضلهم)(3)

1() شفاء السقام / السبكي: 69 - 70..

2() أخرج هذه القصة رواها أبو الحسن على بن فهر في كتابه فضائل مالك رواها القاضي عياض في الشفا (2:41) بسنده الصحيح عن شيوخ عده من ثقات مشايخه وقال الخفاجي في شرحه (3:398) (ولله دره حيث أوردها بسند صحيح وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه) وذكرها القسطلاني في المواهب (4:580) وقال الزرقاني شارح المواهب في شرحه (8:304) بعد ذكر من أنكرها فقال وهذا تهور عجيب فإن الحكاية رواها أبو الحسن على بن فهر في كتابه فضائل مالك بإسناد حسن، وأخرجها القاضي عياض في الشفاء من طريقه عن عده من ثقات مشائخه، فمن أين أنها كذب؟ وليس في لسنادها وضاع ولا كذاب ونقلها السمهودي في وفاء الوفا ج 2 ص 422 عن القاضي عياض وقال ابن حجر في الجوهر المنظم قد روي هذا بسند صحيح المدخل 1 / 248، 252 والفواكه الدواني 2 / 466 وشرح أبي الحسن على رسالة القيرواني 2 / 478 نقلها الامام السبكي في شفاء السقام، ص154. والقوانين الفقهية 148..

3() مفاهيم يجب أن تصحح، ص 206، والرواية نقلها عن المدارك للقاضي عياض.

وهم يروون من شدة تعظيمه للمدينة أنه كره أن يقال: (زرنا قبر النبي ﷺ، وكأنه أراد أن يقول القائل زرنا النبي ﷺ مباشرة دون لفظ القبر، لأن القبر مهجور بدليل قوله ﷺ: (صلوا في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً)، قال الحافظ ابن حجر: (إنه إنما كره اللفظ أدباً لا أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال، وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع)[1]

وقال ابن عبد البر: (إنما كره مالك أن يقال: طواف الزيارة وزرنا قبر النبي ﷺ لاستعمال الناس ذلك بعضهم لبعض، أي فيما بينهم فكره تسوية النبي ﷺ مع الناس أي عمومهم بهذا اللفظ، وأحب أن يخص بأن يقال: سلمنا على النبي ﷺ)[2]

وعلق الشيخ محمد علوي المالكي على هذا بقوله: (فإن الزيارة مباحة بين الناس وواجب شد المطي إلى قبره ﷺ يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد لا وجوب فرض، والأولى عندي أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ وأنه لو قال: زرنا النبي ﷺ لم يكرهه لقوله ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد بعدي، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبيه بفعل أولئك قطعاً للذريعة وحسماً للباب، ولو كان المقصود كراهية الزيارة لقال مالك: أكره للرجل أن يزور قبر النبي ﷺ، لكن ظاهر قوله: (أكره للرجل أن يقول الخ..) على أن المقصود هو كراهة التعبير بهذا اللفظ فقط) [3]

هذا موقف إمام المذهب، أما مواقف غيره من أتباع مذهبه، فكثيرة جدا، ومنها ما ورد في أشهر وأكبر مصدر للفقه المالكي، وهو كتاب [مواهب الجليل في شرح مختصر خليل] لصاحبه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي (المتوفى: 954هـ)، وهو شرح لأشهر متون المذهب المالكي وأوسعها [مختصر العلامة

1() فتح الباري شرح صحيح البخاري ج3 ص66.

2() التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (17/ 267)

3() مفاهيم يجب أن تصحح، ص 207.

خليل] لمؤلفه خليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي المالكي المصري (المتوفى: 776هـ)، فقد ورد فيه: (في المتيطية: وقولنا إن عليه الحج بعد العمرة والقصد إلى قبر النبي ﷺ هو الأفضل فإن ترك مع ذلك العمرة أو القصد حط له من الأجرة بقدر ما يرى انتهى)(1)

وفيه: (قال العبدي من المالكية في شرح الرسالة: وأما النذر للمشي إلى المسجد الحرام والمشي إلى مكة؛ فله أصل في الشرع وهو الحج والعمرة وإلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ، وقبره أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس، وليس عنده حج ولا عمرة؛ فإذا نذر المشي إلى هذه الثلاثة لزمه؛ فالكعبة متفق عليها، ويختلف أصحابنا في المسجدين الآخرين)(2)

وهكذا ورد في [منسك الإمام خليل بن إسحاق المالكي] صاحب المختصر، وهو من أهم المناسك عند المالكية، فقد قال فيه: (فإذا خرج الإنسان من مكة فلتكن نيته وعزيمته وكليته في زيارته ﷺ وزيارة مسجده وما يتعلق بذلك، لا يشرك معه غيره، لأنه عليه الصلاة والسلام متبوع لا تابع، فهو رأس الأمر المطلوب والمقصود الأعظم)(3)

وهكذا ورد في كتاب [المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة] لصاحبه أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (المتوفى: 737هـ)، وهو أحد كبار فقهاء الصوفية من المدرسة المالكية، ومن المعتبرين فيها، فقد قال فيه: (وقد نقل ابن هبيرة في كتاب اتفاق الأئمة قال: اتفق مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى على أن زيارة النبي ﷺ مستحبة ونقل عبد الحق في تهذيب

---

(1) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1412هـ - 1992م، 2/ 556.

(2) المرجع السابق، 3/ 344.

(3) منسك الإمام خليل بن إسحاق المالكي، خليل بن إسحق المالكي، دار يوسف بن تاشفين، مكتبة الإمام مالك، ص 144.

الطالب عن أبي عمران الفاسي أن زيارة النبي ﷺ واجبة قال عبد الحق يريد وجوب السنن المؤكدة.. والحاصل من أقوالهم أنها قربة مطلوبة لنفسها لا تعلق لها بغيرها فتنفرد بالقصد وشد الرحال إليها، ومن خرج قاصدا إليها دون غيرها فهو في أجل الطاعات وأعلاها فهنيئا له، ثم هنيئا له اللهم لا تحرمنا من ذلك بمنك يا كريم)(1)

وهكذا ورد في كتاب [المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب]، وهو لأحمد بن يحي الونشريسي المعروف بأبي العباس الونشريسي (834 ـ 914هـ)، وهو من أهم الكتب المؤلفة في النوازل الفقهية، ولا يزال إلى الآن مصدرها الأكبر، فقد جاء فيه: (قال أبو القاسم العبدوسي: وأما الخروج إلى زيارة قبور الصالحين والعلماء فجائز طال السفر أو قصر وممن نص على ذلك الإمام أبو بكر ابن العربي في القبس في شرح الموطأ..)(2)

أما المتأخرون من المالكية، وخصوصا الصوفية منهم، فقد كتبوا الرسائل في ذلك، ومن أشهرها [إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور] للسيد العلامة أحمد بن الصديق الغماري (1320 ـ 1380 هـ)، وهو بالإضافة إلى كونه من فقهاء المالكية من المحدثين الكبار في هذا العصر، وقد شهد له بذلك الكثير من العلماء، فقد قال ابن الحاج السلمي في ترجمته: (فقيه، علامة، صاحب مشاركة في كثير من العلوم الإسلامية، وضروب الثقافة العربية الرصينة الأصيلة، إلا أن لَه تخصصا وتبريزا وتفوقا في حلبة علوم الحديث على طريقة الحفاظ الأقدمين، متنا وسندا، ومعرفة تراجم الرواة، وطرق الجرح والتعديل، وقد كون فيها نفسه بنفسه، دون أن يتتلمذ لأحد)(3)

1() المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج، دار التراث، 1/ 254.

2() المعيار المعرب للونشريسي 1/ 321.

3() إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين، محمد بن الفاطمي السلمي الشهير بابن الحاج، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى – 1992، ص:38.

وقال عنه المحدث المحقق محمود سعيد ممدوح: (وهو مستحق للوصف بالحفظ، وقد وصفه بذلك جمع من أعيان شهوده من ذوي الخبرة بالحديث وعلومه، فقد اشتهر بالطلب والأخذ من أفواه الرجال، وكان على معرفة بالجرح والتعديل، وبطبقات الرواة، مع تمييز لصحيح الحديث من ضعيفه، وكان حفظه للحديث قويا، وزاد على ما سبق أمرين: أولهما: أماليه الحديثية.. وثانيهما: كتابته المستخرجات)[1]

ولهذا نرى التيار السلفي يتحاشاه، بل يستعمل كل الوسائل للتحذير منه على الرغم من كونه عارفا بعلوم الحديث، متقنا لها، ويستعمل نفس أساليبهم في التعامل معها.

ولهذا تعتبر رسالته [إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور] من أحسن ما كتب في الرد على التيار السلفي، ولهذا نرى شدة غيظهم منها، وقد قال فيها وفي صاحبها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (توفي 1420هـ) في كتابه [تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد]: (هو الشيخ أبو الفيض أحمد الصديق الغماري في كتابه المسمى [إحياء المقبور من أدلة استحباب بناء المساجد والقباب على القبور]، وهذا الكتاب من أغرب ما ابتلى به المسلمون في هذا العصر، وأبعد ما يكون عن البحث العلمي النزيه؛ فإن المؤلف يدعي ترك التقليد والعمل بالحديث الشريف؛ فقد التقيت به منذ بضعة أشهر في المكتبة الظاهرية وظهر لي من الحديث الذي جرى بيني وبينه أنه على معرفة بعلوم الحديث، وأنه يدعو للاجتهاد، ويحارب التقليد محاربة لا هوادة فيها، وله في ذلك بعض المؤلفات.. ولكن الجلسة كانت قصيرة لم تمكني من أن أعرف اتجاهه في العقيدة، وإن كنت شعرت من بعض فقرات حديثه أنه خلفي صوفي، ثم تأكدت من ذلك بعد أن قرأت له هذا الكتاب وغيره، حيث تبين لي أن يحارب أهل التوحيد، ويخالفهم في عقيدتهم مخالفة شديدة.. ولم يستفد من دعواه الاحتهاد إلا الانتصار للاهواء وأهلها، مثلما يفعل مجتهدو الشيعة تماما، وإن شئت دليلا على ما

---

[1] () تزيين الألفاظ بتتميم ذيول تذكرة الحفاظ، ص: 104-105.

أقول فحسبك برهانا على ذلك هذا الكتاب)[1]

وقد قال في مقدمتها: (أما بعد فإنك سـألت عن حكم البنـاء على القبور هل هو جائز كمـا جـرى عليـه عمـل السـلف والخلـف شـرقاً وغربـاً أو هـو ممنـوع كمـا يـذهب إليـه القرنيـون (1) ومن يستصوب رأيهم ويستحسن مذهبهم من أهل هذه البلاد ممن خفي عليه أمرهم وراج عليه تمويههم فقام يدعو إلى هـدم مـا بـني من القباب على قبور الأولياء والصـالحين متمسـكاً في ذلـك بأحـاديث أرسلها)[2]

ومن الرسـائل المهمـة الـتي ألفهـا متـأخرو المالكيـة رسـالة بعنوان [إعلام الراكع الساجد بمعنى اتخـاذ القبـور مسـاجد]، وهي للعلامة المحدث الحافظ أبي الفضل عبد اللـه بن محمـد الصـديق الغماري (1328 ـ 1413 هـ)، وقد رد فيه ردا مفصلا على أكبر مـا يستند إليه السلفية في قولهم بعدم مشروعية المـزارات الدينيـة، وهو حديث (لعن الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)

2 ـ موقف المدرسة المالكية من التوسل والاستغاثة:

من أعلام المالكيـــة الـــذين نصـــوا على مشـــروعية التوســـل والاستغاثة، والذي يُرجع إليهم في التدريس والفتاوى ونحوها:

1. أبو عمر يوسـف بن عبـد اللـه بن محمـد بن عبـد الـبر بن عاصم النمـري القرطـبي (المتـوفى: 463هــ)، وهـو من المراجـع المعتمـدين لـدى التكفـيريين على الـرغم من أقوالـه الكثـيرة في التوسل والزيارة، والتي يكفرون غيره على أساسها، مع أنـه يمكن أن تنطبق عليـه، ومن أقوالـه في ذلـك: (وفي هـذا الحـديث دليـل على التـبرك بمواضـع الأنبيـاء والصـالحين ومقامـاتهم ومسـاكنهم،

[1] () تحـذير السـاجد من اتخـاذ القبـور مسـاجد، محمـد ناصـر الـدين الألبـاني (المتـوفى: 1420هـ)، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الرابعة، ص57.

[2] () إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، السيد العلامة أحمـد بن الصديق الغماري، ص3.

وإلى هذا قصد عبد الله بن عمر بحديثه هذا، والله أعلم) (1)

2. أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي (توفي في أواخر المائة الرابعة)، والذي علق على قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: 72] بقوله: (واستدل أيضا من جوز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبي ﷺ حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبه قال: احلف لي بحق ما حواه هذا القبر، وبحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ وكذلك بالحرم والمشاعر العظام والركن والمقام والمحراب وما يتلى فيه)(2)

3. القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ) الذي روى الكثير من الروايات في إثبات التوسل والاستغاثة، ومنها قصة الإمام مالك واستقبال القبر وغيرها كثير، ومما نقله من ذلك قوله: (مما لم يزل من شأن من حج المرور بالمدينة، والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره، ومجلسه، وملامس يديه، ومواطئ قدميه، والعمود الذي كان يستند إليه، وينزل جبريل بالوحي فيه عليه، وبمن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله)(3)

ومن أشعاره في هذا المجال قوله في الحجرة الشريفة(4):

يا دار خير المرسلين	هدي الأنام وخصّ
عندي لأجلك لوعة	وتشوّق متوقّد
وعليّ عهد إن ملأت	من تلكم الجدران

1() التمهيد 13/ 66-67) وذكر حديث مالك الدار عبد البر في الإستيعاب (2 / 464)

2() ذكره القرطبي في التفسير (10/36)

3() الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني (2/ 85)

4() نسيم الرياض 3/ـ 488، وانظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (11/ 453)

لأعفّرنّ مصون شيبي ... من كثرة التّقبيل

لولا العوادي والأعادي ... أبدا ولو سحبا على

لكن سأهدي من ... لقطين تلك الدّار

أزكى من المسك ... تغشاه بالآصال

وتخصّه بزواكي ... ونوامي التّسليم

بالإضافة إلى هذا له أشعار كثيرة في التوسل بالنبي ﷺ، منها قوله(1):

أنا فقير إلى عفو ... وأنت أهل الرضى يا

فقد أتيتك أرجو منك ... وأنت أدرى بما في

وقال:

يا سيدي يا رسول الله ... فالعبد ضيف وضيف الله

كئيبا غريبا بافتقار ... ذليلا حقيرا أهمل

يا رب يا الله يا سيدي ... ويا عليم الغيب لم

وقال:

هذا الذي هتفت من ... به الهواتف واشتاقت

وقال:

وقد سعيت إلى أبواب ... سعيا على الرأس لا سعيا

4. عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي، الأندلسي الأشبيلي، المعروف بابن الخراط (المتوفى: 581هـ) الذي قال في كتاب [العاقبة في ذكر الموت]: (ويستحب لك رحمك الله أن تقصد بميتك قبور الصالحين ومدافن أهل الخير، فتدفنه معهم وتنزله بإزائهم، وتسكنه في جوارهم تبركا بهم وتوسلا إلى الله تعالى بقربهم، وأن تجتنب به قبور من سواهم ممن يخاف التأذي بمجاورته والتألم بمشاهدته، فقد روى

1() نقلا عن: شعر التوسل عند القاضي عياض دراسة لغوية، د. جيلالي بن يشو، ص 27..

عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الميت يتأذى بالجار السوء كما يتأذى به الحي) (1)

5. أبو عبد الله محمد بن موسى المراكشي المالكي (توفي 683 هـ) نص على جواز الإستغاثة والتوسل بالنبي ﷺ ومن مؤلفاته في هذا [مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام عليه السلام في اليقظة والمنام] (2)

6. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ) الذي قال في كتابه [التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة]: (نجانا الله من أهوال هذا اليوم بحق محمد نبي الرحمة وصحبه الكرام البررة، وجعلنا ممن حشر في زمرتهم، ولا خالف بنا على طريقهم ومذهبهم بمنه وكرمه آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم)(3)

وقال في تفسيره: (وقال رسول الله ﷺ: (وددت أنا لو رأينا إخواننا) الحديث فجعلنا إخوانه إن اتقينا الله واقتضينا آثاره حشرنا الله في زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق (وفي نسخة: بجاه) محمد وآله)(4)

7. أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي (المتوفى: 682 هـ): ذكر قصة العتيبي المشهورة وأقرها(5).

8. ابن أبى جمرة المالكي (توفي 699 هـ)، وشرحه لصحيح البخاري مليء بالأقوال في التوسل، ومنها قوله: (قال لي من

1() العاقبة في ذكر الموت ص219

2() انظر: الوافي بالوفيات (5/60) فقد قال في ترجمته: (محمد بن موسى بن النعمان الشيخ أبو عبد الله المزالي التلمساني وكان فقيها مالكيا زاهدا عابدا عارفا وله تصانيف منها كتاب مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والمنام)

3() التذكرة، ص 254

4() تفسير القرطبي، (8/240).

5() الذخيرة (3/375-376)

لقيت من العارفين، عمن لقيه من السادة المقر لهم بالفضل: أن صحيح البخاري ما قرئ في شدة إلا فرجت، ولا ركب به في مركب إلا نجت)[1]

9. عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري، تاج الدين الفاكهاني (المتوفى: 734هـ)، الذي قال فرحون المالكي في ترجمته: (وأخبرني جمال الدين: عبد الله بن محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري المحدث: أحد الصوفية بخانقاه سعيد السعيداء في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة قال: رحلنا مع شيخنا تاج الدين الفاكهاني إلى دمشق فقصد زيارة نعل سيدنا رسول الله ﷺ التي بدار الحديث الأشرفية بدمشق، وكنت معه، فلما رأى النعل المكرمة حسر عن رأسه وجعل يقبله ويمرغ وجهه عليه ودموعه تسيل، وأنشد:

فلو قيل للمجنون: ليلى ... تريد أم الدنيا وما في
لقال: غبار من تراب ... أحب إلى نفسي وأشفى

10. أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (المتوفى: 737هـ)، والذي يستدل به التكفيريون في إنكار البدع، قال: (فالتوسل به ﷺ هو محل حط أحمال الأوزار، وأثقال الذنوب والخطايا، لأن بركة شفاعته ﷺ عند ربه لا يتعاظمها ذنب، إذ إنها أعظم من الجميع، فليستبشر من زاره ويلجأ إلى الله تعالى بشفاعة نبيه ﷺ من لم يزره، اللهم لا تحرمنا شفاعته بحرمته عندك، آمين يا رب العالمين، ومن اعتقد خلاف هذا فهو المحروم) [3]

وقال: (وأما عظيم جناب الأنبياء، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيأتي إليهم الزائر ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة، فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل، والانكسار والمسكنة والفقر والفاقة والحاجة والاضطرار والخضوع، ويحضر

1() نقلا عن فتح الباري، 1/14.

2() الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (2/ 81)

3() المدخل (1/259-260)

قلبه وخـاطره إليهم، وإلى مشـاهدتهم بعين قلبـه لا بعين بصـره ؛ لأنهم لا يبلون ولا يتغيرون، ثم يثني على الله تعالى بمـا هـو أهلـه، ثم يصلي عليهم ويترضـى عن أصـحابهم، ثم يـترحم على التـابعين لهم بإحسان إلى يـوم الـدين، ثم يتوسـل إلى اللـه تعـالى بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه، ويستغيث بهم، ويطلب حوائجــه منهم، ويجزم بالإجابة ببركتهم، ويقوي حسن ظنـه في ذلـك، فـإنهم بـاب الله المفتوح، وجرت سنته سبحانه وتعالى في قضاء الحوائج على أيديهم وبسببهم، ومن عجـز عن الوصـول إليهم فليرسـل بالسـلام عليهم، وذكر ما يحتاج إليه من حوائجه ومغفرة ذنوبه وستر عيوبـه إلى غير ذلك، فإنهم السادة الكرام، والكرام لا يـردون من سـألهم ولا من توسـل بهم، ولا من قصـدهم ولا من لجـأ إليهم هـذا الكلام في زيارة الأنبياء، والمرسلين عليهم الصلاة والسلام عموما) (1)

11. أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبـد اللـه، ابن جــزي الكلــبي الغرنــاطي (المتــوفى: 741هــ)، قــال في كتابــه المشـهور [القـوانين الفقهيـة]: (ينبغي لمن حج أن يقصـد المدينـة فيدخل مسجد النبي ﷺ فيصلي فيـه ويسـلم على النـبي ﷺ وعلى ضجيعيه أبي بكر وعمر، ويتشـفع بـه إلى اللـه، ويصـلي بين القـبر والمنبر، ويودع النبي ﷺ إذا خرج من المدينة)(2)

12. خالــد بن عيســى بن أحمــد بن إبــراهيم بن أبي خالــد البلوي، أبو البقـاء (المتـوفى: بعـد 767هـ)، قـال في كتابـه [تـاج المفرق في تحلية علمـاء المشـرق]: (وأسـأل اللـه العلي الكبـير، بجاه سيدنا ومولانا محمـد رسـوله البشـير النـذير، أن يجعلـه حجـا مبرورا سعيا مباركا مشكورا وعملا صالحا متقبلا مذخورا)(3)

13. عبد الرحمن بن محمد بن محمـد، ابن خلـدون أبـو زيـد، ولي الــدين الحضـرمي الإشـبيلي (المتـوفى: 808هــ)، قـال في تاريخه: (نسأله سبحانه وتعـالى من فيض فضـله العميم، ونتوسـل إليه بجاه نبيه الكريم، أن يرزقنا إيمانا دائما، وقلبـا خاشـعا، وعلمـا

1() المدخل لابن الحاج (1/ 258)

2() القوانين الفقهية (ص: 95)

3() تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ص 143.

نافعا)(1)

14. محمد بن محمـد بن محمـد بن إسـماعيل أبـو عبـد لالـه المغربي الأندلسي ثم القاهري المـالكي ويعـرف بـالراعي (تـوفي 853هـ) جاء في ترجمته أنه قال قبل موته(2):

فمالي إلا الله ولا سيما عند
فأسأل ربي في بجاه رسول الله

15. محمد بن محمـد بن عبـد اللـه بن إبـراهيم الشـمس بن الشمس المسوفي الأصل المدني المالكي (تـوفي 885هــ)، جـاء في ترجمته أنه أنشد بحضرة السخاوي قصيدة مطلعها(3):

16. أحمد زروق المـالكي(تـوفي 899 هــ)، والـذي ألـف ردا على ابن تيمية حول التوسل والاستغاثة، وضعه في مقدمة شـرحه على حزب البحر(4).

17. أبــو محمــد عبــد الواحــد بن أحمــد بن علي ابن عاشــر الأنصاري (توفي 1040 هـ)، والـذي قـال: (بجـاه سـيد الأنـام) في كتابـه المعـروف والمتـداول في البيئـة المالكيـة [المرشـد المعين على الضروري من علوم الدين](5)

18. إبراهيم اللقـاني بن إبـراهيم بن حسـن بن علي اللقّـاني المالكي، المصري. (توفي 1041 هـ)، صـاحب [جـوهرة التوحيـد]، وهي من المتون العقدية المنتشرة بكثرة في البيئة المالكية، قال: (ليس للشدائد مثل التوسل به ﷺ)(6)

19. شــهاب الــدين أحمــد بن محمــد المقــري التلمســاني

1() تاريخ ابن خلدون، (6/43)

2() انظر الضوء اللامع (4/399)

3() انظر الضوء اللامع (4/338)

4() نقلا عن شواهد الحق ص452.

5() المرشد المعين على الضروري من علوم الدين (2/300)

6() خلاصة الأثير للمحبي (1/8)

(المتوفى: 1041هـ)، الذي قـال في كتابـه المشـهور [نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب]: (اللهم يسـر لي مـا فيـه الخـيرة لي بالمشارق أو بالمغارب وجد لي من فضلك حيث حللت بجميـع مـا فيه رضاك من المآرب، بجاه نبينا وشفيعنا المبعوث رحمة للأحمـر والأسود والأعاجم والأعارب، عليه أفضل صلاة وأزكى سلام وعلى آله وأصحابه الأعلام)(1)

20. الشيخ محمد ميارة الفاسـي (تـوفي 1072 هــ) صـاحب [الدر الثمين والمـورد المعين]، والـذي يقـول فيـه: (نتوسـل إليـك بجاه أحب الخلق) (2)

21. محمـد بن عبـد اللـه الخرشـي المـالكي أبـو عبـد اللـه (المتوفى: 1101هـ)، والذي قال في شرح مختصر خليل: (نتوسل إليك بجاه الحبيب أن تبلغ المقاصد عن قريب فإنك قـريب مجيب) (3)

22. أبو عبد الله محمد بن عبـد البـاقي بن يوسـف بن أحمـد بن شــهاب الــدين بن محمــد الزرقــاني المــالكي (المتــوفى: 1122هـ)، والـذي قـال في شـرحه على المـواهب اللدنيـة بـالمنح المحمدية: (وليتوسل به ﷺ،ويسأل الله تعالى بجاهـه في التوسـل به إذ هو محـط جبـال الأوزار وأثقـال الـذنوب، لان بركـة شـفاعته وعظمهـا عنـد ربـه لا يتعاظمهـا ذنب،ومن اعتقـد خلاف ذلـك فهـو المحروم الـذي طمس اللـه بصـيرته، وأضـل سـريرته، ألم يسـمع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 64])(4)

23. الشيخ حسـن العـدوى الحمـزاوى، أحـد علمـاء المالكيـة بالجامع الأزهر (1221هـ)، والذي قال في التوسـل بشـهداء أحـد: (ويتوسل بهم الى الله في بلوغ آماله، لأن هذا المكان محل مهبط

1() نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (1/32)

2() الدر الثمين والمورد المعين (2/302)

3() شرح مختصر خليل للخرشي (1/ 58)

4() شرح المواهب (8/317)

الرحمات الربانية، وقد قال خير البرية عليه الصلاة وازكى التحية: (إن لـربكم في دهـركم نفحـات، ألافتعرضـوا لنفحـات ربكم)، ولا شك ولا ريب أن هذا المكان محل هبوط الرحمات الإلهيـة، فينبغي للزائر أن يتعرض لهاتيك النفحات الإحسانية، كيف لا؟ وهم الأحبـة والوسيلة العظمى إلى اللـه ورسـوله، فجـدير لمن توسـل بهم أن يبلـغ المـنى، وينـال بهم الـدرجات العلى، فـإنهم الكـرام لا يخيب قاصدهم وهم الأحياء، ولا يرد من غير اكرام زائرهم)[1]

24. أبو العباس أحمد بن محمـد الخلـوتي، الشـهير بالصـاوي المـالكي (المتـوفى: 1241هــ) صـاحب [حاشـية الصـاوي على الشرح الصغير]، والـذي قـال فيـه: (قـال العلامـة السـمهودي في كتابه المؤلف في زيارة الرسول ﷺ: ومن خصائصـها - أي المدينـة المنورة - وجوب زيارتها كما في حديث الطبراني، وحـق على كـل مسلم زيارتهـا، فالرحلـة إليهـا مـأمور بهـا واجبـة أي متأكـدة على المسلم المسـتطيع لـه سـبيلا.. والأفضـل في الزيـارة القـرب من القـبر الشـريف، بحيث يكـون النـبي ﷺ يسـمع قولـه على حسـب العادة، ويلزم في تلك الحضرة الأدب الظـاهري والبـاطني ليظفـر بالمنى.. وحين يدخل المسجد الشريف يأتي الروضة، فيصـلي بهـا ركعـتين تحيـة المسـجد، ثم يـأتي قبالـة القـبر الشـريف ويقـول: (السلام عليك يا سيدي يـا رسـول اللـه..ثم يتوسـل بـه في جميـع مطلوباته)[2]

25. محمد بن أحمد بن محمد عليش، أبو عبـد اللـه المـالكي (المتـوفى: 1299هــ)، الـذي قـال في كتابـه [منح الجليـل شـرح مختصر خليل]: (ونسأل الله تعالى التوفيـق للصـواب، وأن يسـلك بنـا الـزلفى وحسـن مـآب، بجـاه سـيدنا محمـد ﷺ وعلى آلـه والأصحاب)[3]

26. محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشـي الأصـل، الغرنـاطي الأندلسـي، أبـو عبـد اللـه، الشـهير بلسـان الـدين ابن

1() كنز المطالب (ص230).

2() حاشية الصاوي على الشرح الصغير = بلغة السالك لأقرب المسالك (2/ 72)

3() منح الجليل شرح مختصر خليل (7/ 416)

الخطيب (المتوفى: 776هـ)، والـذي كتب القصـائد والرسـائل في التوسـل والاستغاثة بـالنبي ﷺ، ومنهـا مـا ذكـره صـاحب [صـبح الأعشى] عند ذكره للرسائل المرسلة إلى رسـول اللـه ﷺ، قـال: (ومن أحسـن مـا رأيت في هـذا المعـنى مـا كتب بـه ابن الخطيب وزير ابن الأحمـر بالأنـدلس وصـاحب ديـوان إنشـائه عن سـلطانه يوسف بن فرج بن نصر)

ثم ذكر قصيدة طويلة منها قوله (1):

ألا يا رسول الله ناداك ... على البعد محفوظ
مشوق إذا ما اللّيل مدّ ... تهمّ به تحت الظّلام
إذا ما حديث عنك جاءت ... شجاه من الشّوق
أيجهر بالنّجوى، وأنت ... ويشرح ما يخفى، وأنت
وتعوزه السّقيا، وأنت ... وتتلفه البلوى، وأنت
بنورك نور الله قد أشرق ... فأقماره وضّاحة
بك انهلّ فضل الله في ... فأنواؤه ملتفّة وغيومه
ومن فوق أطباق السماء ... خليل الّذي أوطاكها

وبعد أن شكا له ما حصل في الأندلس في ذلك الحين، قال:

وأنت لنا الغيث الذي ... وأنت لنا الظّلّ الذي
ولمّا نأت داري وأعوز ... وأقلقني شوق تشبّ
بعثت بها جهد المقلّ ... على مجدك الأعلى الذي
وكلّت بها همّي وصدق ... فساعدني هاء الرويّ
فلا تنسني يا خير من ... فمثلك لا ينسى لديه
عليك صلاة الله ما ذرّ ... وما راق من وجه الصّباح

ومما ورد في الرسـالة قولـه: (إلى رسـول الحـق، إلى كافّـة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، والحائز في ميدان اصـطفاء الرحمن قصب السّبق، خاتم الأنبياء، وإمـام ملائكـة السـماء، ومن

(1) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (6/ 459)

وجبت لـه النبـوّة وآدم بين الطّين والمـاء، شـفيع أربـاب الـذّنوب، وطـبيب أدواء القلـوب، ووسـيلة الخلـق إلى علّام الغيـوب، نـبيّ الهدى الذي طهّر قلبه، وغفر ذنبه، وختم به الرسـالة ربّـه، وجـرى في النّفوس مجرى الأنفاس حبّه، الشّـفيع المشـفّع يـوم العـرض، المحمـود في ملإ السـماء والأرض، صـاحب اللّـواء المنشـور يـوم النّشور، والمؤتمن على سرّ الكتاب المسطور، ومخرج النـاس من الظّلمات إلى النّور، المؤيّد بكفاية اللـه وعصـمته، الموفـور حظّـه من عنايتـه وحرمتـه، الظّـلّ الخفّـاق على أمّتـه، من لـو حـازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقا، أو كان للآبـاء رحمـة قلبـه ذابت نفوسهم إشفاقا، فائدة الكون ومعناه وسرّ الوجود الذي بهـر الوجود سناه، وصفيّ حضرة القدس الـذي لا ينـام قلبـه إذا نـامت عينـاه، البشـير الـذي سـبقت لـه البشـرى، ورأى من آيـات ربّـه الكبرى)(1)

27. ابن عطـاء اللـه السـكندري (تـوفي 709 هــ). الملقب بقطب العارفين وترجمان الواصلين ومرشد السالكين، والذي نجد التوسل والاستغاثة كثيرا في كتبه، وله مناظرة مع ابن تيمية.

ثالثا ـ موقف المدرسة الشافعية من المزارات الدينية:

تعتـبر المدرسـة الشـافعية من أكـبر المـدارس الإسـلامية السـنية؛ ذلـك أنهـا كـانت في مراحـل تاريخيـة كثـيرة، تنتشـر في الكثير من الدول العربية كمصر واليمن وسورية وغيرها، بالإضـافة إلى خراسان وسجستان وما وراء النهـر، وفي أقصـى بلاد الشـرق كإندونيسيا، وماليزيا، والفلبين، وسريلانكا، وأستراليا وبعض أجـزاء من الهند (2).

وقد كانت في جميع تلـك المراحـل تتبـنى التصـوف، وخاصـة على الطريقـة الـتي قررهـا أبـو حامـد محمـد بن محمـد الغـزالي الطوسـي (المتـوفى: 505هــ)، والـذي كـان شـافعي المـذهب،

1() المرجع السابق، (6/ 461)

2() الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1416هـ، (3/3)

واستطاع أن يطعّم المذهب الشافعي بالكثير من الــرؤى والأذواق الصوفية، ومن بينها ذلك التعلق بالأولياء والصالحين أحياء وأمواتا.

بنــاء على هــذا ســنذكر هنــا نمــاذج عن مــواقفهم من زيــارة الأضرحة، ومن التوسل والاستغاثة:

1 ـ موقف المدرسة الشافعية من زيارة الأضرحة:

أول المواقــف المؤيــدة للرؤيــة الإيمانيــة للمــزارات الدينيــة موقف الإمام الشافعي صاحب المذهب نفسه، والذي يتهمـه بعض التكفيريين ـ بناء على تلك الروايات ـ بكونه قبوريا بسبب ما يروى عنه في الزيارة والتوسل والاستغاثة.

ومنها ما روي من زيارته قبر أبي حنيفة، فقد أخــرج الخطيب البغـدادي وغـيره، عن علي بن ميمـون صـاحب الشـافعي، قـال: سمعت الشافعي يقول: (إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجيء إلى قبره في كـل يـوم، فـإذا عرضـت لي حاجـة صـليت ركعـتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد حتى تقضى(1).

وقال ابن حجر: (كان الشافعي - أيام كان ببغداد - يجيء إلى ضريح أبي حنيفة يزوره فيسلم عليه، ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجته، ولما بلـغ الشـافعي أن أهـل المغـرب يتوسـلون بمالك لم ينكر عليهم)(2)

وروى عنه ابن حجـر المكي في كتابـه [الصـواعق المحرقـة] هذه الأبيات التي يتوسل فيها بآل البيت(3):

آل النبي وهم إليه
أرجو بهم بيدي اليمين

وهكذا يروى عنه تبركه بقميص الإمام أحمـد ابن حنبـل، فقـد روى ابن عساكر عن علي بن عبد العزيز الطلحي قوله: (قــال لي

(1) تاريخ بغداد 1: 123، مناقب أبي حنيفة / الخوارزمي 2: 199..

(2) الخيرات الحسان لابن حجر: 94.

(3) الصواعق المحرقة: 180.

الربيع: إن الشافعي خرج إلى مصر وأنا معه فقال لي يا ربيع خذ كتابي هذا فامض به وسلمه إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل وائتني بالجواب قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتاب، فلقيت أحمد بن حنبل صلاة الصبح فصليت معه الفجر فلما انفتل من المحراب سلمت إليه الكتاب، وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال أحمد: نظرت فيه قلت: لا، فكسر أبو عبد الله الختم وقرأ الكتاب وتغرغرت عيناه بالدموع فقلت: إيش فيه يا أبا عبد الله، قال: يذكر أنه رأى النبي ﷺ في النوم فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم فسيرفع الله لك علما إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت: البشارة فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده ودفعه إلي، فأخذته وخرجت إلى مصر وأخذت جواب الكتاب فسلمته إلى الشافعي، فقال لي الشافعي: يا ربيع إيش الذي دفع إليك، قلت: القميص الذي يلي جلده، قال الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بله وادفع إلي الماء حتى أشركك فيه) (1)

أما غيره من أتباع مذهبه، فمواقفهم الموافقة للزيارة كثيرة جدا، ومنهم أبو حامد الغزالي الذي قال في كتابه المشهور [إحياء علوم الدين] في كتاب الحج، بعد ذكره لزيارة قبر رسول الله ﷺ: (ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول اللَّه ﷺ ويزور قبر عثمان وقبر الحسن بن على رضى اللَّه عنهما، وفيه أيضا قبر على بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى اللَّه عنهم، ويصلى في مسجد فاطمة رضى اللَّه عنها ويزور قبر إبراهيم بن رسول اللَّه ﷺ وقبر صفية عمة رسول اللَّه ﷺ، فذلك كله بالبقيع، ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلى فيه.. ويأتي بئر أريس، يقال إن النبي ﷺ تفل فيها، وهي عند المسجد، فيتوضأ منها ويشرب من مائها، ويأتي مسجد الفتح وهو على الخندق، وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد، ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد، فيقصد ما قدر عليه، وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر (5/ـ 311)، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى (2 ــ35) والبداية والنهاية 10/ 331 ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص 610.

اللّه ﷺ يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها، وهي سبع آبار طلبا للشفاء وتبركا به ﷺ وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم.. ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة؛ فالمستحب أن يأتي القبر الشريف، ويعيد دعاء الزيارة كما سبق، ويودع رسول اللَّه ﷺ، ويسأل اللَّه عز وجل أن يرزقه العودة إليه، ويسأل السلامة في سفره، ثم يصلى ركعتين في الروضة الصغيرة، وهي موضع مقام رسول اللَّه ﷺ قبل أن زيدت المقصورة في المسجد، فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا، ثم اليمنى، وليقل: اللهم صلّى على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزارى بزيارته وأصحبنى في سفرى السلامة ويسر رجوعى إلى أهلي ووطنى سالما يا أرحم الراحمين. وليتصدق على جيران رسول اللَّه ﷺ بما قدر عليه، وليتتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصلى فيها، وهي عشرون موضعا)(1)

وللأسف، فإن أكثر هذه المزارات التي ذكرها الغزالي لم يعد لها وجود بسبب الجرائم التي ارتكبها الوهابيون في حقها، بل إن هذا النص وحده كفيل بتكفير الغزالي عند الوهابية، لأنهم يحكمون على كل من يعتقد بركة موضع معين، بكونه قبوريا ومشركا.

ومنهم الشيخ تقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الحصني الشافعي (752 ـ 829 هـ)، والذي كان شديداً في نقد ابن تيمية، بل ألف في ذلك كتبا، استعرض فيها مواقفه المختلفة، وخصوصا من تحريمه وتبديعه لزيارة المزارات الدينية، ومن ذلك قوله في بعض كتبه عنه: (الحمد لله مستحق الحمد زيارة قبر سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وكرّم ومجّد من أفضل المساعي، وأنجح القرب إلى رب العالمين، وهي سُنة من سنن المسلمين، ومجمع عليها عند الموحدين ولا يطعن فيها إلا من في قلبه خبث ومرض المنافقين، وهو من أفراخ السامرة واليهود وأعداء الدين من المشركين، ولم تزل هذه الأمة المحمدية على شدّ الرحال إليه على ممر الأزمان من جميع الأقطار والبلدان سواء في ذلك الزرافات والوحدان، والعلماء والمشايخ والكهول والشبان، حتى

1() إحياء علوم الدين، (1/ 260)

ظهر في آخر الزمان، في السنين الخداعة مبتدع من حـران لبّـس على أتبـاع الـدجال ومن شـابههم من شـين الأفهـام والأذهـان، وزخرف لهم من القول غروراً كما صنع إمامـه الشـيطان فصـدهم بتمويهه عن سبل أهل الإيمان، وأغواهم عن الصـراط السـوي إلى بُنيات الطريق ومدرجة الشـيطان فهم بتزويقـه في ظلمـة الخطـأ والإفك يعمهون، وعلى منوال بدعته يهرعـون، صُـمّ بُكم عُميّ فهم لا يعقلون)(1)

ومنهم الحافظ الفقيه الشـيخ شـهاب الـدين أحمـد بن محمـد القسطلاني (851 - 923 هـ]، صـاحب كتـاب (المـواهب اللدنيـة بالمنح المحمدية)، والذي قال فيه: (وللشـيخ تقي الـدين بن تيميـة هنـا كلام شـنيع عجيب يتضـمن منـع شـد الرحـال للزيـارة النبويـة المحمدية، وأنه ليس من القرب بـل بضـد ذلـك، وردّ عليـه الشـيخ تقي الدين السبكي في (شفاء السقام) فشفى صـدور المؤمـنين) (2)

ومنهم الفقيه المفـتي الشـيخ أحمـد بن حجـر الهيتمي المكي الشافعي (909 هـ - 973 هـ)، ومن أقوالـه في ابن تيميـة بسـبب موقفـه من الزيـارة: (ابن تيميـة عبـد خذلـه اللـه وأضـله وأعمـاه وأصمه وأذله، وبذلك صرح الأئمة الذين بينوا فساد أحوالـه وكـذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتفـق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبـة الاجتهـاد أبي الحسـن السـبكي وولده التاج والشيخ الإمام العز بن جماعة وأهل عصرهم وغـيرهم من الشـافعية والمالكيـة والحنفيـة.. والحاصـل أن لا يقـام لكلامـه وزن، بل يرمى في كل وعر وحزن، ويعتقـد فيـه أنـه مبتـدع ضـال ومضل جاهل غـال، عاملـه اللـه بعدلـه وأجارنـا من مثـل طريقتـه وعقيدته وفعله)(3)

وقـد خص المـزارات الدينيـة والـردود على المخـالفين فيهـا،

---

(1) الفتاوى السهمية في ابن تيمية، أجاب عنها جماعة من العلماء.

(2) المـواهب اللدنيـة بـالمنح المحمديـة، أحمـد بن محمـد بن أبى بكـر بن عبـد الملـك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، ج 4 ص 574.

(3) الفتاوى الحديثية: ابن حجر الهيتمي، الطبعة الثالثة، مصر، ص144.

وخصوصا ابن تيمية، بكتابه (الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم)، والذي قال فيه: (فإن قلت كيف تحكي الإجماع السابق على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها، وابن تيمية من متأخري الحنابلة منكر لمشروعية ذلك كله؟ كما رآه السبكي في خطه، وأطال – أعني ابن تيمية – في الاستدلال لذلك بما تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً وأنه لا تقصر فيه الصلاة، وأن جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعة، وتبعه بعض من تأخر عنه من أهل مذهبه.. قلت: من ابن تيمية حتى ينظر إليه أو يعول في شيء من أمور الدين عليه، وهل هو إلا كما قال جماعة من الأئمة الذين تعقبوا كلماته الفاسدة وحججه الكاسدة حتى أظهروا عوار سقطاته وقبائح أوهامه وغلطاته كالعز بن جماعة: عبد أضله الله تعالى وأغواه وألبسه رداء الخزي وأرداه، وباه من قوة الافتراء والكذب ما أعقبه الهوان وأوجب له الحرمان، وقد تصدى شيخ الإسلام وعالم الأنام، المجمع على جلالته واجتهاده وصلاحه وإمامته التقي السبكي قدس الله روحه ونور ضريحه، للرد عليه في تصنيف مستقل، أفاد فيه وأجاد وأصاب، وأوضح بباهر حججه طريق الصواب فشكر الله تعالى مسعاه.. وما وقع من ابن تيمية مما ذكر، وإن كل عثرة لا تقل أبداً ومصيبة يستمر عليه شؤمها دوماً سرمداً ليس بعجيب، فإنه ضرب مع المجتهدين بسهم صائب، وما درى المحروم أنه أتى بأقبح المعايب، إذ خالف إجماعهم في مسائل كثيرة)[1]

ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري (977 - 1069 هـ)، وهو أيضا من الذين تشددوا في الإنكار على ابن تيمية بسبب موقفه من المزارات الدينية، وخصوصا زيارة قبره النبي ﷺ، فقد قال في كتابه (نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض): (واعلم أن هذا الحديث هو الذي دعا ابن تيمية ومن تبعه كابن القيم إلى مقالته إلى مقالته الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنفاً مستقلاً وهي منعه من زيارة قبر النبي ﷺ وشدّ الرحال إليه.. فتوهم أنه حمى جانب

---

[1] الجوهر المنظم في زيارة القبر النبوي المكرم، ابن حجر الهيتمي، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، مصر، ص 29.

التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها، فإنها لا تصدر عن عاقل فضلاً عن فاضل سامحه الله عزوجل)(1)

ووصف فهمه لحديث (لاتجعلوا قبري عيداً) بأنه (لا حجة فيه.. فإنه نزعة شيطانية)(2)

ومنهم الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، وهو من مراجع السلفية الكبار، خصوصا في كتابه [فتح الباري شرح صحيح البخاري]، وهم يسلمون لعلمه وحفظه، ومع ذلك يخالفهم في هذه المسألة خلافا شديدا، وهم لذلك يستعملون كل الوسائل لكتمان كل ما يقوله حولها، مع أنه ألف رسالة في الردّ على ابن تيمية في مسألة زيارة رسول الله ﷺ، وهي (الإنارة بطرق حديث الزيارة)

وقد قال عن ابن تيمية في كتابه (الدرر الكامنة): (وافترق الناس فيه شيعاً فمنهم من نسبه إلى التجسيم لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك كقوله أن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله وأنه مستو على العرش بذاته فقيل له يلزم من ذلك التحيز والانقسام فقال أنا لا أسلم أن التحيز والانقسام من خواص الأجسام فألزم بأنه يقول بتحيز في ذات الله، ومنهم من ينسبه إلى الزندقة لقوله أن النبي ﷺ لا يستغاث به وأن في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبي ﷺ.. ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في علي ما تقدم، ولقوله أنه كان مخذولاً حيث ما توجه وأنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها وإنما قاتل للرياسة لا للديانة ولقوله أنه كان يحب الرياسة.. فألزموه بالنفاق لقوله ﷺ: (ولا يبغضك إلا منافق)(3)

ومنهم الشيخ المحدث المعاصر الكبير محمود سعيد ممدوح، الذي قال: (إن شدّ الرحال أي السفر لزيارة القبر النبوي الشريف

---

(1) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، أحمد محمد عمر الخفاجي المصري شهاب الدين، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1421 – 2001، ج5 ص 96.

(2) المرجع السابق، ج 5 ص 113.

(3) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، 1414 هـ، ،ج1 ص 153.

– سـواء كـان سـفراً تقصـر فيـه الصـلاة أو لا تقصـر – من أهم القربات، وهو قريب من الوجوب عند بعض العلماء، بل واجب عند الظاهريـة وكثـير من المالكيـة والحنفيـة. وعلى كـون هـذا السـفر قربة درج سائر الفقهاء في المذاهب الإسلامية العقدية والفقهيـة، فكان إجماعاً للأمة الإسلامية، وقد خالف هذا الإجماع الشيخ أحمـد بن تيمية، فَصَرّح بأن السفر لزيارة قبر النـبي ﷺ سـفر معصـية لا تقصر فيه الصلاة، وقال: من أراد أن يـزور القـبر الشـريف فلـيزر المدينة المنورة لأي غرض مشروع ثم تكون زيارة القـبر الشـريف تبعاً لا استقلالاً. وهي مقالة شنيعة لم يتجرأ عليهـا أحـد من علمـاء المسلمين وقد سجن الشيخ ابن تيميـة بسـببها، وأخمـدت الفتنـة، حتى جـاء من يعـدون كلامـه كـالوحي المتلـو فـدافعوا عن مقالتـه ونشروها وأوقدوا نار الفتنة، ولله الأمر)[1]

2 ـ موقف المدرسة الشافعية من التوسل والاستغاثة:

من أعلام الشـافعية الـذين نصـوا على مشـروعية التوسـل والاستغاثة، والذي يُرجع إليهم في التدريس والفتاوى ونحوها:

1. أحمـد بن الحسـين بن علي بن موسـى الخُسْـرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر الـبيهقي (المتـوفى: 458هـ)، الـذي روى في شعب الإيمان بسنده قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو محمد بن زياد، حدثنا محمد بن إسحاق الثقفي، قـال: سـمعت أبـا إسحاق القرشي، يقول: (كان عندنا رجل بالمدينة إذا رأى منكرا لا يمكنه أن يغيره أتى القبر، فقال: أيا قـبر النـبي وصـاحبيه... ألا يـا غوثنا لو تعلمونا)[2]، ولم ينكر عليه، ولو كان شركا لما رواه أصلا.

وروى عنه ابن الجوزي في [المنتظم] عند حديثه عن منـاقب أحمد بن حرب عدم إنكاره على استجابة الدعاء إذا توسل الداعي بقبره، فقد قال ابن الجوزي: (أخبرنا زاهر بن طـاهر قـال: أخبرنـا أحمد بن الحسين البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحاكم قال: سمعت

---

[1] () كشـف السـتورعن أحكـام القبـور، محمـود سـعيد بن ممـدوح، مكتبـة دار الفقيـه، الإمارات، ط الأولى، 1423 هـ، ص 185.

[2] () شعب الإيمان (6/ 60)

أبا العباس محمد بن أحمد القاضي يقـول: سـمعت أبـا عبـد اللـه محمد بن جعفر الزاهد يقول: سمعت زكريـا بن أبي دلويـه يقـول: (رأيت أحمد بن حرب بعد وفاته بشهر في المنام فقلت: مـا فعـل بك ربك قال: غفر لي وفـرق المغفـرة. قلت: ومـا فـوق المغفـرة قال: أكرمني بأن يستجيب دعوات المسلمين إذا توسـلوا بقـبري) (1)

2. أبو حامد محمـد بن محمـد الغـزالي الطوسـي (المتـوفى: 505هـ)، وله أقوال كثيرة في هذا، منها قوله عند حديثه عن زيارة المدينـة وآدابهـا: (ثم يرجـع فيقـف عنـد رأس رسـول اللـه ﷺ بين القبر والاسطوانة اليـوم ويسـتقبل القبلـة وليحمـد اللـه عـز وجـل وليمجده وليكثر من الصـلاة على رسـول اللـه ﷺ ثم يقـول: اللهم إنك قد قلت وقولك الحـق ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَـدُوا اللَّهَ تَوَّابًـا رَحِيمًـا ﴾ [النساء: 64] اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقـل ظهورنـا من أوزارنـا تـائبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فتب اللهم علينا وشفع نبيــك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك) (2)

3. أبو القاسم علي بن الحسن بن هبـة اللـه المعـروف بـابن عساكر (المتوفى: 571هـ) الذي ألف جزءا سماه (تمثال النعـال)، يعني نعل رسول اللـه ﷺ، وقـد ذكـر هـذا الحافـظ السـخاوي عنـد جوابه عن سؤال حول ما يكتب لمن تتعسـر عليهـا الـولادة، فنقـل من هذا الجـزء نقلا، وقـال: (وروينـا في جـزء(تمثـال النعـال) لابن عساكر؛ أن مثال النعال الشريف إذا امسكته الحامل بيمينهـا وقـد اشتد عليها الطلق تيسر أمرها بحول الله وقوته)(3)

4. عماد الـدين الكـاتب الأصـبهاني، محمـد بن محمـد صـفي الـدين بن نفيس الـدين حامـد بن ألـه، أبـو عبـد اللـه (المتـوفى: 597هـ)، الذي قال في كتابه [خريدة القصر وجريـدة العصـر] في

1() المنتظم، 11/211.

2() إحياء علوم الدين (1/ 259)

3() الاجوبة المرضية (1/ 384.

ترجمة بعض أصحابه: (وينصره على جاحدي نعمائه، بمحمد وآله) (1)

5. عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، أبو القاسم الرافعي القزويني (المتوفى: 623هـ) الذي قال في بعض كتبه: (متوسلا بشفاعة من عنده يوم الجزاء)(2)

6. عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: 643هـ)، قال في [أدب المفتي والمستفتي] عند حديثه عن معجزات النبي ﷺ: (فإنها ليست محصورة على ما وجد منها في عصره ﷺ بل لم تزل تتجدد بعده ﷺ على تعاقب العصور، وذلك أن كرامات الأولياء من أمته، وإجابات المتوسلين به في حوائجهم ومغوثاتهم عقيب توسلهم به في شدائدهم براهين له ﷺ قواطع ومعجزات له سواطع، ولا يعدها عد، ولا يحصرها حد أعاذنا الله من الزيغ عن ملته، وجعلنا من المهتدين الهادين بهديه وسنته)(3)

وقال في [معرفة أنواع علوم الحديث]: (فالله العظيم الذي بيده الضر والنفع، والإعطاء والمنع أسأل، وإليه أضرع وأبتهل، متوسلا إليه بكل وسيلة، متشفعا إليه بكل شفيع، أن يجعله مليا بذلك وأملى وفيا بكل ذلك وأوفى. وأن يعظم الأجر والنفع به في الدارين، إنه قريب مجيب)(4)

7. أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: 676هـ) الذي قال في [المجموع شرح المهذب]: (ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله ﷺ ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى، ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له قال: (كنت جالسا عند قبر رسول الله ﷺ، فجاء

1() خريدة القصر وجريدة العصر ص 442.

2() التدوين فى أخبار قزوين (2/ 76).

3() أدب المفتي والمستفتي (210)

4() مقدمة ابن الصلاح = معرفة أنواع علوم الحديث - ت عتر (ص: 6)

أعرابي فزاره، ثمَّ قال: (يا خير الرسـل، إنّ الله أنـزل عليك كتابـاً صادقاً قال فيه: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُـوا أَنفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُـولُ لَوَجَـدُوا اللَّهَ تَوَّابًـا رَّحِيمًـا) وإنّي جئتـك مستغفراً ربّك من ذنوبي مستشفعاً فيها بك. ثمَّ بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت	فطاب من طيبهنّ

نفسي الفداء لقبرٍ	فيه العفاف وفيه

ثمَّ استغفر وانصرف، فحملتني عينـاي فـرأيت النـبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي الحق الأعرابي فبشره بأن الله تعالى قد غفر لـه)، ثم يتقـدم إلى رأس القـبر فيقـف بين الأسـطوانة ويسـتقبل القبلة)(1)

8. أبو العباس شمس الدين أحمـد بن محمـد بن إبـراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، قـال في ترجمة أبي محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس: (وقـال ابن بشكوال في تاريخه: كان يحيى بن يحيى مجاب الدعوة، وكان قـد أخذ في نفسه وهيئته ومقعـده هيئـة مالـك، وحكي عنـه أنـه قـال: أخذت ركاب الليث بن سعد، فأراد غلامه أن يمنعـني فقـال: دعـه، ثم قـال لي الليث: خـدمك أهـل العلم، فلم تـزل بي الأيـام حـتى رأيت ذلك. ثم قال: وتـوفي يحـيى بن يحـيى في رجب سـنة أربـع وثلاثين ومـائتين، وقـبره بمقـبرة ابن عيـاش يستسـقى بـه، وهـذه المقبرة بظاهر قرطبة)(2)

9. أبو العبـاس، أحمـد بن عبـد اللـه بن محمـد، محب الـدين الطبري (المتوفى: 694هـ)، قال في [الرياض النضرة في منـاقب العشرة] بعد ذكر قصيدة فيها أسـماء العشـرة: (رضـي اللـه عنهم وأرضاهم أجمعين بمحمد وآله)(3)

10. تقي الدين أبـو الفتح محمـد بن علي بن وهب بن مطيـع القشيري، المعروف بـابن دقيـق العيـد (المتـوفى: 702هــ)، ذكـر

(1) المجموع شرح المهذب (8/ 274)

(2) وفيات الأعيان (6/ 146)

(3) الرياض النضرة في مناقب العشرة ص 12.

السبكي في ترجمته قصيدة طويلة له يقول فيها: (له مطلب أفنى تمنيه عمره... وحاجات نفس لا تجاوز صدره.. (أعد لها جاه الشفيع المشفع...)(1)

11. كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي الأنصاري السماكي، المعروف بابن الزملكاني (توفي 727 هـ) من أشعاره التي يتوسل ويستغيث فيها برسول الله ﷺ قوله (2):

أهواك يا ربة الأستار أهواك ... وإن تباعد عن مغناي

وأعمل العيس والأشواق ... عسى يشاهد معناك

تهوي بها البيد لا تخشى ... هدت ببرق الثنايا الغر

تشوقها نسمات الصبح ... تسوقها نحو رؤياك برياك

يا ربة الحرم العالي الأمين ... وافاه من أين هذا الأمن

إن شبهوا الخال بالمسك ... ذا الخال من رؤية

أفدي بأسود قلبي نور ... من لي بتقبيله من بعد

إني قصدتك لا ألوي على ... ترمي النوى لي سريعاً

وقد حططت رحالي في ... تحط أثقال أوزاري بلقياك

كما حططت بباب ... وقلت للنفس بالمأمول

محمد خير خلق الله كلهم ... وفاتح الخير ماحي كل

سما بأخمصه فوق السماء ... أوطا أسافلها من علو

ونال مرتبةً ما نالها أحد ... من أنبياء ذوي فضل

يا صاحب الجاه عند الله ... ما ود جاهك إلا كل أفاك

أنت الوجيه على رغم العدا ... أنت الشفيع لفتاك ونساك

يا فرقة الزيغ لا لقيت ... ولا شفى الله يوماً قلب

ولا حظيت بجاه المصطفى ... ومن أعانك في الدنيا

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (9/ 221).

(2) أعيان العصر وأعوان النصر (4/ 635).

يا أفضل الرسل يا مولى   خير الخلائق من إنس
ها قد قصدتك أشكو بعض   في الذنوب وهذا ملجأ
قد قيدتني ذنوبي عن بلوغ   قصدي إلى الفوز منها
فاستغفر الله لي واسأله   فيما بقي وغنى من غير
عليك من ربك الله الصلاة   منا عليك السلام الطيب

وقد علق عليها صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (المتوفى: 764هـ) بقوله: (قلت: ولم أقف للشيخ رحمه الله تعالى على نظم هو خير من هذه القصيدة لقصدها الصالح..وعمل على هذه القصيدة، أو على قصيدة ميمية مديح في النبي ﷺ أو عليهما، كراريس سماها [عجالة الراكب]) [1]

12. ابن المقري اليمني الشافعي (755 - 837هـ)، قال عنه جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) في [مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا]: (وقد ذكر ابن المقري اليمني الشافعي رحمه الله في ديوانه، أن كتاب الشفاء مما شوهدت بركته وكان قد ابتلي بمرض فقرأه فعافاه الله منه وقال في ذلك:

ما بالكتاب هواي لكن   أمس بما أمسى به
كالدر يهوى العاشقون   شغفًا بها لشمولها
أرجو الشفاء تفاؤلًا   فحوى الشفاء وأدرك
وبقدر حسن الظن   لا سيما ظن يصير

13. أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفى: 756 هـ) الذي قال: (اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الأديان ولا سمع به في زمن من الأزمان حتى جاء ابن تيمية فتكلم في ذلك بكلام يلبس

1() أعيان العصر وأعوان النصر (4/ 636).

2() مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا (ص: 8).

فيه على الضعفاء الأغمار وابتدع ما لم يسبق إليه في سائر الأعصار...)(1)

وقال: (وأما الاستغاثة: فهي طلب الغوث، وتارة يطلب الغوث من خالقه وهو الله تعالى وحده، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 9]، وتارة يطلب ممن يصح إسناده إليه على سبيل الكسب، ومن هذا النوع الاستغاثة بالنبي ﷺ، وفي هذين القسمين تعدى الفعل تارة بنفسه كقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: 15]، وتارة بحرف الجر كما في كلام النحاة في المستغاث به، وفي كتاب سيبويه: (فاستغاث بهم ليشتروا له كليبا)، فيصح أن يقال: (استغثت النبي ﷺ وأستغيث بالنبي ﷺ)، بمعنى واحد، وهو طلب الغوث منه بالدعاء ونحوه على النوعين السابقين في التوسل من غير فرق، وذلك في حياته وبعد موته، ويقول: (استغثت الله وأستغيث بالله) بمعنى طلب خلق الغوث منه، فالله تعالى مستغاث فالغوث منه خلقا وإيجادا، والنبي ﷺ مستغاث والغوث منه تسببا وكسبا، ولا فرق في هذا المعنى بين أن يستعمل الفعل متعديا بنفسه أو لازما أو تعدى بالباء، وقد تكون الاستغاثة بالنبي ﷺ على وجه آخر، وهو أن يقال: (استغثت الله بالنبي ﷺ) كما تقول: (سألت الله بالنبي ﷺ، فيرجع إلى النوع الأول من أنواع التوسل، ويصح قبل وجوده وبعد وجوده، وقد يحذف المفعول به ويقال استغثت بالنبي ﷺ بهذا المعنى. فصار لفظ الاستغاثة بالنبي ﷺ له معنيان: أحدهما: أن يكون مستغاثا. والثاني: أن يكون مستغاثا به، والباء للاستعانة فقد ظهر جواز إطلاق الاستغاثة والتوسل جميعا، وهذا أمر لا يشك فيه، فإن الاستغاثة في اللغة طلب الغوث وهذا جائز لغة وشرعا من كل من يقدر عليه، بأي لفظ عبر عنه كما قالت أم إسماعيل: أغث إن كان عندك غواث)(2)

14. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (المتوفى: 764هـ)، الذي قال في كتابه [أعيان العصر وأعوان النصر]: (ساترا بخلاله

1() فتاوى السبكي، ص119.

2() شفاء السقام ص187.

الكريمة ما خفي عن المملوك من إخلاله بمحمد وآله إن شاء الله تعالى)[1]

ومن يطلع على كتابه [الوافي بالوفيات] يجد الكثير من المواضع التي يذكر فيها تأييده للتوسل والاستغاثة، ومن ذلك قوله عند ترجمة تقي الدين السبكي، وهو يعدد مؤلفاته: (وكتاب [شفاء السقام في زيارة خير الأنام]، ردا عليه ــ على ابن تيمية ــ أيضا في إنكاره سفر الزيارة.. وقرأته عليه بالقاهرة سنة سبع وثلاثين وسبع مائة، من أوله إلى آخره، وكتبت عليه طبقة ــ أي: طبقة السماع على طريقة المحدثين ـ جاء مما فيها نظما:

لقول ابن تيمية	أتى في زيارة خير
فجاءت نفوس الورى	إلى خير حبر وأزكى
فصنف هذا وداواهم	فكان يقينا شفاء

15. شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي (المتوفى: 765هــ) الذي قال في كتابه [ذيل تذكرة الحفاظ] في ترجمة سبط ابن العجمي: (فالله تعالى يبقيه ويمتع الإسلام ويديم النفع به الأنام بجاه المصطفى سيدنا محمد عليه أفضل ﷺ...)، وقال وفي ترجمة ابن ناصر الدين يقول: (فالله تعالى يبقيه في خير ونعمة شاملة وأفراح بلا كدر كاملة بمحمد وآله)

16. أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (المتوفى: 768هـ)، والذي نرى في كتابه [مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان] الكثير من توسلاته واستغاثاته، ومنها قوله[3]:

ووفق لما ترضى	وواصل له أزكى
وللشمال أجمع غداً	يداولها نعم النديم

[1] أعيان العصر (2/ 366)

[2] الوافي بالوفيات (21/ 167)

[3] مرآة الجنان وعبرة اليقظان (2/ 68)

17. أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770هـ)، الذي قال في خاتمة كتابه [المصباح المنير في غريب الشرح الكبير]: (ونسأل الله حسن العاقبة في الدنيا والآخرة وأن ينفع به طالبه والناظر فيه وأن يعاملنا بما هو أهله بمحمد وآله الأطهار وأصحابه الأبرار)(1)

18. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، وهو تلميذ ابن تيمية، ومن المعتبرين لدى أصحاب الرؤية التكفيرية، وقد قال في كتابه [البداية والنهاية] عند ذكره النار التي خرجت من أرض الحجاز عام 654 هـ: (هذه النار في أرض ذات حجر لا شجر فيها ولا نبت، وهي تأكل بعضها بعضا إن لم تجد ما تأكله، وهي تحرق الحجارة وتذيبها، حتى تعود كالطين المبلول، ثم يضربه الهواء حتى يعود كخبث الحديد الذي يخرج من الكير، فالله يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين، بمحمد وآله الطاهرين)(2)

وقال: (وقد روينا أن عمر عس المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحدا يضحك، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة، ولم ير سائلا يسأل، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: يا أمير المؤمنين إن السؤال سألوا فلم يعطوا فقطعوا السؤال، والناس في هم وضيق فهم لا يتحدثون ولا يضحكون. فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة أن يا غوثاه لأمة محمد، وكتب إلى عمرو بن العاص بمصر أن يا غوثاه لأمة محمد، فبعث إليه كل واحد منهما بقافلة عظيمة تحمل البر وسائر الأطعمات، ووصلت ميرة عمرو في البحر إلى جدة ومن جدة إلى مكة. وهذا الأثر جيد الإسناد)(3)

19. سعد الدين التفتازاني الشافعي (توفي 791 هـ)، الذي قال: (ولهذا ينتفع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات)(4)

1() المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (2/ 712)

2() البداية والنهاية (13/ 224)

3() البداية والنهاية (7/ 90)

4() شرح المقاصد (2/ 33)

20. ابن الملقن سـراج الـدين أبـو حفص عمـر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: 804هـ) صاحب (خلاصة البـدر المنير) في الفقه الشافعي) في أول كتابه: (وهذا المختصر أسـلك فيـه طريـق الإيضـاح قليلا لا الاختصـار جـدا. فـإن رمت جعلتـه كالأحراف فقد لخصته في كراريس لطيفة مسمى بـالمنتقى. نفـع الله بالجميع بمحمد وآله وجعلهم مقربين من رضوانه مبعـدين من سخطه وحرمانه نافعين لكاتبهم وسامعهم نفعـا شـاملا في الحـال والمآل. إنه لما يشاء فعال. لا رب سواه ولا مرجو إلا إياه)(1)

21. تقي الـدين الحصـني الشـافعي (752هـ 829هــ) الـذي قال: (والمراد أن الاستغاثة بالنبي واللواذ بقبره مـع الاسـتغاثة بـه كثير على اختلاف الحاجات، وقد عقد الأئمة لذلك بابـا، وقـالوا: إن استغاثة من لاذ بقبره وشكى إليه فقره وضره توجب كشـف ذلـك الضر بإذن الله تعالى) (2)

22. أحمد بن محمد بن محمـد بن علي بن يوسـف الجـزري الدمشقي العمري الشيرازي الشافعي (751 هـ - 833 هــ) الـذي قـال في كتابـة [الحصـن الحصـين من كلام سـيد المرسـلين]: (ويتوسل إلى الله سبحانه بأنبيائه والصالحين)(3)

وعندما ذكر المواضع المباركة لإجابة الدعاء قال: (وعند قبور الأنبيـاء عليهم السـلام، ولا يصـح قـبر نـبي بعينـه سـوى قـبر نبينـا بالإجماع فقط، وقبر إبراهيم داخل السور ومن غير تعيين، وجـرب استجابة الدعاء عند قبور الصالحين بشروط معروفة)(4)

وقد علق محمـد بن علي بن محمـد بن عبـد اللـه الشـوكاني اليمني (المتـوفى: 1250هــ) على هـذا بقولـه: (أقـول هـذا جعلـه المصـنف رحمـه اللـه داخلا فيمـا تقـدم من التجـريب الـذي ذكـره ووجه ذلك مزيد الشرف ونزول البركة وقد قدمنا أنها تسري بركة

1() خلاصة البدر المنير (1/ 5)

2() دفع شبه من شبه وتمرد، ص89.

3() تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين للشوكاني (ص: 51)

4() تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين (ص: 74)

المكان على الداعي كما تسري بركة الصالحين الذاكرين الله سبحانه على من دخل فيهم ممن ليس هو منهم كما يفيده قوله ﷺ: (هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)(1)

23. محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: 808هـ)، الذي توسل في مواضع من كتابه [حياة الحيوان الكبرى] منها قوله: (نسأل الله تعالى السلامة، وحسن الخاتمة، بجاه سيدنا محمد وآله)(2)

24. أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: 821هـ)، والذي توسل كثيرا في كتابه المشهور [صبح الأعشى في صناعة الإنشاء]، وقد ذكرها في خطابات العديد من العلماء والملوك (3)

وقال مبينا ما جرت به عادة المسلمين من كتابة الرسائل إلى رسول الله ﷺ بعد وفاته، والتوسل والاستغاثة: (وأما الكتب التي تكتب إليه ـ يقصد النبي ﷺ ـ بعد وفاته فقد جرت عادة الأمة من الملوك وغيرهم بكتابة الرسائل إليه بعد وفاته بالسلام والتحية والتوسل والتشفع به إلى الله تعالى في المقاصد الدنيوية والأخروية)(4)

25. أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، وهو المحدث الذي يرجع إليه أصحاب الرؤية التكفيرية، ويعتبرونه حافظ الدنيا وأمير المؤمنين في الحديث، وله نصوص كثيرة تشير إلى تأييده للتوسل والاستغاثة، ومنها قوله في قول أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

(يشير إلى ما وقع في زمن عبد المطلب حيث استسقى

(1) تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين (ص: 74)

(2) حياة الحيوان الكبري (1/ 220).

(3) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (11/ 302)، (8/ 178)، (12/ 361)، (14/ 367) وغيرها.

(4) المرجع السابق، (6/ 458)

لقريش والنبي ﷺ معه غلام) [1]

وقال في حديث عتبان بن مالك الأنصاري: (وفيه التبرك بالمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ أو وطئها.. ويستفاد منه أن من دعي من الصالحين ليتبرك به أنه يجيب إذا أمن الفتنة) [2]

وقال: (والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة، فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه، وتعيده، فيشربه صاحب الإناء، أو يغتسل به استشفاء بها فتحصل له بركتها) [3]

26. شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي (المتوفى: 1004هـ) الملقب بالشافعي الصغير، قال في مقدمة كتابه [غاية البيان في شرح زبد ابن رسلان]: (والله أسأل، وبنبيه أتوسل، أن يجعله خالصا لوجهه الكريم)

وجاء في فتاواه:(سئل عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد: يا شيخ فلان، يا رسول الله، ونحو ذلك من الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين فهل ذلك جائز أم لا؟ وهل للرسل والأنبياء والأولياء والصالحين والمشايخ إغاثة بعد موتهم؟ وماذا يرجح ذلك؟ فأجاب: بأن الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين جائزة، وللرسل والأنبياء والأولياء والصالحين إغاثة بعد موتهم، لأن معجزة الأنبياء وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم، أما الأنبياء فلأنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار وتكون الإغاثة منهم معجزة لهم، وأما الأولياء فهي كرامة لهم فإن أهل الحق على أنه يقع من الأولياء بقصد وبغير قصد أمور خارقة للعادة يجريها الله تعالى بسببهم) [4]

1() فتح الباري: 2 / 398

2() فتح الباري لابن حجر (1/ 522)

3() المرجع السابق، (10/303)

4() فتاوى الرملي بهامش الفتاوى الكبرى لابن حجر الهيتمي (4/ 382)

27. أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: 923هـ) صاحب [المواهب اللدنية بالمنح المحمدية]، والذي قال فيه: (وينبغي للزائر له ﷺ أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل به ﷺ، فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله فيه)

وقال: (والاستغاثة هي طلب الغوث فالمستغيث يطلب من المستغاث به إغاثته وأن يحصل له الغوث، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ الاستغاثة، أو التوسل، أو التشفع، أو التوجه أو التجوه لأنهما من الجاه والوجاهة، ومعناهما علو القدر والمنزلة وقد يتوسل بصاحب الجاه الى من هو أعلى منه. قال: ثم إن كلا من الاستغاثة، والتوسل والتشفع، والتوجه بالنبي ﷺ واقع في كل حال: النصرة قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة) [1]

وقال ـ متحدثا عن تجربته في ذلك ـ: (وأما التوسل به ﷺ بعد موته في البرزخ فهو أكثر من أن يحصى أو يدرك باستقصاء.. ولقد كان حصل لي داء أعيا دواؤه الأطباء، وأقمت به سنين، فاستغثت به ﷺ ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بمكة زادها الله شرفا، ومن علي بالعود في عافية بلا محنة، فبينا أنا نائم إذ جاء رجل معه قرطاس يكتب فيه: هذا دواء لداء أحمد بن القسطلاني من الحضرة الشريفة بعد الإذن الشريف النبوي، ثم استيقظت فلم أجد بي والله شيئا مما كنت أجده، وحصل الشفاء ببركة النبي ﷺ)[2]

وقال: (وقف أعرابي على قبره الشريف ﷺ، وقال: اللهم إنك أمرت بعتق العبيد، وهذا حبيبك، وأنا عبدك فأعتقني من النار على قبر حبيبك، فهتف به هاتف: يا هذا سألت العتق لك وحدك؟ هلا سألت العتق لجميع المؤمنين، اذهب فقد أعتقتك:

1() المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: 4/ 593

2() المرجع السابق، 3/ 418

إن الملوك إذا شابت ... في رقهم أعتقوهم عتق

وأنت يا سيدي أولى ... قد شبت في الرق فاعتقني

رابعا ـ موقف مدرسة الحنابلة من المزارات الدينية:

يخلط الكثيرون بين مدرسة الحنابلة والاتجاه السلفي الوهابي، فيتصورون أن كل الحنابلة سلفية، وكل السلفية حنابلة، والأمر ليس كذلك من الوجهين، فالسلفية يتوزعون على المذاهب الأربعة، والحنابلة ليسوا سوى مذهب من المذاهب الإسلامية فيه الصوفية والأشاعرة وغيرهما من المدارس الإسلامية، ولذلك نجدهم يتبنون نفس ما تتبناه تلك المدارس من آراء وعقائد ترتبط بالآثار والمزارات الدينية.

ومن أقوى الأدلة على هذا أن محمد بن عبد الوهاب كفر أكثر الحنابلة المعاصرين له، بل المساكنين له في نجد بسبب رميه لهم بالقبورية والشرك الأكبر، لكونهم يرون شرعية زيارة الأضرحة والتبرك بها، كما يقول سائر الصوفية والشيعة وغيرهما من طوائف المسلمين.

ومن الأمثلة على ذلك تكفيره للعلامة الكبير محمد بن فيروز الحنبلي (1142 ـ 1216 هـ) الذي لم تشفع له حنبليته ولا نجديته؛ فقد قال فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (.. وأيضا مكاتيب أهل الأحساء موجودة، فأما ابن عبد اللطيف، وابن عفالق، وابن مطلق، فحشو بالزبيل أعني: سبابة التوحيد، واستحلال دم من صدق به، أو أنكر الشرك؛ ولكن تعرف ابن فيروز، أنه أقربهم إلى الإسلام، وهو رجل من الحنابلة، وينتحل كلام الشيخ وابن القيم خاصة، ومع هذا صنف مصنفا أرسله إلينا، قرر فيه: أن هذا الذي يفعل عند قبر يوسف وأمثاله، هو الدين الصحيح، واستدل في تصنيفه بقول النابغة:

أيا قبر النبي وصاحبيه ... ووامصيبتنا لو تعلمونا

---

(3) المرجع السابق، (3/ 597)

وفي مصنف ابن مطلق الاستدلال بقول الشاعر:

وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب

ولكن الكلام الأول، أبلغ من هذا كله، وهو شهادة البدو، والحضر، والنساء والرجال، أن هؤلاء الذين يقولون: التوحيد دين الله ورسوله، ويبغضونه أكثر من بغض اليهود والنصارى، ويسبونه، ويصدون الناس عنه، ويجاهدون في زواله وتثبيت الشرك، بالنفس والمال، خلاف ما عليه الرسل وأتباعهم، فإنهم يجاهدون ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 193])[1]

وصرح بذلك في موضع آخر، فقال في رسالة كتبها إلى أحمد بن عبد الكريم جاء فيها: (..وصل مكتوبك تقرر المسألة التي ذكرت، وتذكر أن عليك إشكالا تطلب إزالته، ثم ورد منك مراسلة، تذكر أنك عثرت على كلام للشيخ أزال عنك الإشكال، فنسأل الله أن يهديك لدين الإسلام. وعلى أي شيء يدل كلامه، من أن من عبد الأوثان عبادة أكبر من عبادة اللات والعزى، وسب دين الرسول ﷺ بعدما شهد به، مثل سب أبي جهل، أنه لا يكفر بعينه. بل العبارة صريحة واضحة، في تكفيره مثل ابن فيروز، وصالح بن عبد الله، وأمثالهما، كفرا ظاهرا ينقل عن الملة، فضلا عن غيرهما؛ هذا صريح واضح، في كلام ابن القيم الذي ذكرت، وفي كلام الشيخ الذي أزال عنك الإشكال، في كفر من عبد الوثن الذي على قبر يوسف وأمثاله، ودعاهم في الشدائد والرخاء، وسب دين الرسل بعدما أقر به، ودان بعبادة الأوثان بعدما أقر بها)[2]

مع العلم أن هذا العلم الذي كفره ابن عبد الوهاب وكل من جاء بعده من والوهابية، علم من أعلام الحنابلة الكبار؛ وفقد قال فيه ابن حميد المكي في كتابه [السحب الوابلة على أضرحة الحنابلة]: (محمد بن عبد الله بن محمد بن فيروز، التميمي،الأحسائي، العلامة الفهامة،كاشف المعضلات، وموضح

---

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، 1417هـ/1996م (10/ 78)

[2] المرجع السابق، (10/ 63)

المشـكلات،و محـرر أنـواع العلـوم، ومقـرر المنقـول والمعقـول، بـالمنطوق والمفهـوم..)[1] إلى آخـر مـا ورد في ترجمتـه، والـتي تظهره مكانتـه الكبـيرة في ذلـك العصـر، بالإضـافة لعلمـه وخلقـه وتدينه.. ولكن كل ذلك لم يجعل لحمه مسموما يحرم التعرض له، كما يذكر السلفية عندما ينتقد أي علم من أعلامهم، وليتهم اكتفـوا بنقده، بل أضافوا إلى ذلك تكفيره.

ومن علماء الحنابلة الذين صـرح ابن عبـد الوهـاب بتكفـيرهم بسبب موقفهم من المزارات الدينية العلامة الجليـل عبـد اللـه بن عيسـى المـويس (ت 1175هـ)؛ فقـد قـال ابن عبـد الوهـاب في بعض رسـائله: (وتـذكرون: أني أكفّـرهم بـالموالاة، وحاشـا وكلا؛ ولكن أقطع: أن كفر من عبد قبـة أبي طـالب، لا يبلـغ عشـر كفـر المويس وأمثاله)[2]

فهو في هذا النص لا يكفر الشيخ المويس فقط، بل يكفر كل من تـبرك بقبـة أبي طـالب الـتي هـدمها الوهابيـة، وتصـوروا أنهم بهدمها هدموا اللات والعزى.

وهكذا صرح مرة أخرى، فقال: (إذا عرف مـا فعـل المـويس وأمثاله، مع قبة الكواز وأهلها، وما فعله هو، وابن إسـماعيل، وابن ربيعة، وعلماء نجد في مكة سنة الحبس، مع أهل قبة أبي طـالب، وإفتائهم بقتل من أنكر ذلك، وأن قتلهم وأخـذ أمـوالهم، قربـة إلى الله، وأن الحرم الذي يحـرم اليهـودي، والنصـراني، لا يحـرمهم ثم تفكـر في الأحيـاء الـذين صـالوا معهم، هـل تـابوا من فعلهم ذلـك وأسلموا، وعرفـوا أن عشـر معشـار مـا فعلـوه ردة عن الإسـلام، بإجماع المذاهب كلها)[3]

وهو يقصـد هنـا فتـاوى العلمـاء من غـير الوهابيـة للبلاد الـتي يسكنون فيها بالـدفاع عن أنفسـهم وبلادهم وآثـارهم من هجمـات

---

[1] () السحب الوابلة على أضرحة الحنابلة، محمد بن عبد الله بن حميد النجدي، المحقق: بكر أبو زيد - عبد الرحمن بن سـليمان العـثيمين، مؤسسـة الرسـالة، 1416 ـ 1996، ص: 969.

[2] () الدرر السنية في الأجوبة النجدية، (10/ 116)

[3] () المرجع السابق، (10/123)

الوهابيين، والتي اعتبرها ابن عبد الوهاب ردة، بل اعتبر أنــه يكفي عشر ما فعلوه ليتهموا بالردة.. فكفرهم ـ كما يصرح ـ مضاعف.

وقد قال في بيان ذلك في موضع آخــر: (فــإذا أردت مصــداق هــذا، فتأمــل بــاب حكم المرتــد في كــل كتــاب، وفي كــل مــذهب، وتأمل ما ذكروه في الأمور التي تجعــل المســلم مرتــدا يحــل دمــه وماله؛ منها: من جعل بينه وبين الله وســائط، كيــف حكى الإجمــاع في الإقناع على ردته؛ ثم تأمــل مــا ذكــروه في ســائر الكتب. فــإن عرفت أن في المســألة خلافــا، ولــو في بعض المــذاهب، فنبهــني؛ وإن صح عنــدك الإجمــاع على تكفــير من فعــل هــذا، أو رضــيه، أو جــادل فيــه، فهــذه خطــوط المــويس، وابن إســماعيل، وأحمــد بن يحيى، عندنا، في إنكار هذا الدين، والــبراءة منــه، ومن أهلــه؛ وهم الآن مجتهــدون في صــد النــاس عنــه)(1)، فقــد اعتــبر مجــرد ردود العلمــاء على الوهابيــة، وإنكــارهم لتكفــيرهم للأمــة إنكــارا للــدين نفسه.

وهكذا ذكر الدكتور عبد الله العثيمين في تحليله لرســائل ابن عبد الوهاب الشخصية، أن العلماء الــذين واجهــوه وانتقــدوه كــانوا كلهم محل طعن منه بسبب هذا الموقف، فقال(واضح من رسائل الشيخ (الشخصية) أن دعوته لقيت معارضة شديدة من قبل بعض علمــاء نجــد، فــالمتتبع لهــا يلاحــظ أن أكــثر من عشــرين عالمــاً أو طالب علم وقفوا ضدها في وقت من الأوقات، ويــأتي في مقدمــة هؤلاء المعارضين عبد الله المويس من حرمة، وسليمان بن سحيم من الرياض، ويستفاد من هــذه الرســائل أن معارضــي الشــيخ من النجديين كانوا مختلفي المواقف، فمنهم من عارضــه واســتمر في معارضته مثل المويس، ومنهم من كان يعترف في بداية الأمر بأن ما جاء به الشيخ أو بعضه حق، لكنه غيّر موقفه مــع مــرور الــزمن مثــل ابن ســحيم، ومنهم – أيضــاً – من كــان متأرجحــاً في تأييــده ومعارضته مثل عبد الله بن عيسى)[1]

ونحب أن نذكر هنا كما ذكرنا ســابقا أن هــذا العلامــة الجليــل الذين ناله سيف التكفير الســلفي لم يكن من الهنــد أو من مصــر، بل كان من علماء نجــد الــتي كــان ينتشــر فيهــا المــذهب الحنبلي،

1() المرجع السابق، (10/ 62)

والذي لم يرحمه السلفية كما لم يرحموا سائر المذاهب، فقد ورد في ترجمته في كتاب [علماء نجد للبسام]: (عبد الله بن عيسى الشهير بالمويسي -تصغير موسى- ولد في بلدة حرمة من إحدى بلدان سدير في نجد، ونشأ فيها وقرأ على مشايخ نجد، ثم ارتحل إلى دمشق للأخذ عن علمائها فأخذ عنهم، ومن أشهرهم العلامة محمد السفاريني المشهور.. وجد واجتهد حتى مهر في الفقه ثم عاد إلى وطنه..و المترجم بعد عودته من دمشق جلس في بلاده يفتي ويدرس وصار معتمد أهل بلده، ثم ولي قضاء بلدة حرمة إحدى بلدان سدير، فمكث في قضائها حتى توفي فيها سنة 1175هـ)(1)

ومن أعلام الحنابلة الذين نص ابن عبد الوهاب على تكفيره لهم بسبب مواقفهم من المزارات الدينية الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق (ت 1164هـ)، وقد كان من كبار العلماء في ذلك الوقت، وكان ماهرا ــ كما يذكر مترجموه ــ (في الفقه والأصول والعربية وعلم الحساب والهيئة وتوابعها، واشتهر بتحقيق علم الفلك وتدقيقه في عصره فما بعده، وألف فيه التآليف البديعة.. وكان عالما عاملا فاضلا كاملا محققا ماهرا)(2)

ومنهم سليمان بن سحيم (ت 1181هـ)، والذي ذكره الشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف ــ السلفي المعتدل ـ أثناء تبريره لجرائم ابن عبد الوهاب، فقال: (سليمان بن سحيم.. عداوته ظاهرة وواضحة كما في الرسائل الشخصية للشيخ الإمام أثناء الرد على مفترياته.. وقد كانت رسالته المملوءة بالأكاذيب والشبهات ضد الدعوة السلفية، من أشد الوسائل تشويهاً للدعوة، وأشنعها تحريفاً وتزويراً لمبادئ هذه الدعوة ولأتباعها، حيث أن هذا الخصم قد بعث بتلك الرسالة إلى سائر علماء الأقطار والأمصار يستحثهم ويحرضهم ضد مجدد هذه الدعوة، ولقد كان لها آثارها وأصداءها السيئة ضد الدعوة ومجددها)(3)

بناء على هذا كله نرى كبار أعلام الحنابلة، وفي المصادر

1() علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح آل بسام، دار العاصمة، 1419، 2 /364.

2() السحب الوابلة على أضرحة الحنابلة، ص:927.

الكبرى للفقه الحنبلي، ينصون على ما ينص عليه سائر المدارس الإسلامية من الموقف من زيارة الأضرحة، والتوسل والاستغاثة، وسنذكر بعض النماذج عن كلا الموقفين هنا:

1 ـ موقف مدرسة الحنابلة من زيارة الأضرحة:

أول المواقف التي نصادفها في مصادر الحنابلة، والمرتبطة بزيارة الأضرحة والتوسل والاستغاثة بأصحابها، موقف الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب نفسه، فقد روى عنه أتباع مذهبه، سواء كانوا تلاميذ مباشرين أو غير مباشرين الكثير من الروايات الدالة على تأييده للزيارات والتوسل والاستغاثة.

ومن ذلك ما رواه المروزي عنه في منسكه، ونقله عنه ابن تيمية في [الرد على الأخنائي] فقد جاء فيه: (وسل الله حاجتك متوسلا إليه بنبيه ﷺ تقض من الله عز وجل)[1]

وجاء في كتابه [العلل ومعرفة الرجال ما نصه: (سألته عن الرجل يمس منبر النبي ﷺ ويتبرك بمسه ويقبله ويفعل بالقبر مثل ذلك أو نحو هذا يريد التقرب إلى الله جل وعز فقال: (لا بأس بذلك)[2]

وجاء في كتاب [سؤالات عبد الله بن أحمد بن حنبل لأحمد]: (سألت أبي عن مس الرجل رمانة المنبر يقصد التبرك، وكذلك عن مس القبر، فقال: (لا بأس بذلك)[3]

ومع هذا نجد ابن تيمية يدعي ادعاء عريضا حين يخبر عن اتفاق الأئمة على أن قبر النبي ﷺ لا يمس خوفا من الشرك، فقد قال في (مجموع الفتاوى): (واتفق الأئمة على أنه لا يمس قبر

3() دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1409 - 1989، ص32.

1() الرد على الأخنائي (ص 168)، وذكر معناه برهان الدين بن مفلح في المبدع (2/ 204) وقريب منه ما في الإقناع للعلامة الحجاوي (1/ـ 208) والفروع لشمس الدين ابن مفلح (توفي 763 هـ) (2/ 159) وغيرهم.

2() العلل لأحمد بن حنبل (2/ 492)

3() كشاف القناع (2/ 150)

النبي ﷺ ولا يقبله. وهذا كله محافظة على التوحيد. فإن من أصول الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد)[1]

وجاء في كتاب [الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف] لعلاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان بن أحمد المَرْداوي (المتوفى: 885 هـ)، وهو من أهم مراجع الفقه الحنبلي): (قال الإمام أحمد للمروذي: يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه، وجزم به في المستوعب وغيره) [2]

وقال أبو عبد الله الأردبيلي: سمعت أبا بكر بن أبي الخصيب يقول: ذكر صفوان بن سليم عند أحمد بن حنبل فقال: هذا رجل يستسقى بحديثه وينزل القطر من السماء بذكره) [3]

وروي عنه العمل بحديث: (يا عباد الله أعينوا)، فقد قال ابنه عبد الله في [المسائل]: (سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج منها ثنتين راكبا وثلاثة ماشيا، أو ثنتين ماشيا وثلاثة راكبا، فضللت الطريق في حجة وكنت ماشيا، فجعلت أقول: (يا عباد الله دلونا على الطريق!) فلم أزل أقول ذلك حتى وقعت على الطريق. أو كما قال أبي)[4]

وروي عنه التوسل بشعرة من شعر النبي ﷺ فقد قال الذهبي: (ومن آدابه: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت أبي يأخذ شعره من شعر النبي ﷺ فيضعها على فيه يقبلها، وأحسب أني رأيته يضعها على عينه، ويغمسها في الماء ويشربه، يستشفي به، ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به ويمسح به يديه ووجهه. قلت (أي الذهبي): أين المتنطع المنكر على أحمد وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبي ﷺ ويمس

1() مجموع الفتاوى (27/ 223.

2() الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (2\ 456)

3() تهذيب الكمال للحافظ المزي (13/ 186)

4() المسائل، (217) ورواه أيضا بسند صحيح البيهقي في الشعب (2/ 455 / 2) وابن عساكر (3/ 72 / 1)

الحجرة النبوية فقال: (لا أرى بذلك بأسا)، أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج، ومن البدع) [1]، ولعل الذهبي يعرض بقوله هذه بابن تيمية، لأنه ينطبق عليه وعلى جميع أصحاب الرؤية التكفيرية.

وقد أخبر الحافظ أبو سعيد بن العلا، قال: رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفّاظ: أنّ الإمام أحمد سُئل عن تقبيل قبر النبي ﷺ وتقبيل منبره؟ فقال: لا بأس بذلك. قال: فأريناه التقي ابن تيمية فصار يتعجّب من ذلك، ويقول: عجبت من أحمد عندي جليل، هذا كلامه أو معنى كلامه. وقال: وأي عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد أنّه غسل قميصاً للشافعي وشرب الماء الذي غسله به[2].

وروي عنه توسله بالإمام الشافعي، حتى تعجب ابنه عبد الله، فقال له أبوه: (إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن) [3]

وهكذا روي تبرك صالح بن أحمد بن حنبل ــ الذي ولد قبل أخيه عبدالله ـ بقميص والده، قال الذهبي: (حدثنا أبو عيسى أحمد بن يعقوب حدثتني فاطمة بنت أحمد بن حنبل قالت وقع الحريق في بيت اخي صالح وكان قد تزوج بفتية فحملوا اليه جهازا شبيها بأربعة آلاف دينار فأكلته النار فجعل صالح يقول: ما غمني ما ذهب إلا ثوب لأبي كان يصلي فيه أتبرك به وأصلي فيه.. قالت فطفئ الحريق ودخلوا فوجدوا الثوب على سرير قد أكلت النار ما حوله وسلم)[4]

وهكذا روي توسل أصحاب الإمام أحمد بن حنبل به لاضاءة الطريق، فعن عن عبد الله بن موسى أنه قال: خرجت أنا وأبي في ليلة مظلمة نزور أحمد، فاشتدت الظلمة، فقال أبي: يا بني تعال حتى نتوسل إلى الله تعالى بهذا العبد الصالح حتى يضاء لنا الطريق، فمنذ ثلاثين سنة ما توسلت به إلا قضيت حاجتي، فدعا

1() سير أعلام النبلاء (11/ 212)

2() ذكره ابن الجوزي في مناقب أحمد:455، وابن كثير في تاريخه:10/331..

3() الخيرات الحسان: 94.

4() سير اعلام النبلاء (11/ 230)، وانظر الآداب الشرعية لابن مفلح (2/ 97)

أبي وأمنت على دعائه، فأضاءت السماء كأنها ليلة مقمرة حتى وصلنا إليه) [1]

وهكذا رويت عن الروايات الكثيرة عن الزيارة، ومن ذلك ما ذكره ابن تيمية حول جسد الإمام الحسين، حيث قال: (ولكن الذي اعتقدوه هو وجود البدن في كربلاء، حتى كانوا ينتابونه في زمن أحمد وغيره، حتى أنه في مسائله: (مسائل في ما يفعل عند قبره) أي قبر الحسين، ذكرها أبو بكر الخلال في جامعه الكبير، في زيارة المشاهد)[2]

فهو يثبت بهذا زيارة الناس قبر الإمام الحسين زمن أحمد وغيره، ويثبت أن أحمد لم ينكر عليهم الزيارة، بل يثبت أنه قد كتب فيما ينبغي أن يفعله الزائر لقبره، مراعاة للسنة في الزيارة، وهذا ما ينقض قول ابن تيمية من أساسه.

بل إن المصادر الحنبلية ــ وخصوصا ما يرتبط منها بالسير والأعلام، أو مناقب الإمام أحمد ــ طافحة بذكر زيارة الأضرحة، والتبرك بها، ومن بينها زيارة ضريح أحمد نفسه، فقد ذكر جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) في (مناقب الإمام أحمد بن حنبل) أخبارا كثيرة في زيارة قبر أحمد بن حنبل تدل على أن العادة الجارية عند الحنابلة زيارة إمامهم، مثلما يزور الشيعة أضرحة أئمتهم، والطرق الصوفية أضرحة مشايخهم، بل إنهم يعتبرونها من القربات المهمة التي لا يفرطون بها[3].

ومن رواياتهم في هذا ما رووه عن أبي الفرج الهندبائي، قال: كنت أزور قبر أحمد بن حنبل، فتركته مدة، فرأيت في المنام قائلا يقول لي: تركت زيارة إمام السنة؟![4].

1() مناقب الإمام أحمد ابن الجوزي ص 297

2() رأس الحسين / ابن تيمية: 209.

3() مناقب أحمد: 400، 563، 639، 642، 643، 677 وغيرها، وجاء في كتاب (المنتظم) أنه قد قصد زيارته في سنة 574 هـ وتبعه خلق كثير يقدرون بخمسة آلاف إنسان [المنتظم في أخبار الملوك والأمم 18: 248.]

وعن أبي طاهر ميمون، قال: رأيت رجلا بجامع الرصـافة في شهر ربيع الآخرة من سنة ست وستين وأربعمئة، فسـألته، فقـال: قد جئت من ستمئة فرسخ، فقلت: في أي حاجة؟ قال: رأيت وأنـا ببلـدي في ليلـة جمعـة كـأني في صـحراء أو في فضـاء عظيم، والخلق قيام، وأبـواب السـماء فتحت، وملائكـة تـنزل من السـماء تلبس أقواما ثيابا خضرا، وتطير بهم في الهـواء، فقلت: من هـؤلاء الذين اختصـوا بهـذا؟ فقـالوا لي: هـؤلاء الـذين يـزورون أحمـد بن حنبل.. فانتبهت، ولم ألبث أن أصلحت أمري وجئت إلى هـذا البلـد وزرته دفعات، وأنا عائد إلى بلدي إن شاء الله[1].

وقال ابن الجوزي: (وفي صـفر سـنة 542 هــ رأى رجـل في المنام قائلا يقول له: من زار أحمـد بن حنبـل غفـر لـه، قـال: فلم يبق خاص ولا عام إلا زاره، وعقدت يومئذ ثم مجلسا فـاجتمع فيـه ألوف من الناس)[2]

بل ورد عنهم ما هو أكبر من ذلك كله، فقد نقـل ابن الجـوزي عن أبي بكر بن مكارم ابن أبي يعلى الحـربي، قـال: وكـان شـيخا صالحا، أنه رأى في منامه أنـه أتى قـبر أحمـد يـزوره على عادتـه، فرأى القبر قد التصق بالأرض ولم يبق منه إلا القليل، فقـال: هـذا من كثرة الغيث.. فسمع أحمد من القبر يقول له: (لا، بل هــذا من هيبة الحق عز وجـل، لأنـه عـز وجـل قـد زارني، فسـألته عن سـر زيارته إياي في كل عام، فقال عـز وجـل: يـا أحمـد، لأنـك نصـرت كلامي، فهو ينشر ويتلى في المحـاريب.. يقـول الحـربي: فـأقبلت على لحده أقبله، ثم قلت: يا سيدي، ما السر في أنه لا يقبـل قـبر إلا قبرك؟ فقال لي: يا بني، ليس هذا كرامة لي، ولكن هذا كرامـة رسـول اللـه ﷺ، لأن معي شـعرات من شـعره.. ثم قـال: ألا ومن يحبني لم لا يزورني في شهر رمضان؟[3]

4() مناقب أحمد: 6390، وأخرجه الخطيب البغدادي / تاريخ بغداد 4: 423.

1() مناقب أحمد: 639.

2() المنتظم 18: 55.

3() مناقب أحمد: 607.

وهكــذا ذكــر ابن الجــوزي في [المنتظم في تــاريخ الأمم والملوك] في ترجمة أبي جعفر بن أبي موسى (ت 470 هـ) إمـام الحنابلة في وقته، وقد دفن عند قبر أحمد، قال ابن الجوزي: (كان الناس يبيتون هناك كـل ليلـة أربعـاء، ويختمـون الختمـات، ويخـرج المتعيشون فيـبيعون المـأكولات، وصـار ذلـك فرجـة للنـاس ــ أي فرجا ـ ولم يزالوا كذلك إلى أن جـاء الشـتاء فـامتنعوا.. وقـال ابن كثير: دفن إلى جانب الإمام أحمد، فاتخذت العامة قبره سوقا كـل ليلة أربعاء، يترددون إليه)[1]

وهكذ نجد مصادر الفقـه الحنبلي كلهـا تتفـق على مشـروعية زيارة الأضرحة:

ومنهم أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد الشهير بــابن قدامة المقدسي (المتوفى: 620هــ)، مؤلـف أهم مرجـع للحنابلـة في الفقه، وخصوصا الفقه المقارن، كتاب [المغني]، والذي يقــول فيــه: (فصــل: ويســتحب زيــارة قــبر النــبي ﷺ..) ثم ذكــر بعض الأحاديث الواردة في الزيارة ثم قال: (وإذا حج الـذي لم يحج قـط من غير طريق الشام لا يأخذ على طريـق المدينـة لأني أخـاف أن يحــدث بــه حــدث فينبغي أن يقصــد مكــة من أقصــد الطــرق ولا يتشاغل بغيره)[2]

وقال: (فإن سافر لزيارة القبور والمشاهد، فقال ابن عقيــل: لا يباح له الـترخص لأنـه منهي عن السـفر إليهـا قـال النـبي ﷺ: لا تشـد الرحـال إلا إلى ثلاثـة مسـاجد متفـق عليـه والصـحيح إباحتـه وجواز القصر فيه لأن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكبـا وماشـيا وكـان يزور القبور وقال: زوروها تذكركم الآخرة)[3]

وهكذا نص العلامة شمس الدين أبو الفـرج عبـد الـرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي (المتوفى: 682 هـ) في كتابه [الشرح الكبير]، وهو من مصادر الحنابلة المعتبرة: (فإذا فــرغ من

1() المنتظم، والبداية والنهاية: أحداث سنة 470 هـ.

2() المغني، أبو محمد موفق الدين عبد اللـه بن أحمـد الشـهير بـابن قدامـة المقدسـي، مكتبة القاهرة، 1388هـ - 1968م، 3/ 346.

3() المرجع السابق، 2/ 100.

الحج استحب زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه)[1]

وهكذا نص العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: 885هـ) في كتابه المعتمد عند الحنابلة [الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف]؛ فقد قال فيه: (قوله فإذا فرغ من الحج: استحب له زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه هذا المذهب وعليه الأصحاب قاطبة، متقدمهم ومتأخرهم. وقال في الفصول: نقل صالح وأبو طالب: إذا حج للفرض لم يمر بالمدينة لأنه إذا حدث به حدث الموت كان في سبيل الحج. وإن كان تطوعا: بدأ بالمدينة)[2]

وهكذا نص العلامة منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتى الحنبلى (المتوفى: 1051هـ) في كتابه المعتمد عند الحنابلة [كشاف القناع عن متن الإقناع]، فقد قال فيه: (تنبيه: قال ابن نصر الله: لازم استحباب زيارة قبره ﷺ استحباب شد الرحال إليها؛ لأن زيارته للحاج بعد حجه لا تمكن بدون شد الرحل. فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحل لزيارته ﷺ)[3]

وقال: (أو غيره كولي، وحديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد أي لا يطلب ذلك، فليس نهياً عن شدها لغيرها خلافاً لبعضهم)[4]

وهكذا نص العلامة موسى بن أحمد بن موسى بن سالم الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا

1() الشرح الكبير (المطبوع مع المقنع والإنصاف)، شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي - الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1995 م، 3/ 512.

2() الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي،: دار إحياء التراث العربي، 4/ 53.

3() كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتى الحنبلى، دار الكتب العلمية، 2/ 515.

4() كشاف القناع للبهوتي 1/ 505.

(المتوفى: 968هـ)، فقد قال في كتابه [الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل]: (ويترخص إن قصد مشهداً، أو قصد مسجداً، ولو غير المساجد الثلاثة، أو قصد قبر نبي أو غيره)[1]

2 ـ موقف مدرسة الحنابلة من التوسل والاستغاثة:

من أعلام الحنابلة الذين نصوا على مشروعية التوسل والاستغاثة، والذي يُرجع إليهم في التدريس والفتاوى ونحوها:

1. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، وقد ذكرنا سابقا الكثير من رواياته عن الإمام أحمد، والتي ترتبط بالتوسل والاستغاثة، وقد صنف كتابا في هذا المجال بعنوان (مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن) وعقد فيه بابا في زيارة قبر النبي ﷺ.

وقال: (لم يزل ذكر نبينا ﷺ منشورا وهو في طي العدم توسل به آدم وأخذ له ميثاق الأنبياء على تصديقه)[2]

وقال: (ذكر في بعض الأخبار أن آدم عليه الصلاة والسلام رفع رأسه فنظر على ساق العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال آدم يا رب من هذا الذي كتبت اسمه مع اسمك فقال الله تعالى: يا آدم هو نبيي وصفيي وهو حبيبي ولولاه ما خلقتك ولا خلقت جنة)[3]

وقال في [صيد الخاطر] يذكر بعض ما حصل له: (وكثر ضجيجي من مرضي، وعجزت عن طلب نفسي، فلجأت إلى قبول الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني، ورد قلبي على بعد نفور مني، وأراني عيب ما كنت أوثره، فأفقت من مرض غفلتي)[4]

---

[1] الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، موسى بن أحمد الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا، المحقق: عبد اللطيف محمد موسى السبكي، دار المعرفة بيروت، 1/ 179.

[2] المدهش 1/141.

[3] بستان الواعظين (ص297)

[4] صيد الخاطر (ص: 93)

وقال في [المنتظم] في ترجمة أبي شجاع الوزير: (ثم عـزل عن الوزارة فسار إلى الحج وجاور بالمدينـة، ثم مـرض فلمـا ثقـل في المرض جاء إلى الحجرة النبوية فقال: يا رسول الله قال اللـه تعـالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَـاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَـدُوا اللَّهَ تَوَّابًـا رَحِيمًـا ﴾ [النسـاء: 64]، وها أنـا قـد جئتـك أسـتغفر اللـه من ذنـوبي وأرجـو شـفاعتك يـوم القيامة)، ثم مات من يومه ذلك، ودفن في البقيع)[1]

2. أبو الوفـاء، علي بن عقيـل بن محمـد بن عقيـل البغـدادي الظفري، (المتوفى: 513هـ) الذي ذكر في كيفية زيـارة النـبي ﷺ: (اللهم أعط محمد الوسيلة والفضـيلة والدرجـة الرفيعـة، والمقـام المحمود الذي وعدته، اللهم صل على روحه في الأرواح، وجسـده في الأجساد كما بلغ رسالاتك، وتلا آياتك، وصدع بأمرك حـتى أتـاه اليقين. اللهم إنـك قلت في كتابـك لنبيـك ﷺ: ﴿لَـوْ أَنَهُمْ إذ ظَلَمُـوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وإني قد أتيت بنبيك تائباً مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك ﷺ نبي الرحمة، يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفـر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك بحقه أن تغفر لي ذنوبي)[2]

وجـاء في تذكرتـه أيضـا قولـه: (ويسـتحب لـه قـدوم مدينـة الرسول ﷺ فيأتي مسجده فيقول عند دخوله: بسم الله اللهم صل على محمد وآل محمد وافتح لي أبواب رحمتـك.. اللهم أني أتوجـه إليك بنبيك ﷺ بنبي الرحمة يا رسول اللـه إني أتوجـه بـك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك بحقه أن تغفر لي ذنوبي)[3]

3. الشيخ عبد القـادر الجيلاني (561 هـ) ذكـر قصـة العتـبى وأقرها في كتاب الغنية، وجاء عنه أيضا قوله: (يا رسـول اللـه إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي)[4]

1() المنتظم 9\ 93.

2() التذكرة في الفقه لابن عقيل (ص: 117)

3() المرجع السابق، (ص: 116)

4() شواهد الحق للنبهاني، ص98.

4. أبـو الحسـين ابن أبي يعلى، محمـد بن محمـد (المتـوفى: 526هـ)، الذي قال في [طبقات الحنابلة] في ترجمة الشريف أبي جعفر: (وحفر له بجنب قبر إمامنا أحمـد فـدفن فيـه وأخـذ النـاس من تراب قبره الكثير تبركا به، ولزم الناس قـبره ليلا ونهـارا مـدة طويلة، ويقرأون ختمات، ويكـثرون الـدعاء، ولقـد بلغـني أنـه ختم على قبره في مدة شهور ألوف ختمات)[1]

5. محمد بن عبد الله بن الحسين السامرّي، نصير الدين، أبو عبـد اللـه، المعـروف بـابن سُـنَيْنَة (تـوفي 616 هــ) صـاحب المستوعب في الفقه، والذي ذكر في [باب زيـارة قـبر النـبي ﷺ] آداب الزيارة، ومنها ما عبر عنه بقوله: (ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهـره، والمنـبر عن يساره)[2]، ثم ذكر كيفية السلام والدعاء، ومنـه: (اللهم إنـك قلت في كتابك لنبيـك مسـتغفرا، فأسـألك أن تـوجب لي المغفـرة كمـا أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك ﷺ...)

6. أبو محمد موفق الـدين عبـد اللـه بن أحمـد بن محمـد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشـقي الحنبلي، الشـهير بـابن قدامـة المقدسـي (المتـوفى: 620هــ) صـاحب كتـاب [المغـني]، والذي ورد فيه هذه الرواية: (عن إبراهيم بن عبـدالرحمن بن عبـد القاريأانه نظر إلى ابن عمر وهو يضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر، ثم يضعها على وجهه)[3]

وقال (ويستحب أن يستسقى بمن ظهر صلاحه ؛ لأنـه أقـرب إلى إجابة الدعاء، فإن عمر استسقى بالعباس عم النـبي ﷺ. قـال ابن عمر: استسقى عمر عـام الرمـادة بالعبـاس، فقـال: اللهم إن هذا عم نبيك ﷺ نتوجه إليك به فاسـقنا. فمـا برحـوا حـتى سـقاهم الله عز وجل)[4]

1() طبقات الحنابله 2/240.

2() المستوعب (3/ 88)

3() المغني لابن قدامة 3/559.

4() المغني (ج2: ص439).

ومما جاء في وصيته قوله: (وإذا كانت لك حاجة إلى الله تعالى تريد طلبها منه فتوضأ، فأحسن وضوءك، واركع ركعتين، وأثن على الله عز وجل، وصل على النبي ﷺ، ثم قل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنبا إلا غفرته ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين وإن قلت: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك وروي عن السلف أنهم كانوا يستنجحون حوائجهم بركعتين يصليهما ثم يقول: اللهم بك أستفتح وبك أستنجح، وإليك بنبيك محمد ﷺ أتوجه، اللهم ذلل لي صعوبة أمري، وسهل من الخير أكثر مما أرجو، واصرف عني من الشر أكثر مما أخاف)[1]

7. شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي (المتوفى: 682 هـ) صاحب [الشرح الكبير]، والذي ورد فيه: (فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه)،. ثم ذكر ما يقال عند الزيارة، وهو: (اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 64]، وقد أتيتك مستغفرا من ذنوبي مستشفعا بك إلى ربي فأسألك يا رب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم اجعله أول الشافعين)[2]

8. نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن عيد الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي (المتوفى 716 هـ)، والذي نقل ردود شمس الدين الجزري على ابن تيمية مؤيدا لها، ومنها قوله تعليقا على قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: 15]: (احتج بها الشيخ شمس الدين الجزري ـ شارح المنهاج في أصول الفقه ـ على الشيخ تقي الدين ابن تيمية فيما قيل عنه أنه قال: لا يستغاث برسول الله ﷺ لأن

1() وصية الإمام ابن قدامة المقدسي، ص 92.

2() الشرح الكبير ج3 ص495.

الاستغاثة بالله عز وجل من خصائصه وحقوقه الخاصة به فلا تكون لغيره كالعبادة. وتقرير الحجة المذكورة: أنه قال: يجب أن ينظر في حقيقة الاستغاثة ماهي، وهي الاستنصار والاستصراخ، ثم قد وجدنا هذا الإسرائيلي استغاث بموسى واستنصره واستصرخه بنص هذه الآيات، وهي استغاثة مخلوق بمخلوق، وقد أقر موسى عليها الإسرائيلي، وقد أقر الله عز وجل موسى على ذلك، ولم ينكر محمد ﷺ ذلك لمانزلت هذه الآيات، أي فكان هذا إقرارا من الله عز وجل ورسوله على استغاثة المخلوق بالمخلوق، وإذا جاز أن يستغاث بموسى فبمحمد ﷺ أولى لأنه أفضل بإجماع)[1]

ومن أقواله في الاحتجاج للاستغاثة: (ومما يحتج به على ذلك: حديث هاجر أم إسماعيل حيث التمست الماء لابنها فلم تجد فسمعت حسا في بطن الوادي فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث وهذا في معنى الاستغاثة منها بجبريل وقد أقرها على ذلك، ولم ينكره النبي ﷺ عليها لما حكاه عنها) [2]

ومن حججه عليها قوله: (ولأن اعتقاد التوحيد من لوازم الإسلام فإذا رأينا مسلما يستغيث بمخلوق علمنا قطعا أنه غير مشرك لذلك المخلوق مع الله عز وجل، وإنما ذلك منه طلب مساعدة أو توجه إلى الله ببركة ذلك المخلوق، وإذا استصرخ الناس في موقف القيامة بالأنبياء ليشفعوا لهم في التخفيف عنهم جاز استصراخهم بهم في غير ذلك المقام) [3]

ثم قال ـ ناقلا الإجماع في المسألة ـ: (وقد صنف الشيخ أبو عبدالله النعمان كتبا سماه: (مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام)، واشتهر هذا الكتاب وأجمع أهل عصره على تلقيه منه بالقبول وإجماع أهل كل عصر حجة، فالمنكر لذلك مخالف لهذا الإجماع) [4]

1() الإشارات الإلهية في المباحث الأصولية للطوفي (3/ 89)

2() المرجع السابق، (3/ 90)

3() المرجع السابق، (3/ 90)

4() المرجع السابق، (3/ 91)

ورد على الشبه التي يتعلق بها منكرو الاستغاثة، فقال: (فـإن قيـل: الآيـة المـذكورة في قصـة موسـى والإسـرائيلي ليسـت في محل النزاع من وجهين: أحدهما: أن موسى حينئذ كـان حيـا ونحن إنما نمنع الاستغاثة بميت، والثاني: أن استغاثة صاحب موسـى بـه كان في أمر يمكن موسى فعله وهو إعانته على خصمه، وهو أمـر معتاد ونحن إنما نمنـع من الاسـتغاثة بـالمخلوق فيمـا يختص فعلـه بالله عز وجل كالرحمة والمغفرة والـرزق والحيـاة ونحـو ذلـك فلا يقال: يامحمد اغفر لي أو ارحمني أو ارزقني أو أجبـني أو أعطـني مالا وولدا لأن ذلك شرك بإجماع) [1]

ثم ذكـــر الجـــواب عن الشـــبهة الأولى، فقـــال: (وأجيب عن الأول: بأن الاستغاثة إذا جازت بالحي فبالميت المساوي فضلا عن الأفضـل أولى لأنـه أقـرب إلى اللـه عـز وجـل من الحي لوجـوه: أحـــدها: أنـــه في دار الكرامـــة والجـــزاء والحي في دار التكليـــف، الثاني: أن الميت تجرد عن عـالم الطبيعـة القاطعـة عن الوصـول إلى عــالم الآخــرة والحي متلبس بهــا، الثــالث: أن الشــهداء في حياتهم محجوبون وبعد موتهم أحياء عند ربهم يرزقون) [2]

ثم ذكر الجواب عن الشبهة الثانيـة، فقـال: (وعن الثـاني: أن ماذكرتموه أمر مجمع مجمع عليـه معلـوم عنـد صـغير المسـلمين فضـــلا عن كبـــيرهم أن المخلـــوق على الإطلاق لايطلب منـــه ولا ينسب إليه فعل ما اختصـت القـدرة الإلهيـة بـه، وقـد رأينـا أغمـار الناس وعامتهم وأبعدهم عن العلم والمعرفة يلوذون بحجرة النبي ﷺ ولا يزيدون على أن يسـألو الشـفاعة والوسـلية: يارسـول اللـه اشفع لنـا ياللـه ببركـة نبيـك اغفـر لنـا، فصـار الكلام في المسـألة المفروضة فضلا لا حاجة بأحد من المسلمين إليه. وإذا لم يكن بـــد من التعريف بهذا الحكم خشـية أن يقـع فيـه أحـد فليكن بعبـارة لا توهم نقصـا في النـبي ﷺ ولا غضـا من منصـبه مثـل أن يقـال: مـا اسـتأثر اللـه عـز وجـل بالقـدرة عليـه فلا يطلب من مخلـوق على الإطلاق أو نحـو هـذا ولا يتعـرض للنـبي ﷺ بسـلب الاسـتغاثة عنـه مطلقا ولا مقيدا، ولا يذكر إلا بالصلاة والسلام عليـه والروايـة عنـه

1() المرجع السابق، (3/ 91)

2() المرجع السابق، (3/ 92)

ونحو ذلك. هذا حاصل ماوقع في هذه المسألة سؤالا وجوابا ذكرته بمعناه وزيادات من عندي) [1]

9. علاء الـدين أبـو الحسـن علي بن سـليمان المـرداوي الدمشـقي الصـالحي الحنبلي (المتـوفى: 885هـ)، صـاحب كتـاب [الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف]، والذي قال فيه: (يجـوز التوسل بالرجل الصالح، على الصحيح من المذهب. وقيل يستحب قال الإمام أحمد في منسكه الذي كتبـه للمـروذي: يتوسـل بـالنبي ﷺ في دعائه وجزم به في المستوعب وغيره)[2]

10. أحمد بن علي بن أحمد العلثي أبو بكر الزاهد (503 هـ)، والذي قال إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبـو إسحاق، برهان الدين (المتوفى: 884هـ) في ترجمته: (كان عفيفـا لا يقبل لأحد شـيئا، ولا يسـأل أحـدا حاجـة لنفسـه من أمـر الـدنيا، مقبلا على شأنه ونفسه، مشتغلا بعبادة ربه، كثير الصوم والصـلاة، مسرعا إلى قضـاء حـوائج المسـلمين، مكرمـا عنـد النـاس، وكـان يتعـاطى حوائجـه بنفسـه، ويـزور القبـور إذا حج، ويجئ إلى قـبر الفضيل بن عياض ويخط بعصاه ويقول: يا رب ها هنـا. ودفن يـوم النحر إلى جنب قبر الفضيل بن عياض)[3]

11. أحمـد بن علي بن أحمـد الموصـلي الحنبلي (622 هــ)، والذي قال ابن مفلح في ترجمته: (الفقيه الزاهد قال عنه الناصـح ابن الحنبلي: كـان يعـرف أكـثر مسـائل (الهدايـة) لأبي الحطـاب، ويأكل من كسـب يـده، ويلبس الثـوب الخـام، وانتفـع بـه جماعـة، وصار له حرمـة بالموصـل، وكـان كثـير العبـادة ويتـبرك بـه، آمـرا بالمعروف ونهاء عن المنكر)[4]

12. أحمد بن مهلهل بن عبيد الله بن أحمد الـبرداني الحنبلي (تـوفي 554 هــ)، والـذي قـال ابن مفلح في ترجمتـه: (قـال ابن

1() المرجع السابق، (3/ 93)

2() الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (2/ 456)

3() المرشد الأقصد ج1ص144.

4() المرشد لأقصد ج1ص145.

النجار: كان منقطعا في مسجد لا يخالط أحدا مشتغا بالله تعالى وكان الإمام المقتفى يزوره، وكذلك وزيره ابن هبيرة، والناس كافة يتبركون به)[1]

13. عثمان بن موسى بن عبد الله الطائي الإربلي الحنبلي (توفي 674 هـ)، والذي قال ابن مفلح في ترجمته: (الشخ الإمام الفقيه الزاهد الإمام حطيم الحنابلة بمكة المشرفة كان شيخا صالحا جليلا عالما فاضلا عابدا متألها منعكفا على العبادة والخير والاشتغال بالله تعالى.. توفي بمكة المشرفة، ويقال: إن الدعاء عن قبره مستجاب)[2]

14. زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ)، والذي قال في كتابه [ذم المال والجاه]: (ومن هذا الباب كراهة أن يشهر الإنسان نفسه للناس بالعلم والزهد والدين أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات ليزار، وتلتمس بركته ودعاؤه وتقبيل يده وهو محب لذلك ويقيم عليه ويفرح به ويسعى في أسبابه)[3]

15. شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: 1188هـ)، والذي قال في ترجمة الصحابي أبو يعلى شداد بن أوس الأنصاري: (توفي سنة ثمان وخمسين من الهجرة وله خمس وسبعون سنة وقيل مات: سنة إحدى وأربعين وقبره ظاهر ببيت المقدس بباب الرحمة تحت سور المسجد الأقصى، يزار ويتبرك به)[4]

16. منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتى الحنبلى (المتوفى: 1051هـ)، والذي نقل قصة العتبى وأقرها[5]، وقال في كتابه [كشاف القناع]: (وقال السامري

1() المرشد الأقصد ج1ص197.

2() المرشد الأقصد ج2 ص 203.

3() ذم المال والجاه (ص72).

4() نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الإستغفار، ص91.

5() كشف القناع (2/ 516)

وصاحب التلخيص: لا بأس بالتوسل للاستقاء بالشيوخ والعلماء المتقين. وقال في المذهب: يجوز أن يستشفع إلى الله برجل صالح وقيل للمروذي: إنه يتوسل بالنبي في دعائه وجزم به في المستوعب وغيره، ثم قال: قال إبراهيم الحربي: الدعاء عند قبر معروف الكرخي الترياق المجرب)[1]

17. محمد بن عيسى بن محمود بن كنان (المتوفى: 1153هـ)، قال في كتابه [يوميات شامية]، أو [الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومية]، وفي مواضع متعددة: (ونسأله القبول بجاه الرسول)[2]

18. معظم الدين أبو عبد الله السامري (توفي 616 هـ)، والذي قال: (ولا بأس بالتوسل إلى الله تعالى في الإستسقاء بالشيوخ والزهاد وأهل العلم والفضل والدين من المسلمين)[3]

19. تقي الدين أحمد بن محمّد بن عليّ البغدادي، المقرئ الأَدَمي الحنبلي (المتوفى: حوالي 749 هـ)، والذي قال في كتابه [المنور في راجح المحرر]: (ويباح التوسل بالصلحاء)[4]

20. محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: 763هـ)، والذي قال في كتابه [الفروع]: (ويجوز التوسل بصالح، وقيل يستحب)[5]

21. موسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا (المتوفى: 968هـ)، الذي قال في كتابه [الإقناع في فقه الإمام

1() كشاف القناع عن متن الإقناع (2/ 68)

2() يوميات شامية، ص 120.

3() المستوعب (3/ 88)

4() المنور في راجح المحرر، ص190.

5() الفروع (3/ 229)

أحمد بن حنبل]: (ولابأس بالتوسل بالصالحين)[1]

22. تقي الـدين محمـد بن أحمـد الفتـوحي الحنبلي الشـهير بـابن النجـار (972هـ)، الـذي قـال في [منتهى الإرادات]: (وأبيح التوسل بالصالحين)[2]

23. مـــرعي بن يوســـف بن أبى بكـــر بن أحمـــد الكـــرمى المقدســي الحنبلى (المتـوفى: 1033هـ) الـذي قـال في [غايـة المنتهى]: (وكذا أبيح توسل بصالحين)[3]

24. عبـد الحي بن أحمـد بن محمـد ابن العمـاد العَكـري الحنبلي، أبـو الفلاح (المتـوفى: 1089هـ)، الـذي قـال في كتابـه [شذرات الذهب في أخبار من ذهب] في ترجمـة أحمـد البخـاري: (وقبره يزار ويتبرك به)[4]

25. نجم الدين بن حمدان الحنبلي (تـوفي 695 هـ)، والـذي قال: (ويسن لمن فرغ عن نسكه زيارة قبر النبي ﷺوقبر صاحبيه، وله ذلك بعد فراغ حجه، وإن شاء قبل فراغه)[5]

26.شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمـد بن عثمـان بن قَايْماز الذهبي (المتـوفى: 748هـ)، وهـو وإن كـان شـافعيا إلا أن عقائده تتوافق مع الحنابلة، وأصـحاب الرؤيـة التكفيريـة يسـتندون إليه كثيرا، مع أنه روي عنه الكثير مما يمكن أن يكفروه به.

ومن ذلــك تلــك الروايــات الكثــيرة في التــبرك والتوســل والاستغاثة وغيرها، والتي نقلها عن الإمام أحمد وغـيره، ومنهـا مـا روى من التوسل بشعرة من شعر النبي ﷺ فقد قال: (ومن آدابه: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت أبي يأخـذ شـعره من شـعر النبي ﷺ فيضعها على فيه يقبلها، وأحسـب أني رأيتـه يضـعها على

1() الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل مع شرحه للإمام البهوتي (1/ 546)

2() منتهى الإرادات مع شرحه للإمام البهوتي (2/ 58)

3() غاية المنتهى مع شرحه للرحيباني (2/ 316)

4() شذرات الذهب (10/ 152)

5() نقله السبكي في شفاء السقام: 67 عن (الرعاية الكبرى في الفروع الحنبلية).

عينه، ويغمسها في الماء ويشربه، يستشفي به، ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به ويمسح به يديه ووجهه. قلت (أي الذهبي): أين المتنطع المنكر على أحمد وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبي ﷺ ويمس الحجرة النبوية فقال: (لا أرى بذلك بأسا)، أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج، ومن البدع)[1]، ولعل الذهبي يعرض بقوله هذه بابن تيمية، لأنه ينطبق عليه وعلى جميع أصحاب الرؤية التكفيرية.

ومنها ما ذكره في كتابه [سير أعلام النبلاء]، وزيارتهم للأضرحة وتوسلهم بأصحابها، ومنها ما ذكره عن معروف الكرخي، حيث قال: (أبو محفوظ البغدادي: وعن إبراهيم الحربي، قال: قبر معروف الترياق المجرب.اهـ قال الذهبي: يريد إجابة دعاء المضطر عنده؛ لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء، كما أن الدعاء في السحر مرجو، ودبر المكتوبات، وفي المساجد)[2]

وقال في ترجمة أبي عبد الله البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، (ذكر وفاته: وقال أبو علي الغساني: أخبرنا أبو الفتح نصر بن الحسن السكتي السمرقندي، قدم علينا بلنسية عام أربعين وستين وأربع مائة، قال: قحط المطر عندنا بسمرقند في بعض الأعوام، فاستسقى الناس مرارا، فلم يسقوا، فأتى رجل صالح معروف بالصلاح إلى قاضي سمرقند فقال له: إني رأيت رأيا أعرضه عليك قال: وما هو؟ قال: أرى أن تخرج ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وقبره بخرتنك، ونستسقي عنده، فعسى الله أن يسقينا.قال: فقال القاضي: نعم ما رأيت. فخرج القاضي والناس معه، واستسقى القاضي بالناس، وبكى الناس عند القبر، وتشفعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى السماء بماء عظيم غزير أقام الناس من أجله بخرتنك سبعة أيام أو نحوها، لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر وغزارته، وبين خرتنك وسمرقند نحو ثلاثة أميال)[3]

1() سير أعلام النبلاء (11/ 212)

2() سير أعلام النبلاء ط الحديث (8/ 88)

3() سير أعلام النبلاء ط الحديث (10/ 120)

27. الحافظ أبو سعيد بن العلا، والـذي قـال: (رأيت في كلام أحمـد بن حنبـل في جـزء قـديم عليـه خـط ابن ناصـر وغـيره من الحفّاظ: أنّ الإمـام أحمـد سُـئل عن تقبيـل قـبر النـبي ﷺ وتقبيـل منبره؟ فقال: لا بأس بذلك. قـال: فأرينـاه التقي ابن تيميـة فصـار يتعجّب من ذلك، ويقول: عجبت من أحمد عندي جليل، هذا كلامـه أو معنى كلامه. وقال: وأي عجب في ذلـك وقـد روينـا عن الإمـام أحمد أنّه غسل قميصاً للشافعي وشرب الماء الذي غسله به[4].

4() ذكره ابن الجوزي في مناقب أحمد:455، وابن كثير في تاريخه:10/331..

الفصل الثالث

المزارات الدينية.. وأدوارها العلمية والتربوية

من الأخطاء الكبرى التي وقع فيها أصحاب الرؤية التكفيرية للتعامل مع المزارات الدينية: التعامل معها وفق رؤية سلبية غير موجودة في الواقع، وهي ما يعتبرونه سدا لذريعة الشرك.

وذلك لتوهمهم أن التعلق بالصالحين قد يؤدي إلى عبادتهم من دون الله، وهذا غير صحيح، ذاك أن التعلق بالصالحين، لا يكون إلا بسبب اعتقاد صلاحهم وولايتهم وتقواهم، وبذلك تكون المحبة مرتبطة بالصلاح والولاية والتقوى، وهي كلها محبة في الله تعالى، وهي فرع من محبة الله، وتزيد فيها، ولا تنقص منها.

وأكبر دليل على ذلك تلك الحكايات التي نجدها تروى في تلك المحال التي يتصور التكفيريون أنها محال شرك.. ذلك أننا نجد زوار الأضرحة يبالغون في ذكر عبادات أولئك الأولياء، وورعهم وتقواهم وصلاحهم، وهي كلها تدل على الارتباط بالله، وتدعو إلى ذلك الارتباط.

وقد كان ذلك التوهم الذي وقع فيه التكفيريون سببا في الغفلة عن الكثير من المصالح الشرعية المعتبرة في تلك المزارات، سواء تلك التي ترتبط بحفظ تاريخ الصالحين، فتجعل تاريخ الأمة هو تاريخها علمائها وصالحيها، لا ملوكها ومستبديها، أو تلك التي ترتبط بآثار ذلك التعلق التربوية والأخلاقية والروحية، والتي نرى لها الكثير من مظاهرها في الواقع.

ولهذا نحاول في هذا الفصل تأكيد ما ورد في النصوص المقدسة حول المزارات الدينية، وبيان أهميتها من الناحية العقلية والواقعية، وهو نوع معتبر في الاستدلال عند من يتبناه أصحاب الرؤية التكفيرية أنفسهم.

وقد قال ابن القيم مبنيا ارتباط الشريعة بالمصالح، وانبنائها

على الحكم: (إن الشـريعة مبناهـا وأساسـها على الحكم ومصـالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها، ورحمـة كلهـا ومصـالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العـدل إلى الجـور، وعن الرحمة إلى ضـررها وعن المصـلحة إلى المفسـدة، وعن الحكمـة إلى العبث فهي ليست من الشريعة)[1]

وقد رأينا أن هناك نوعان كبـيران من المصـالح الشـرعية في حفظ المزارات الدينية والاهتمام بها:

أولهما: الـــدور العلمي والمعـــرفي الـــذي يحفـــظ تـــاريخ الصالحين، ليحفظ تاريخ الأمة من خلال ذلك.

ثانيهما: الدور التربوي بمختلف أنواعه، وذلـك لأن الاهتمـام بالصـالحين، في حيـاتهم وبعـد مـوتهم، يجعـل منهم أبطـالا ومحـل قدوة، ولذلك تأثيره التربوي الكبير.

أولا ـ الدور العلمي والمعرفي للمزارات الدينية

من أهم الأدوار التي تؤديهـا المـزارات الدينيـة حفـظ التـاريخ الديني، ليبقى للأجيال جميعا، وذلك من الأمور المتفـق عليهـا عنـد جميع المؤرخين، لا في الآثار الدينية وحدها، بل في جميع الآثار.

فلم نكن لنعرف الحضارة المصرية، وما ارتبط بهـا من تـاريخ قديم لولا الأهرامات ومعبد الأقصر، وهـرم زوسـر المـدرج، ووادي الملـوك، ومعبـد الكرنـك، ومعبـد أبـو سـمبل، وتمثـال أبـو الهـول للملكـة حتشبسـوت، ومثلهـا الآثـار الكثـيرة المرتبطـة بالحضـارة الفاطمية والأيوبية والمملوكية، والمنتشرة في جميـع مـدن مصـر، وخصوصا القاهرة.

وهكـذا لم نكن لنعـرف حضـارة بلاد الرافـدين، ولا حضـارة الهند، ولا الرومان، ولا المايا، ولا غيرهـا من الحضـارات لـولا تلـك الآثار التي تدل عليها من مدن ومعابد وقصور ومسارح.

وبناء على الأهمية التي تكتسـيها الآثـار، ودورهـا في التعـرف

[1] إعلام الموقعين، ج 3، ص3.

على التاريخ، نشأ [علم الآثار]، والذي عرف بأنه (العلم الذي يختص بدراسة البقايا المادية التي خلفها الإنسان، من أمثال المباني والعمائر، والقطع الفنية، والأدوات والفخار والعظام، وغيرها، والتي يشكل البحث فيها رافدًا مهمًا في إغناء معلوماتنا عن المجتمعات القديمة التي تركت سجلات مكتوبة)(1)

بل إن علم التاريخ نفسه يعتبر الآثار من أهم مصادره المادية على الحقائق التي يذكرها المؤرخون؛ فكل من كتب في المنهج التاريخي، يذكر عند حديثه عن [جمع البيانات والمعلومات اللازمة] الآثار، ويعتبرها من الأدلة المادية المحسوسة، وقد قال بعضهم يذكر مدى أهمية الآثار في البحث التاريخي: (أهمية الآثار التاريخية لا يمكن أن نعد الآثار شيئا ثانويا؛ فالعديد من الأشخاص خاصة في مجتمعاتنا العربية ينظرون إليها نظرة عادية ولا يولونها الكثير من الأهمية مع أنها تحتل مكانة عظيمة، فهي أولا وقبل كل شيء تعتبر الدليل المادي على وجود الشعب وأحقيته بأرضه التي يقيم عليها، ولولا الآثار العربية الإسلامية والمسيحية في فلسطين لبدأ العرب والمسلمون أنفسهم يشكون في أن فلسطين لهم)(2)

وبناء على هذا نحاول هنا التعرف على الأدوار التي تقوم بها المزارات الدينية في خدمة المعارف المرتبطة بالدين، أو ما أطلقنا عليه [الدور العلمي والمعرفي للمزارات الدينية]، وقد رأينا أنه يمكن اختصاره في ثلاثة أدوار:

أولها ـ توفير السند التاريخي للدين، حتى لا يأتي من يشكك فيه بحجة عدم وجود آثار تدل عليه.

ثانيها ـ التعريف بأعلام الدين، والذين كانت لهم مكانة خاصة بين أتباع الدين.

ثالثها ـ الاستبصار بالأحداث الدينية التي حصلت، وكانت لها

---

(1) انظر: معجم الرائد، مسعود جبران دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 3ـ 1978، ص272، وغنيم خالد، علم الآثار وصيانة الأدوات والمواقع وترميمها، أبيسان للنشر والتوزيع والإعلام، لبنان، ط 1، 2002، ص175.

(2) انظر مقالا بعنوان: الآثار العربية الكنعانية في فلسطين، مؤسسة القدس للثقافة والتراث، بتاريخ 2-2-2017.

عبرة خاصة لأتباع الأديان.

وسنتناول هذه الأدوار الثلاثة في المطالب التالية:

1ـ الآثار ودورها في توفير السند المادي للتاريخ الديني:

مثلما رأينا في دور الآثار في التعريف بالتاريخ بمختلف مجالاته؛ فإن للآثار أيضا دورها في التاريخ الديني، بل إننا نجد من يشكك في بعض الأديان بسبب عدم وجود آثار تدل عليها، ذلك أن الأديان مرتبطة ارتباطا وثيقا بالآثار لحرص أتباع الأديان على كل ما يذكرهم بأعلام دينهم.

يقول الشيخ جعفر السبحاني: (اليوم وبعد مضيّ عشرين قرناً- تقريباً- على ميلاد السيد المسيح عليه السلام تحوّل المسيح وأُمّه العذراء وكتابه الانجيل وكذلك الحواريون، تحوّلوا- في عالم الغرب- إلى أُسطورة تاريخية، وصار بعض المستشرقين يشكِّكون- مبدئياً- في وجود رجل اسمه المسيح وأُمّه مريم وكتابه الإنجيل، ويعتبرونه أُسطورة خيالية تشبه أُسطورة (مجنون ليلى)، لماذا؟ لأنّه لا يوجد أيّ أثر حقيقيّ وملموس للمسيح، فمثلًا لا يُدرى- بالضبط- أين وُلِد؟ وأين داره التي كان يسكنها؟ وأين دفنوه بعد وفاته- على زعم النصارى أنّه قتل-؟ أمّا كتابه السماوي فقد امتدّت إليه يد التحريف والتغيير والتزوير، وهذه الأناجيل الأربعة لا ترتبط إليه بصلة وليست له، بل هي ل (متّى) و(يوحنّا) و(مرقس) و(لوقا)، ولهذا ترى في خاتمتها قصّة قتله المزعوم ودفنه، ومن الواضح- كالشمس في رائعة النهار- أنّها كتبت بعد غيابه، وعلى هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين والمحقّقين أنّ هذه الأناجيل الأربعة إنّما هي من الكتب الأدبيّة التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني من الميلاد، فلو كانت الميزات الخاصّة بعيسى محفوظة، لكان ذلك دليلًا على حقيقة وجوده وأصالة حياته وزعامته، وما كان هناك مجال لإثارة الشكوك والاستفهامات من قِبَل المستشرقين ذوي الخيالات الواهية)(1)

وفي مقابل هذا يرى أن المسلمين حافظوا على كل ما

1() صيانة الآثار، الشيخ جعفر السبحاني، دط، دت، ص: 12.

يرتبط برسول الله ﷺ، ولهذا كانت لهم كل الوثـائق الـتي لا يمكن لأي مؤرخ صادق أن ينكرها، يقول: (أمّا المسلمون، فهم يواجهون العالَم مرفوعيّ الرأس، ويقولون: يا أيّها الناس لقد بُعثَ رجلٌ من أرض الحجاز، قبل ألف وأربعمائة سـنة لقيـادة المجتمـع البشـري، وقد حقّق نجاحاً باهراً في مهمّته، وهذه آثار حياته، محفوظة تماماً في مكة والمدينة، فهذه الدار التي وُلد فيها، وهذا غـار حـراء حيث هبط إليه الوحي والتنزيل فيها، وهذا هو مسـجده الـذي كـان يُقيم الصلاة فيه، وهـذا هـو الـبيت الـذي دُفن فيـه، وهـذه بيـوت أولاده وزوجاته وأقربائه، وهذه قبور ذريّته وأوصيائه عليهم السلام)(1)

ثم يعقب على مـا فعلـه السـلفيون في حـق الآثـار، فقـال: (والآن، إذا قَضينا على هذه الآثار فقد قضينا على معالم وجوده ﷺ ودلائل أصالته وحقيقته، ومهّدنا السبيلَ لأعداءِ الإسلام ليقولـوا مـا يريدون. إنّ هدم آثار النبوّة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة ليس فقط إسـاءة إليهم عليهم السـلام وهتكـاً لحـرمتهم، بـل هـو عـداء سافر مع أصالة نبوّة خاتم الأنبياء ومعالم دينه القويم) (2)

ولهذا نجـد الحـرص الشـديد من اليهـود، وخصوصـا الصـهاينة منهم على التنقيب في كل شبر من أرض فلسطين، وخصوصا في القدس، لا لإثبات علاقة اليهودية بهـا فقـط، وإنمـا لتـبرير احتلالهم لها، باعتبارها ـ كما يذكرون ـ أرض الميعاد.

وقد ألجأهم عدم قدرتهم على اكتشاف تلك الآثار إلى الحيلـة التي عرفوا بها طيلـة تـاريخهم، ومن الأمثلـة على ذلـك مـا ذكـره بعض المحققين عن تـزييفهم للآثـار؛ فقـال: (سـعى الآثـاريون الإسرائيليون، ومنذ بداية الصراع إلى تشويه التـاريخ القـديم لهـذه المنطقـة اسـتناداً إلى مرويـاتهم التوراتيـة، حيث اسـتندوا في مشروعهم السياسي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسـطين إلى حقهم التاريخي المزعـوم.. ووصـل هـذا التشـويه إلى حـد تزييـف بعض قطع الآثار التي تعود إلى حقبة بناء الهيكـل الثـاني على حـد زعمهم)(3)

1() المرجع السابق، ص: 12.

2() المرجع السابق، ص: 12.

ثم نقل من صحيفة [هآرتس] بتاريخ 26/3/2004 خبراً مفاده أن مسؤولين في سلطة الآثار الإسرائيلية يؤكدون أن المكتشف الأثري [رمانة العاج] الذي يحمل كتابه قديمة مأخوذة من التوراة، وتم عرضه في متحف [غراند باليه] الفرنسي في باريس مزيف، حيث تبين وجود العديد من المكتشفات الأثرية المزيفة، والتي تعود إلى فترات تاريخية مثل عهد الهيكل الثاني.

وذكر المصدر أن القائمين على ذلك التزييف شبكة إسرائيلية تعمل منذ أكثر من 15 عاماً وتضم في عضويتها متخصصين في علم الآثار، وأن تلك الشبكة وغيرها من الشبكات تتلقى دعما كبيرا من الكيان الصهيوني لإيجاد تاريخ ديني لليهود في المنطقة، ولتبرير احتلالهم لها.

وورد في مقال آخر بعنوان [إسرائيل تسابق الزمن من أجل إثبات يهودية القدس بالآثار]، هذا الخبر: (يواصل علماء الآثار الإسرائيلون، البحث لاكتشافات أهم المواقع الأثرية فى فلسطين، ليؤكدوا للعالم كله أنهم أصحاب هذه الأرض، ومن ضمن الاكتشافات التى روجت فى وسائل الإعلام الغربية، اكتشاف نفق يربط مدينة داود إلى جبل الهيكل، هذا بالإضافة إلى العثور على حفريات أثرية من القرن الرابع عشر تحت الحائط الغربى.. وليس هذا فقط، بل نقبت بعثة علمية فى الأرض المحتلة، فى قرية بمدينة [نتيفوت] إحدى المدن الفلسطينية القديمة، يرجع تاريخها إلى 1500 عاما أى فى الحقبة البيزنطية، وقالت البعثة العلمية أثناء التنقيب فى هذه القرية، أنهم عثروا على واحدة من الاكتشافات المثيرة للإعجاب، حيث إنهم اكتشفوا حفريات تستخدم لتنتج كميات كبيرة من النبيذ)(1)

وهكذا في نفس الجريدة خبرا عن حرص أقباط مصر على آثارهم، حتى لا يدعي مدع في المستقبل خلو مصر من المسيحيين، فتحت عنوان [ائتلات أقباط مصر يطالب بتدخل بعثة

3() الآثار والتوراة في فلسطين..ادعاءات وحقائق، محمد حجازي، الأحد 07 فبراير 2010،.

1() إسرائيل تسابق الزمن من أجل إثبات يهودية القدس بالآثار، بسنت جميل، جريدة اليوم السابع، السبت، 21 نوفمبر 2015.

آثار دولية لإنقاذ أديرة وادى النطـرون]، وجـاء في الخـبر: (طـالب ائتلاف أقباط مصر بضرورة تـدخل بعثـة دوليـة لإنقـاذ أديـرة وادى النطـرون الآثريـة الـتى تضـررت جـراء السـيول الـتى اجتـاحت المنطقة الأسبوع الماضى.. حيث انهـارت قبـة أثريـة تعـود للقـرن السادس الميلادى بـدير السـريان بـوادى النطـرون، بالإضـافة إلى حاجة ديرى الأنبا بيشوى والسريان إلى تدخل عاجـل لإنقـاذ الآثـار القبطية هناك) (1)

وهذه الأخبار التي نجد لها نظـائر كثـيرة تخـرج كـل يـوم، بـل هناك من يزيف الآثار حـتى يثبت للعـالم وللتـاريخ صـدق الـدعاوى التي يدعيها، ترينا مبلغ الجرم الذي قامت به الجماعـات المسـلحة من تهديم الأضـرحة الدينيـة، واعتبـار ذلـك دينـا، حـتى لا يبقى في المنطقة أي أثر ديني للمسلمين يمكن أن يثبتوا وجودهم وتاريخهم من خلاله.

وعندما نبحث عن مصدر هذا الموقف نجده الشيخ محمــد بن عبد الوهاب، وحركته الـتي راحت تهـدم كـل الآثـار الموجـودة في الجزيرة العربية، حتى لا تبقي أي سند مادي للإسلام بحجة محاربة الشــرك، وقــد وصــلت بهم الجــرأة إلى تغيــير معــالم الحــرمين الشـريفين ليتحـولا من مـدن مقدسـة تعـبر عن التـاريخ إلى مـدن عصرية لا علاقة لها بالتاريخ الديني.

وقد صرح قبل بضع سنوات الدكتور أحمد زكي يمـاني، وزيـر النفط السعودي السابق، أثناء محاضرة بكلية الدراسات الشــرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن عن ذلك الدور المشبوه الـذي قـام به السعوديون تجـاه المـزارات الدينيـة نتيجـة تعليمـات المدرسـة السلفية الوهابيـة؛ فـذكر عن نفسـه أنـه قـام بـالتنقيب عن مـنزل النبي ﷺ محمد وزوجته خديجة في مكة المكرمة، وذكـر أنـه (جـاء بـأكثر من 300 عامـل، ومعهم كـل مـا يحتاجونـه من معـدات إلى الموقع، بالاضافة الى مهندسين وأخصائيين في التنقيب عن الآثار، وقام الفريق بعمل نادر على مدار 24 ساعة، واسـتطاع بعـد مـدة كشف المنزل الذي لم يبـق منـه سـوى ارتفـاع مـتر من حيطانـه،

1() [أقباط مصر] تطالب بتدخل بعثة آثار دولية لإنقاذ أديرة وادى النطرون، سارة علام، اليوم السابع، السبت، 14 نوفمبر 2015.

وبعد أن صوروه بشكل مفصل، قاموا بردمه بالرمل مباشرة، وغادروا الموقع)[1]

وعندما سئل عن سبب ردمه بالرمل بعد هذا العمل الشاق، أجاب بقوله: (لدينا في السعودية تيار يعتبر الاهتمام بهذه المواقع والآثار ضربا من الشرك)

ولم يقتصر الأمر على ذلك الأثر الذي شهد الوزير السعودي على هدمه بعد اكتشافه، وإنما هناك آثار كثيرة جدا، وبالآلاف هدمت، وأقيمت على أطلالها الفنادق والعمارات والطرق ودورات المياه، وغيرها.

ومن الأمثلة القريبة على ذلك أنه في العام الذي احتل فيه عبد العزيز بن سعود وقواته مدينة مكة المكرمة، أي سنة 1924 كان أول اعمالهم إزالة مقبرة (المعلى) التي تضم قبر السيدة خديجة زوجة الرسول ﷺ وقبر عمه، أبي طالب، وبعد عامين من ذلك الوقت أي سنة 1926، احتل ابن سعود المدينة المنورة، (وقام هو واتباعه بهدم مقبرة البقيع التي تضم قبور عدد كبير من الصحابة وأهل بيت رسول الله ﷺ ومنهم ابنته فاطمة الزهراء وحفيده الحسن بن علي، كما هدموا المساجد السبعة في المدينة: مسجد الفتح ومسجد سلمان الفارسي ومسجد أبي بكر ومسجد عمر ومسجد فاطمة ومسجد علي ومسجد القبلتين، وحولوا بعضها الى صرافات الكترونية)[2]

بل وصل الأمر إلى غار حراء نفسه، والذي يشن الوهابيون عليه حملة شديدة في التنفير من زيارته، بل وصل بهم الأمر إلى الدعوة إلى تفجيره وإزالته، بل هناك من دعا إلى إخراج قبر رسول الله ﷺ نفسه من المسجد النبوي، وتحريم الصلاة في المسجد النبوي لوجود قبر رسول الله ﷺ فيه، بناء على قاعدتهم في حرمة الصلاة في المساجد التي تحوي مقابر.

وفي مقال بعنوان [ما الذي يفعله الوهابيون وآل سعود في

---

[1] () محو الآثار الاسلامية في السعودية بين السياسة والدين، الدكتور سعيد الشهابي.

[2] () المرجع السابق.

آثار المسلمين؟] كتبت [حنان شحاتة] أستاذة القانون تقول: (كانت المواقع التي ارتبطت بحياة النبي محمد ﷺ في مكانة عالية لدى جميع المسلمين لأكثر من خمسة عشر قرنًا، وقد مر على إدارة تلك المواقع وحكم مناطقها العديد من الأيدي والأسماء، مر عليها الأمويون والعباسيون والعثمانيون، وهي الآن تحت سيطرة العائلة المالكة السعودية.. إلا أن الملايين الذين يزورون المملكة كل عام للحج أو العمرة قد يصعب عليهم فهم ذلك ما تفعله العائلة، فبدلاً من صون وحماية تلك الأماكن والتي تسميها السلطات السعودية [الأمانة المقدسة]، يقول منتقدو السعودية إن العائلة ترتكب جرمًا ممنهجًا بتخريب ثقافي للمواقع التراثية هناك)(1)

ثم ذكرت الكاتبة معهد واشنطن القائم على شؤون الخليج، ذكر أن 95 بالمائة من المباني القديمة، والتي ارتبطت بحياة النبي ﷺ قد تم هدمها في العقدين الماضيين، و(لم تعد صحراء الجزيرة تُضاء بالنجوم، لكن الآن تضيئها سلاسل الفنادق الفاخرة، والمحال التجارية الرأسمالية المبهرجة أمثال ماكدونالدز، ستاربكس، باسكن روبنز والعديد من بوتيكات باريس هيلتون!!)

وذكرت بأسف أن (الحجاج الذين يأتون لمرة واحدة في العمر بعد تدبير وإدخار طويلين لرحلة روحية لا تتكرر غالبًا، إذا أرادوا أن يزوروا بيت السيدة خديجة زوجة النبي ﷺ، فسيجدون مكان البيت كتلة مكونة من 1400 مرحاض عام)

وهكذا ذكرت أن (الموقع الذي يُعتقد أن النبي ﷺ قد وُلد فيه، حولته المملكة في الخمسينات من القرن الماضي إلى سوق للماشية، ثم مكتبة لاحقًا، والآن يسير الوهابيون في طريق هدم المكتبة، وبناء امتداد لقصر ملكي ليصبح مقر إقامة للملك، ولتجنب أي غضب من المسلمين قام السعوديون بوضع لافتة في الموقع تقول: (لا يوجد أي دليل على أن النبي محمد ﷺ قد وُلد هنا، ولذلك لا يجوز تخصيص الصلاة والدعاء أو التبرك في هذا المكان)

---

(1) ما الذي يفعله الوهابيون وآل سعود في آثار المسلمين؟، حنان شحاتة، أستاذة في القانون. عملت في موقع ميدل إيست مونيتور وتكتب حاليا في ميدل إيست آي، ترجمة وتحرير نون بوست.

وذكرت أن العائلة السعودية دمرت مقابر المسلمين التي يعود تاريخها إلى أكثر من 1000 سنة، حيث سُحقت جبال مكة لإفساح الطريق لمواقف السيارات، وذكرت أن (ملايين المسلمين حول العالم اضطروا لابتلاع ألسنتهم والصمت، فالنظام القمعي الذي يسيطر على الحجاز قد يمنع من أراد من أداء مناسك الحج أو العمرة برفض التأشيرة لمن يعلو صوته بمعارضة أفعاله، فالحكومة السعودية لا تتحكم فقط بالأماكن، لكنها تتحكم أيضًا بمن يزور الأماكن، وبحصص الدول المختلفة، وبعدد من يزورون المشاعر المقدسة، والأمر يخضع لأهواء السياسة طوال الوقت)

وذكرت أن السلطات السعودية تعتبر الحرمين ملكية خاصة بها، فلذلك لا تسمح بأي مناقشة أو نقد لأي تصرف تقوم به، ومن ذلك أن تركيا أدانت في عام 2003 هدم قلعة عثمانية قديمة كانت تخضع لوالي مكة المكرمة، ليحل محلها برج عملاق يُسمى برج الساعة، واعتبر وزير الثقافة التركي ذلك التصرف السعودي [عملاً همجيًا]، وقال مصرحا للجهات الإعلامية: (بالنيابة عن الدولة التركية وعن الأمة، من الصعب أن ننظر إلى المملكة العربية السعودية بشكل ودي، هذا ليس فقط عدم احترام للتاريخ، لكنه محاولة متعمدة للقضاء على الثقافة التركية من عالمهم ومن التاريخ)

وفي مقال آخر بعنوان [ماذا أبقى الوهابيون من تراث المسلمين في الحجاز؟] ذكر صاحبه بعض الجرائم التي قام بها السعوديون في حق التراث، ومنها (تدمير آلاف من قبور الصحابة من المهاجرين والأنصار (تصل الى عشرة آلاف) وغيرهم من آل البيت والتابعين والشهداء في مقبرة البقيع بالمدينة المنورة، وإزالة القبب، حتى أنه لا يمكن التعرّف اليوم إلا على بضعة قبور منها، وجاء ذلك بناء على فتوى الشيخ عبد الله بن بلهيد اباإدّعاء عبادة المسلمين لهذه القبور من دون الله. وفعلوا نفس الشيء في مقبرة المعلّى بمكة المكرمة، فدمّر قبر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وقبر أبي طالب، وقبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ وغيرها، وترافق مع احتلال المدينة المنورة من قبل آل سعود تهجير لسكانها بحيث لم يبق من بين 70ـ80 ألفاً سوى ستة آلاف، بعد خمسة عشر شهراً من الحصار السعودي لها، وقد وصفت

المدينة فور سقوطها بأن [الشوارع والأزقّة فارغة والبيوت مهدّمة، وملامح الإعياء بادية ظاهرة وكأن الزلزال أصابها]، ووصف أحدهم البقيع فور تدميره أواخر 1925، وبداية 1926م بقوله: (حين دخلتُ إليه وجدتُ منظره منظر بلدة قد خربت عن آخرها. لم يكن في أنحاء المقبرة كلها ما يمكن أن يشاهد سوى أحجار مبعثرة وأكوام صغيرة من التراب لا حدود لها، وقطع من الخشب.. كان ذلك أشبه بالبقايا المبعثرة لبلدة أصابها الزلزال فخربها كلها.. كان كل شيء عبارة عن طرق وعرة تتخللها مواد الأبنية المهدمة وشواهد القبور المبعثرة. لم يحدث هذا بفعل الزمن وعوارض الطبيعة، بل صنعته يد الإنسان عن عمد وتقصد) (1)

2ـ الآثار ودورها في التعريف بأعلام الدين:

مثلما كان للآثار دورها في التعريف بأعلام السياسة والحرب من أمثال الإسكندر المقدوني وكورش الفارسي ورمسيس الثاني؛ فقد كان للآثار أيضا دورها في التعريف بأعلام الدين من علماء وقديسين وصالحين، ولهذا نجد في كل الأديان مقامات وأضرحة وشواهد خاصة بهؤلاء، ونجد بجانبها كتابات تعرف بهم، وموالد تحيي المناسبات التي تذكر بأعمالهم.

ذلك أن من طباع الإنسان الميل للمحسوس؛ فهو لا يكتفي بالمعرفة النظرية، بقدر ما يتوق إلى شواهد حسية تبرز ذلك المعنى النظري في قالب حسي.

وقد أشار إلى هذا المعنى القرآن الكريم عند ذكره لأهل الكهف؛ قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]، وقد أقره القرآن الكريم، ولم ينكره عليهم، مع أن السكوت عن البيان وقت الحاجة لا يجوز كما ينص الأصوليون.

وقد ذكر المفسرون أن السبب الذي دعا الموحدين إلى ذلك الاقتراح هو حفظ مكانهم ومكانتهم وما حصل لهم حتى تذكرهم الأجيال القادمة، ويكون ذلك آية لها، كما كان آية للمعاصرين،

---

(1) ماذا ابقى الوهابيون من تراث المسلمين في الحجاز؟.

يقول ناصر مكارم الشيرازي: (لأجل إسكات الناس عن قصّتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيراً، إِنَّ قضيتهم معقدة ومصيرهم محاط بالألغاز، لذلك فإِن: (ربّهم أعلم بهم). أي اتركوهم وشأنهم واتركوا الحديث في قصّتهم، أمّا المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر واعتبروه دليلا حيّاً لإِثبات المعاد بعد الموت، فقد جَهدوا على أن لا تُنسى القصة أبداً لذلك اقترحوا أن يتخذوا قرب مكانهم مسجداً، وبقرينة وجود المسجد فإِنَّ الناس سوف لن ينسوهم أبداً، بالإِضافة إلى ما يتبرك بهِ الناس مِن آثارهم)[1]

ولهذا نجد عند العامة تاريخا مختلفا تماما عن التاريخ السياسي الذي تمتلئ به كتب التاريخ، والممتلئ بالصراع والدماء، والذي يملأ النفوس باليأس والقنوط والأسوة السيئة، على عكس التاريخ المرتبط بأعلام الدين، والذي يحظ على الاقتداء بهم، والتأسي بصلاحهم وتقواهم، ولعل هذا هو السر الذي دعا إبراهيم عليه السلام لأن يدعو الله بقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: 84]، لأن ذكره سيفيد في الاقتداء والسلوك، بخلاف الملوك والسلاطين والمستبدين.

وعندما نخرج إلى الواقع وفي جميع الدول الإسلامية ـ ما عد تلك التي خربت الوهابية عقولها، ودمرت آثارها ـ نرى الكثير من الأعلام الذين لم يحفظ العوام أسماءهم، وتواريخهم، وتفاصيل حياتهم لولا تلك الآثار التي تدل عليهم.

فعوام المصريين ـ مثلا ـ لا يعرفون أسماء أكثر الحكام الذين تداولوا على حكم مصر من أمثال الحافظ لدين الله، والظافر بأمر الله، والفائز بنصر الله، والعاضد لدين الله، وغيرهم من الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر، وهكذا لا يعرفون صلاح الدين الأيوبى، ولا الملك العادل، ولا نجم الدين أيوب، ولا غيرهم من الملوك الأيوبيين، ولا يعرفون عز الدين أيبك، ولا سيف الدين قطز، ولا الظاهر بيبرس، ولا غيرهم من المماليك.. في نفس الوقت الذي يعرفون الكثير من العلماء والأولياء وخصوصا من أهل البيت، والذين لا يكتفون بمعرفهم فقط، بل نجدهم يذكرون

---

[1] () تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، الطبعة: الأولى، 1426 هـ، (9/ 226)

الكثير من الكرامات المرتبطة بهم، ويعرفون جزءا مهما من تاريخهم، والذي مع كونه قد يكون مختلطا ببعض الأساطير، لكنه يحمل الكثير من الأحداث الصحيحة، والمعاني الصالحة للاقتداء.

ووفقا لبعض الدراسات الاجتماعية المتخصصة فإن عدد الأضرحة والمقامات في مصر، والتي يمثل كل مقام منها وليا من الأولياء، أو عالما من العلماء، يبلغ نحو 6 آلاف ضريح، (وهو عدد يفوق عدد القرى والمدن المصرية، غير أن ما اشتهر من هذه الأضرحة نحو 1000 ضريح، يوجد منها في العاصمة القاهرة وحدها 294 ضريحاً من أشهرها [الحسين ــ السيدة زينب ـ والسيدة نفيسة]، فيما تتوزع البقية على باقي المدن والمحافظات، فعلى سبيل المثال يوجد في مركز فوّة ــ محافظة كفر الشيخ ـ 81 ضريحاً وفي مركز طلخا ــ محافظة الدقهلية ـ 54 وفي مركز دسوق 84 وفي مركز تلا 133 كما يوجد في أسوان ـ أقصى جنوب مصر ـ أحد المشاهد يسمى مشهد السبعة وسبعين ولياً)(1)

ومن الأضرحة المشهورة في مصر، والتي يحج إليها الناس من كل المدن المصرية، بل حتى من غيرها، ويقيمون فيها الموالد، ضريح الإمام الحسين، وضريح السيدة زينب، وضريح السيدة عائشة بنت الإمام جعفر الصادق، وضريح السيدة سكينة، وضريح السيدة نفيسة، وضريح الإمام الشافعي، وضريح الليث ابن سعد، وهي كلها في القاهرة.

أما خارج القاهرة، فتشتهر أضرحة الشيخ أحمد البدوي بطنطا، وإبراهيم الدسوقي بدسوق، وأبي العباس المرسي بالإسكندرية، وأبي الدرداء بها أيضاً، وأبي الحسن الشاذلي بقرية حميثرة بمحافظة البحر الأحمر، وأحمد رضوان بقرية البغدادي بالقرب من الأقصر، وأبي الحجاج الأقصري بالأقصر أيضاً، وعبد الرحيم القنائي بقنا.. وغيرها كثير.

وقد وصف بعض الباحثين كثرة الأضرحة في مصر، ومدى

---

(1) انظر مقالا بعنوان: الأضرحة في مصر.. مصلحة سياسية ودور اجتماعي، أسامة الهتيمي – كاتب مصري، موقع الراصد، الخميس 22 يناير 2015، وانظر: د سعاد ماهر فهمي، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج1 ص 44.

اهتمام المصريين بها؛ فقال: (وأضرحة الأولياء التي تنتشر في مدن مصر ونحو ستة آلاف قرية هي مراكز لإقامة الموالد للمريدين والمحبين، ويمكننا القول: إنه من الصعب أن نجد يوماً على مدار السنة ليس فيه احتفال بمولد ولي في مكان ما بمصر)[1]

بل إن الأمر وصل إلى حد تهكم المصريين وسخريتهم من القرى التي تخلو من الأضرحة، ويعتبرونها خالية من البركة؛ فقد ذكر الدكتور زكريا سليمان بيومي أن القرى التي تخلو من أضرحة الأولياء من أمثال (بِيّ العرب) و(أبو سنيطة) و(ميت عفيف) والتي تنمتي إلى مركز الباجور منوفية، كانت مثار سخرية من القرى المجاورة، حيث أطلقوا عنها (أمثلة شعبية تدل على بخل هذه القرى وخلوها من البركة، وهي ما زالت سارية بين الناس حتى الآن)[2]

وهكذا الأمر في بلاد الشام، حيث أحصى عبد الرحمن بك سامي سنة (1890م) في دمشق وحدها 194ضريحاً ومزاراً، بينما عد نعمان قسطالي المشهور منها 44 ضريحاً، وذكر أنه منسوب للصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبراً، لكل واحد منها قبة ويزار ويتبرك به.

وفي الآستانة عاصمة السلطنة العثمانية كان يوجد 481 جامعاً يكاد لا يخلو جامع فيها من ضريح، أشهرها الجامع الذي بني على القبر المنسوب إلى أبي أيوب الأنصاري في الآستانة (القسطنطينية).

وفي الهند يوجد أكثر من مئة وخمسين ضريحاً مشهوراً يؤمها الآلاف من الناس.

وفي بغداد كان يوجد أكثر من مئة وخمسين جامعاً في أوائل

---

[1] () موالد مصر المحروسة: بين الماضي والحاضر، عرفة عبده علي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995، ص7.

[2] () انظر: الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر المعاصرة ـ دراسة تاريخية توثيقية 1903 – 1983 م ـ د. زكريا سليمان بيومي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1992، ص126.

القرن الرابع عشر الهجري، وقلّ أن يخلو جـامع منهـا من ضـريح، وفي الموصل يوجد أكثر من ستة وسـبعين ضـريحاً مشـهوراً كلهـا داخل جوامع، وهذا كلـه بخلاف الأضـرحة الموجـودة في المسـاجد والأضرحة المفردة (1)

وفي معظم مناطق أوزبكستان كثير من الأضـرحة المنسـوبة إلى الصـحابة والمشـائخ ورجـال العلم والأوليـاء، وأصـبحت هـذه القبـور مـزارات يفـد إليهـا مريـدوها جماعـات وأفـراداً، يـدعون ويبكون، ومن أهم تلـك المـزارات ضـريح قثم بن العبـاس ابن عم الرسول ﷺ في سمرقند، وضريح البخاري في قرية خرتنك(2).

وهكذا الأمر في الجزائر، حيث كشفت دراسة تناولت وضعية القبب والأضرحة والأولياء في الجزائر، أن في المدن الجزائرية ما لا يقـل عن 6 آلاف ضـريح، وذكـر البـاحث الـذي أجـرى الدراسـة الأسـتاذ عمــر بن عيشــة، أن رقم 6 آلاف تخص فقــط الأضــرحة الكبيرة والمعروفة عبر الوطن، لأن بعض الولايات، نجـد بهـا مـا لا يقل عن 350 ضريح (3).

3ـ الآثار ودورها في الاستبصار بحقائق التاريخ:

من الأدور المعرفيــة المهمــة المرتبطــة بالآثــار دورهــا في التعريف ببعض الأحداث التاريخية المتعلقة بالصـالحين، والـتي قـد يسدل عليها ستار الإهمال والنسـيان؛ فلا تجـد مـا يحفظهـا سـوى تلك المعالم الأثرية.

ومن الأمثلة على ذلك مـا ورد في القـرآن الكـريم من الأمـر بالسعي بين الصفا والمروة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَــرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَـا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]، فقد اعتـبر القرآن الكريم الصفا والمروة من شعائر الله التي يجب تعظيمهـا،

1() انظر دراسة بعنوان: القبور والأضرحة دراسة وتقويم، خالد محمد حامد.

2() انظـر: (مسـلمو أوزبكسـتان)، لعبـد الـرحمن محمـد العسـيري، مجلـة (دراسـات إسلامية) العدد الأول سنة 1418هـ، ص217، 218.

3() دراسة حول المزارات تكشف: 6 آلاف ضريح تدرّ الملايير، زهية. م، جريدة الشروق الجزائرية، 3/3/2016.

بل لا يتم الحج إلا بها.

وهذا طبعا سيدعو كل ممارس لهذه الشعيرة للبحث عن سر ذلك السعي وعدده، وسيجاب طبعا بتلك الحادثة التي وقعت في التاريخ، والتي سيدعوه البحث المفصل فيها على التعرف على الجهود العظيمة التي قام بها إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام في الدعوة إلى الله، والتضحيات التي بذلوها في سبيل ذلك.

ولو أن السلفية اكتفوا بما ورد في حق هذه الشعيرة وسببها، لخففوا من غلوهم، ولما تجرؤوا على التعامل مع المزارات الدينية بتلك المعاملات الناشئة عن الجهل المركب بحقيقة التوحيد والفرق بينه وبين الشرك، وإلا فإننا لو طبقنا مقاييسهم كان السعي بين الصفا والمروة نفسه شركا، خاصة وأن كليهما حجارة من نفس الحجارة التي كانت تنتحت بها الأصنام في مكة المكرمة.

وقد صرح الشيخ ابن عثيمين، وهو من أعلام السلفية المعاصرين، الذين أفتوا وبرروا لكل تلك الجرائم التي لحقت المزارات الدينية في الحرمين الشريفين وغيرهما، بأن السعي بين الصفا والمروة مرتبط بتلك الحادثة التاريخية؛ فقال: (أصل السعي أن يتذكر الإنسان حال أم إسماعيل، فإنها لما خلَّفها إبراهيم عليه الصلاة والسلام هي وابنها في هذا المكان، وجعل عندها سقاءً من ماء، وجراباً من تمر، فجعلت الأم تأكل من التمر وتشرب من الماء، وتسقي اللبن لولدها، فنفدَ الماء ونفد التمر، فجاعت وعطشت، ويبس ثديها، جاع الصبي، وجعل يتلوى من الجوع، فأدركتها الشفقة، فرأت أقرب جبل إليها الصفا فذهبت إلى الصفا، وجعلت تتحسس لعلها تسمع أحداً، ولكنها لم تسمع، فنزلت إلى الاتجاه الثاني إلى جبل المروة، ولما هبطت في بطن الوادي نزلت عن مشاهدة ابنها، فجعلت تسعى سعياً شديداً، حتى تصعد لتتمكن من مشاهدة ابنها، ورقيت لتسمع وتتحسس على المروة، ولم تسمع شيئاً، حتى أتمت هذا سبع مرات ثم أحست بصوت، ولكن لا تدري ما هو، فإذا جبريل نزل بأمر الله عزّ وجل،

فضرب بجناحه أو برجله الأرض مكان زمزم الآن)[1]

ولو طبقنا هذا التصريح من الشيخ ابن عثيمين على كل ما يقوم به الصوفية والشيعة وغيرهم في حق الأولياء والصالحين، لم نر أي فرق في ذلك؛ فكيف يحكم بالشرك على سلوكات يعتبرها فرضا وواجبا وركنا دينيا في محل آخر؟ وهل أمرنا الله تعالى عند سعينا بين الصفا والمروة بالشرك؟

ومثل ذلك نجد ما ورد في أحكام شعائر الحج من رمى الجمار، والمرتبط أيضا ـ حسبما تدل عليه روايات الفريقين السنة والشيعة ـ على ما فعله إبراهيم عليه السلام، ففي الرواية عن الإمام علي والإمام السجاد والإمام الكاظم عليهم السلام، أن علة رمي الجمرات هي مواجهة نبي الله إبراهيم عليه السلام الشيطان حينمى أراد أن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام[2].

وروي في المصادر السنية عن ابن عباس مرفوعاً قال: (لما أتى إبراهيم خليل الله عليه السلام المناسك، عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصيات، حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصيات، حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له في الجمرة الثالثة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض. قال ابن عباس: الشيطان ترجمون، وملة أبيكم تتبعون)[3]

وقد ذكر أبو حامد الغزالي هذا المعنى عند ذكره لما يستشعره رامي الجمار؛ فقال: (ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله؛ فإن خطر لك أن الشيطان

1() انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، 1422 - 1428 هـ (7/269)

2() بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة محمد باقر المجلسي، احياء الكتب الإسلامية، ج 96، ص 39.

3() المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 - 1990 (1/ 638)، وقال: (صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)

عــرض لــه وشــاهده فلــذلك رمــاه، وأمــا أنــا فليس يعــرض لي الشيطان فاعلم أن هذا الخـاطر من الشـيطان، وأنـه الـذي ألقـاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي، ويخيل إليـك أنـه فعـل لا فائـدة فيه، وأنه يضاهي اللعب؛ فلم تشتغل به فاطرده عن نفسك بالجــد والتشمير في الـرمي فيـه بـرغم أنـف الشـيطان، واعلم أنـك في الظاهر تـرمي الحصـى إلى العقبـة وفي الحقيقـة تـرمي بـه وجـه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمـر من غـير حـظ للنفس والعقل فيه)[1]

وهكــذا إذا تركنــا هــذه الشــعائر المتفــق على تعظيمهــا بين المسلمين جميعا، فإننا نجد في المعالم التاريخية الكثير من الآثــار التي تدل على أحداث تاريخية دينية مهمـة، يشـكل التعـرف عليهـا والبحث فيها أحسن وسيلة لاستبصار الحقائق.

ولعل أهمها تلك الفاجعة العظيمة التي حلت بأهل بيت النبوة عنـد ثـورهم على الظلم والاسـتبداد، ومـا حصـل لهم من الملاحم والمآسي في كـربلاء، لكن اللـه شـاء أن يخلـد ذكـرهم الـذي أراد الطغاة طمسه؛ فقد ورد في الحديث عن زينب الكبرى، أنها قالت لابن أخيها وإمامها زين العابدين لمّا رأى مشهد الطفّ يومَ الحادي عشر من المحرّم قُبيلَ الرحيل من كربلاء، وقد أخـذ يجـود بنفسـه المقدّسة: (ما لي أراكَ تجودُ بنفسك يا بقيّـةَ جَـدّي وأبي وإخـوتي! فَوَ اللهِ إنّ هذا لَعهدٌ من الله إلى جَدِّك وأبيك، ولقد أخذ اللهُ ميثاقَ أُنــاسٍ لا تعـرفهم فراعنــةُ هــذه الأرض، وهم معروفــون في أهــل الســماوات، أنّهم يجمعــون هــذه الأعضــاءَ المقطّعــة، والجســومَ المضرَّجة، فيُوارونها، وينصبون بهذا الطـفّ عَلَمـاً لقـبر أبيـك سـيّدِ الشهداء لا يُدرَس أثرُه ولا يُمحى رسمه على كُرُر الليـالي والأيّـام، ولَيَجتهدَنّ أئمّـةُ الكفـر وأشـياعُ الضَّـلال في محـوه وتطميسـه، فلا يَزداد إلاّ عُلُوّاً)[2]

---

[1] () إحياء علوم الـدين، أبـو حامـد محمـد بن محمـد الغـزالي الطوسـي، دار المعرفـة – بيروت، (1/ 270).

[2] () كامل الزيارات، الشيخ ابي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي، نشر الفقاهة، ص261.

بـل إنهـا ذكـرت هـذا المعـنى بكـل ثقـة للطاغيـة يزيـد، حين واجهته بقولها: (فَكِدْ كيدَك، واسعَ سعيَك، وناصِبْ جَهَدك، فـوَ اللـهِ لا تمحو ذِكرَنا، ولا تُميت وَحْيَنا)(1)

ومن الأمثلة على ذلك أن الزائر لمرقد أولاد مسلم بن عقيـل والذي يضم محمد وإبراهيم بن مسلم ابن عقيـل الموجـود بمدينـة المسيب (2) بالعراق، سيتساءل عن سر ذينك القبرين، وسيتعرف من خلال ذلك على الجرائم التي ارتكبهـا الأمويـون في حـق أهـل البيت حتى الصغار منهم.

وهكذا عندما يرى الزائر مقـام كفي أبي الفضـل العبـاس(3)، فإنه سيتسـاءل عن سـر دفنهمـا لوحـدهما، وسـيتعرف من خلالهـا على تلك التضحية التي قام بها في مواجهة الطغيان الأمــوي، وإن كان له مزيد فضول، فسيكون ذلـك مقدمـة لاستبصـار الكثـير من الأحداث التاريخية التي حاول الساسة على مـدار التـاريخ تغطيتهـا وإسدال ستار الإهمال عليها.

ثانيا ـ المزارات الدينية.. وأدوارها التربوية

لا يقتصر الدور المرتبط بالمزارات الدينية على الدور العلمي والمعرفي، بل يتعداه إلى أدوار كثيرة ترتبط بالتربية والإصلاح، بل لعلها هي المقصودة بالدرجة الأولى، ولـذلك ربـط القـرآن الكـريم الحج بـالتقوى؛ فقـال: ﴿الْحَجُّ أَشْـهُرٌ مَعْلُومَـاتٌ فَمَنْ فَـرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَـا تَفْعَلُـوا مِنْ خَيْـرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَـاأُولِي الْأَلْبَـابِ﴾

1() بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طـاهر ابن طيفـور، صـححه وشـرحه: أحمـد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، 1326 هـ - 1908 م، ص21.

2() يقع مرقد أولاد مسلم بن عقيل على الضفّة الشرقيّة من نهـر الفـرات قـرب مدينـة المسيب والتي تبعد 42 كم عن مدينة الحلة و30 كم عن مدينة كـربلاء، ورغم قـرب منطقـة أولاد مسلم من مدينة المسيب الا انها تتبع إداريا لمدينة الإسكندرية..

3() كف العباس أو مقام كف العباس، يطلق على مكـانين؛ قيـل أنـه قطعت فيهمـا كفّـا أبي الفضل العباس عليه السلام، وقد عرف المكانان بمقام كف العباس الأيمن ومقـام كـف العباس الأيسر، وهما يقعان في الشمال الشرقي والجنوب الغربي خارج حرم العبـاس عليـه السلام في مدخل زقاق السوق الذي يقرب من المرقد. تحوّل هـذان المكانـان إلى مـزارين شيدا بصورة رمزية، انظر: سلمان هادي آل طعمة، تراث كربلاء، نشـر: مشـعر، د م، 1393 ش، ص 129، وأحمد العلوي، الدليل المصور لرحلات العتبات المقدسة في العراق.

[البقرة: 197]

ولعل ذلك يكمن بالإضافة إلى بركـات المكـان وقدسـيته إلى اجتمـاع الكثـير من النـاس، ومن صـالحيهم وعلمـائهم في محـل واحد، بحيث يرى الزائر إلى الأمـاكن الـتي يعتقـد قدسـيتها مـا لم يكن يـراه في بلـده، ولعلـه يعـود بطبـاع جديـدة، وأحـوال نفسـية جديدة لم يكن ليظفر بها لولا رحلته إلى تلك الأماكن.

بالإضافة إلى ذلـك؛ فـإن للتهيئـة النفسـية دورهـا في تحقيـق البعد التربوي والإصلاحي؛ فالزائر الذي يعتقـد قدسـية الآثـار الـتي يزورها يجد نفسه يحاول الالتزام قدر الإمكان ليعطي ذلك المكان حقه من الاحترام، كمـا أشـار إلى ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ذَلِـكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْـوَى الْقُلُـوبِ ﴾ [الحج: 32]، وقولـه: ﴿وَلِكُـلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَـا مَنْسَـكًا لِيَـذْكُرُوا اسْـمَ اللَّهِ عَلَى مَـا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَـةِ الْأَنْعَـامِ فَـإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ فَلَـهُ أَسْـلِمُوا وَبَشِّـرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: 34]

بنـاء على هـذا سـنحاول في هـذا المبحث بيـان بعض الأدوار التربوية والإصلاحية للمـزارات الدينيـة، وذلـك من خلال المطـالب التالية:

1ـ الآثار ودورها في الاعتبار بمهالك المنحرفين:

كمـا يرتبـط التـاريخ الـديني بالأنبيـاء والأئمـة والصـالحين والمتقين؛ فإنـه يرتبـط كـذلك بالعتـاة والمسـتبدين والمجـرمين، ولذلك فـإن الآثـار الـتي تنبـه إلى حسـنات الصـالحين، هي نفسـها الآثار التي تدل على جـرائم المسـتبدين، والآثـار الـتي تغـرس قيم الصلاح، وتحبب فيها، هي نفسها الآثـار الـتي تزيـل قيم الانحـراف، وتنفر منها.

ولهـذا يـرد في القـرآن الكـريم الـدعوة للسـير في الأرض، والاعتبار بما حصل للمسـتبدين الظلمـة، كمـا قـال تعـالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْـمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُـوبُ الَّتِي فِي الصُّـدُورِ ﴾ [الحج: 46]، وقال: ﴿ قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل: 69]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: 9]

وعندما ذكر قوم لوط عليه السلام، وما حصل لهم من الهلاك بسبب إعراضهم عن نبيهم، دعا المشركين إلى اعتبار بمهالكهم التي يمرون عليها أثناء رحلتهم إلى الشام، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (138)ـ ﴾ [الصافات: 133 - 139]

ولهذا أمر رسول الله ﷺ عند المرور بتلك الآثار الدالة على الإعراض عن الأنبياء إلى البكاء والاعتبار، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد من الروايات في ديار ثمود التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: 80]، والتي كانت معروفة للعرب في ذلك الحين، كما قال ياقوت الحموي: (والحِجْر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، قال الإصطخري: الحجر قرية صغيرة قليلة السكان، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال، وبها كانت منازل ثمود، قال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾، قال: ورأيتها بيوتا مثل بيوتنا في أضعاف جبال، وتسمى تلك الجبال الأثالث، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متصلة، فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها، يطوف بكل قطعة منها الطائف وحواليها الرمل، لا تكاد ترتقى كل قطعة منها قائمة بنفسها، لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾)[1]

وقال ابن كثير: (وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها

1() معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م، 2/221.

كثيراً)[1]

فقد ورد في الحديث عن عبد الله بن عمر قال: (لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم: أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين)، ثم قنع رأسه، وأسرع السير، حتى جاز الوادي)[2]

بل ورد ما هو أكبر من ذلك؛ فعن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره: أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود الحجر فاستقوا من بئرها واعتجنوا به فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة)[3]

فهذا الحديث يشير إلى بعد تربوي مهم، وهو النفور من آثار المفسدين، وعدم الإعجاب بها، أو الانفعال الإيجابي معها، لأن ذلك قد يحبب الزائر فيها وفي أهلها المجرمين، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى موبخا: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: 45]

وهذه النصوص المقدسة لا تنهى عن الزيارة، وإنما تنهى عن الإعجاب والتأثر والولاء للمفسدين وعدم البراءة منهم، كما أشار إلى ذلك ابن الجوزي عند شرحه لمعنى البكاء في قوله ﷺ: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين)، فقد قال: (إنما ينشأ البكاء عن التفكر، فكأنه أمرهم في التفكر في أحوال توجب البكاء)[4]

1() تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م، 6/278.

2() الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 6 /ـ 270، والمسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي – بيروت، رقم (2980)

3() رواه البخاري 3379.

وبذلك فإن الزائر للآثار الرومانية أو المصرية أو غيرها من الآثار الممتلئة بالهيبة، لا يصح أن يغفل هذا الجانب الذي أشار إليه رسول الله ﷺ؛ فرسول الله ﷺ لم يأمر بتخريب الآثار مثلما فعل الوهابية، أو مثلما فعلت سليلتها داعش والقاعدة، وإنما أمر بالاعتبار بها، وتذكر المستضعفين والصالحين الذين أصابهم ما أصابهم من البلاء فيها.

2ـ الآثار ودورها في الارتباط الروحي بالصالحين:

وهي من الأدوار المهمة جدا، والتي تحقق معنى من معاني المحبة في الله، والتي ورد في النصوص المقدسة الكثيرة الثناء عليها، ففي الحديث الذي ذكر فيه رسول الله ﷺ (السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله): (ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه)(1)، وقال ﷺ: (إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)(2)

وزيارة الأولياء والصالحين من هذا النوع، ذلك أنه ليس فيها أي مصلحة للزائر سوى تلك المحبة النابعة من قلبه لهم بحكم كونهم صالحين، وهو معنى المحبة في الله الخالية من أي غرض؛ فليس من شرط المحبة في الله كون المتحابين أحياء كما قد يتوهم.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يكثر من زيارة جبل أحد، وهو المكان الذي استشهد فيه عمه وحبيبه حمزة بن عبد المطلب، كما استشهد فيه خيرة الصحابة المنتجبين، وكان ﷺ من فرط محبتهم لهم يحب الجبل الذي دفنوا فيه، كما ورد في الحديث الذي رواه أنس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم راجعا وبدا له أحد، قال: (هذا جبل يحبنا ونحبه)(3)

4() كشف المشكل من حديث الصحيحين، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض، 2/483.

1() رواه البخاري برقم 660 ومسلم برقم 1031.

2() رواه مسلم برقم 2566.

وفي حديث آخر دعوة للتبرك بما في أشجاره من ثمار، قال ﷺ: (أحد جبل يحبنا ونحبه فإذا جئتموه فكلوا من شجره ولو من عضاهه)(1)

وفي الحديث أن زينب بنت نبيط زوجة أنس كانت ترسل ولائدها إلى أحد، ليحضروا لها من نباته، ولو من عضاهه، لأنها سمعت أنسا يذكر الحديث السابق (2).

وفي كل هذا ردود بليغة على موقف التيار السلفي من الآثار، فالنبي ﷺ لم يكن يحب فقط أولئك الصحابة الذين دفنوا في أحد، وإنما كان يحب أيضا الجبل الذي كان يأويهم، كما قال الشاعر معبرا عن ذلك:

أمر على الديار ديار ... أقبل ذا الجدار وذا
وما حب الديار ... ولكن حب من سكن

وليس الأمر قاصرا على تلك الأحاديث، بل ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى هذا المعنى الذي يريد السلفية إزالته من عقائد المسلمين وسلوكاتهم التي تربطهم بالصالحين، فقد قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]

وقد ذكر النووي ما يشير إلى معنى من معاني هذه الآية الكريمة؛ فنقل عن العتبي قوله: (كنتُ جالساً عند قبر النبيّ ﷺ، فجاء أعرابيٌّ فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعتُ الله تعالى يقول: (وَلَوْ أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) [النساء: 64] وقد جئتُك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

3() رواه البخاري 4 / 69 - 72، ومسلم رقم (1365) و(1366) و(1367)

1() المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، (رقم 1905).

2() المرجع السابق.

يا خيرَ مَنْ دُفنتْ		فطابَ من طيبهنَّ

نفسي الفداءُ لقبرٍ		فيه العفافُ وفيه

قال: ثم انصرفَ، فحملتني عيناي فرأيت النبيَّ ﷺ في النوم فقال لي: (يا عُتْبيّ، الحقِ الأعرابيَّ فبشِّره بأن الله تعالى قد غفر له)(1)

ولهذا ورد في الأحاديث عن رسول الله ﷺ ما يدل على فضل زيارته، وهي أحاديث كثيرة ترد على التيار السلفي المتشدد الذي يقول بتحريم الزيارة، وبدعيتها، بل إنه يعتبر زيارة الأضرحة شركا جليا مخرجا من الملة، ويعتبر صاحبه قبوريا، يقول تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي ردا على ابن تيمية: (إنّ الأحاديث التي جمعناها في الزيارة بضعة عشر حديثاً ممّا فيه لفظ الزيارة غير ما يستدلّ به لها من أحاديث أُخر، وتضافر الأحاديث يزيدها قوة، حتى أنّ الحسن قد يرتقي بذلك إلى درجة الصحيح.. وبهذا بل بأقلّ منه، يتبيّن افتراء مَن ادّعى أنّ جميع الأحاديث الواردة في الزيارة، موضوعة، فسبحان الله!! أما استحيا من الله ومن رسوله في هذه المقالة التي لم يسبقه إليها عالم ولا جاهل؟ لا من أهل الحديث، ولا من غيرهم؟ ولا ذكر أحدٌ موسى بن هلال ولا غيره من رواة حديثه هذا بالوضع، ولا اتّهمه به فيما علمنا! فكيف يستجيز مسلم أن يطلق على كلّ الأحاديث التي هو واحد منها: (أنّها موضوعة)، ولم يُنقل ذلك عن عالم قبله، ولا ظهر على هذا الحديث شيء من الأسباب المقتضية للمحدّثين للحكم بالوضع، ولا حُكم متنه ممّا يخالف الشريعة، فمن أي وجه يحكم بالوضع عليه لو كان ضعيفاً؟ فكيف وهو حسن أو صحيح؟)(2)

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)(3)، وقوله: (من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً

---

(1) الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 1414 هـ - 1994 م، (ص: 206)

(2) شفاء السقام في زياره خير الانام، تقي الدين السبكي، طبعه حيدر آباد، 1898، ص 79.

(3) رواه الدارقطني في سننه، والحكيم والترمذي في النوادر، وغيرهما، قال الحافظ السيوطي في المناهل عنه (208): (له طرق وشواهد حسَّنه لأجلها الذهبي، وقال المناوي

وشهيداً يوم القيامة)(1)، وقوله: (ليهبطن عيسى بن مريم حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، وليسلكن فجاً حاجاً أو معتمراً أو بنيتيهما، وليأتين قبري حتى يسلم علي ولأردن عليه)(2)، وفي رواية: (والذي نفس أبي القاسم بيده لينزلن عيسى بن مريم، إماماً مقسطًا، وحكماً عدلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليصلحن ذات البين، وليذهبن الشحناء، وليعرضن عليه المال فلا يقبله، ثم لئن قام على قبري فقال: يا محمد لأجبته)(3)

وبناء على هذا اشتدت مواقف المحققين من علماء المذاهب الأربعة من ابن تيمية ومدرسته التي خالفت الأمة جميعا في موقفها من زيارة الأضرحة، واعتبارها بدعة، وقد قال الحافظ ابن حجر يشير إلى ذلك: (والحاصل أنهم [أي العلماء] ألزموا ابن تيمية بتحريم شدِّ الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله ﷺ.. وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية)(4)

وقال الحافظ أبو زرعة العراقي في بعض أجوبته المسماة (الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية) عند الكلام على المسائل التي انفرد ابن تيمية بها: (وما أبشع مسألتي ابن تيمية في الطلاق والزيارة، وقد رد عليه فيهما معاً الشيخ تقي الدين السبكي، وأفرد ذلك بالتصنيف فأجاد وأحسن)(5)

وقال في (طرح التثريب): (وللشيخ تقي الدين ابن تيمية هنا

في (فيض القدير) (6/140): (قال الذهبي: طرقه لينة، لكن يقوي بعضه بعضاً)، وقال الملا علي القاري في (شرحه على الشفا 3/842): (حديث ابن عمر له طرق وشواهد حسنه الذهبي لأجلها، وصححه جماعة من أئمة الحديث)

1() البيهقي في شعب الإيمان (3/488)، وحمزة بن يوسف السهمي في تاريخ جرجان (ص434) ومن طريقه السبكي في شفاء السقام (ص35).

2() رواه الحاكم في المستدرك (2/595)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، وسلمه الذهبي..

3() أبو يعلى الموصلي في مسنده (حديث رقم 6584)، وقال الهيثمي في تخريجه في (مجمع الزوائد: 8/211): (رجاله رجال الصحيح).

4() فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، 1379، (5/66)

5() الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية، الحافظ ولي الدين العراقي، دراسة وتحقيق محمد تامر، مكتبة التوعية الإسلامية، مصر، ص96.

كلام بشع عجيب يتضمن منع شد الرحل للزيارة، وأنه ليس من القرب، بل بضد ذلك، ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في شفاء السِّقام فشفى صدور قوم مؤمنين)[1]

ومن المعاصرين قال العلامة المحدث محمود سعيد ممدوح في كتابه (رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة): (شاع بين كثير من الناس أن أحاديث الزيارة كلها ضعيفة، بل موضوعة وهو خطأ بلا ريب، ومصادمة لقواعد الحديث بلا مين)[2]

وفي مقابل ذلك الموقف من التيار السلفي نجد الأمة جميعا تنظر إلى تلك المشاهد نظرة أخرى، فهي تجعلها وسيلة لتذكر الأنبياء والأولياء والصالحين، والسير على هداهم، وقد قال الإمام الخميني مشيرا إلى المعاني التي على الزائر تذكرها أثناء زيارته للحرمين الشريفين: (مما يجب أن يلتفت اليه الحجاج المحترمون أن مكة المكرمة والمشاهد المشرفة مرآة لأحداث نهضة الأنبياء والإسلام ورسالة النبي الكريم ﷺ؛ فتعتبر كل نقطة من هذه الأرض محلًا لنزول وإجلال الأنبياء العظام وجبرائيل الأمين ومذكرة بمشاق ومحن النبي العظيم ﷺ التي تحملها في سبيل الإسلام والبشرية)[3]

ويذكر البعد العملي المتولد من تلك المشاعر الإيمانية العميقة؛ فيقول: (والحضور في هذه الأمكنة المقدسة وأخذ الظروف القاسية للبعثة النبوية بعين الاعتبار يرشدنا إلىعظم المسؤولية التي تقع على عواتقنا للمحافظة علىمنجزات هذه النهضة والرسالة الالهية؛ فكم أبدىالنبي الكريم ﷺ وأئمة الهدى (ع) من مثابرة وصمود في تلك الظروف لإرساء دعائم الدين القويم وإمحاق الباطل، ولم ترعبهم تهم وطعن وإهانات (أبي لهب) و(أبي جهل) وأبي سفيان) وأمثالهم، وواصلوا طريقهم ولم

---

[1] () طرح التثريب في شرح التقريب، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم العراقي، دار إحياء التراث العربي، (6 / 43)

[2] () رفع المنارة لتخريج احاديث التوسل والزيارة، محمود سعيد ممدوح، المكتبة الازهرية للتراث، ص 10 - 11.

[3] () صحيفة الإمام، الإمام الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، ج20، ص: 279.

يستسلموا في أحلك الظروف ووطأة الحصار الاقتصادي الشديد في شعب أبي طالب، وشمروا عن سواعد الجد لإبلاغ الرسالة الالهية بعد تحمل الصعاب في مسار دعوة الحق، وأداموا طريق الهداية والرشد بحضورهم في الحروب المتتالية وغير المتكافئة والكفاح إزاء آلاف المؤامرات حيث امتلأت صخور وصحاري وجبال وأزقة وأسواق مكة والمدينة بالشغب والغوغاء، فلو نطقت وكشفت النقاب عن سرّ تحقق قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112] لوقف زائروا بيت الله الحرام على مقدار عناء رسول الله ﷺ لهدايتنا وبلوغ المسلمين الجنة، ولأدركوا العبء الملقى علىكاهل أتباعه)[1]

3ـ الآثار ودورها في التوجه الروحي إلى الله:

وهو متفرع مما سبق، ذلك أن الارتباط الروحي بالنبي ﷺ والأئمة المطهرين وجميع الأولياء والصالحين ـ عبر تقديس آثارهم وتعظيمها ـ يثمر التوجه الروحي إلى الله، ذلك أن علاقة الزائر بهم ليست سوى نوع من المحبة والولاء في الله، ولذلك؛ فإن أول ثمارها هي رفع الزائر وترقية روحه إلى المراتب الرفيعة في سلم السلوك إلى الله.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الزائر عادة، وفي تلك الأجواء الروحية الجماعية العالية، يؤدي الكثير من الشعائر التعبدية، كالإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ، وقراءة القرآن الكريم، وقراءة الكثير من الزيارات، وهي كلها ممتلئة بالمعاني الإيمانية العالية.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في المصادر الشيعية عن كيفية السلام على رسول الله ﷺ عند زيارته، وهو ممتلئ بالمعاني الإيمانية العميقة؛ حيث يقول الزائر بعد السلام: (أشهد انك قد بلغت الرسالة، وأقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وعبدت الله مخلصا حتى أتاك اليقين، فصلوات الله عليك ورحمته وعلى اهل بيتك الطاهرين)، وكلها معان صحيحة شرعية، لا يجادل فيها أحد.

---

[1]() المرجع السابق، ج20، ص: 279.

وهكذا نرى كل صيغ الزيارة مملوءة بالتوحيد على عكس ما يذكره ابن تيمية وغيره من السلفية، والذين يصرفون الناس عن قبر الرسول ﷺ بحجة كون ذلك شركا مع أن الزائر في ذلك الحين يقرأ أمثال هذه الزيارة: (أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، واشهد انك رسول الله، وانك محمد بن عبد الله، واشهد انك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لامتك، وجاهدت في سبيل الله، وعبدت الله حتى اتاك اليقين بالحكمة والموعظة الحسنة، واديت الذي عليك من الحق، وانك قد رؤفت بالمؤمنين، وغلظت على الكافرين، فبلغ الله بك افضل شرف محل المكرمين، الحمد لله الذي استنقذنا بك من الشرك والضلالة)(2)

وهكذا نرى الروايات الكثيرة عن أئمة أهل البيت في تعليم كيفية الزيارة وآدابها وأدعيتها، وكلها مما يساهم في الترقي الروحي، ذلك أن تلك الزيارات ليست سوى وسيلة من وسائل التربية الروحية، ففي الحديث عن أبي محمد عبد الله بن محمد العابد قال: سألت مولاي أبا محمد الحسن بن علي في مسير له بسر من رأى سنة خمس وخمسين ومائتين أن يملي علي الصلاة على النبي وأوصيائه عليه وعليهم السلام، وأحضرت معي قرطاسا كبيرا فأملى علي لفظا من غير كتاب، قال: اكتب: (الصلاة على النبي ﷺ: اللهم صل على محمد كما حمل وحيك، وبلغ رسالاتك، وصل على محمد كما أحل حلالك وحرم حرامك، وعلم كتابك، وصل على محمد كما أقام الصلاة، وأدى الزكاة، ودعا إلى دينك، وصل على محمد كما صدق بوعدك، وأشفق من وعيدك، وصل على محمد كما غفرت به الذنوب، وسترت به العيوب، وفرجت به الكروب، وصل على محمد كما دفعت به الشقاء، وكشفت به العماء، وأجبت به الدعاء، ونجيت به من البلاء، وصل على محمد كما رحمت به العباد، وأحييت به البلاد، وقصمت به الجبابرة، وأهلكت به الفراعنة، وصل على محمد كما أضعفت به الاموال، وحذرت به من الاهوال، وكسرت به الاصنام، ورحمت به الانام وصل على محمد كما بعثته بخير الاديان، وأعززت به الايمان،

---

(2) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، محمد بن الحسن بن علي الطوسي، طبعه ايران، سنه 1896، ص: 710.

وتبرت به الاوثان، وعصمت به البيت الحرام، وصل على محمد وأهل بيته الطاهرين الاخيار وسلم تسليما)(1)

ثم علمه كيفية زيارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والسلام عليه، وهي: (اللهم صل على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أخي نبيك ووليه ووصيه ووزيره، ومستودع علمه، وموضع سره، وباب حكمته، والناطق بحجته والداعي إلى شريعته، وخليفته في أمته، ومفرج الكروب عن وجهه، وقاصم الكفرة، ومرغم الفجرة، الذي جعلته من نبيك بمنزلة هارون من موسى، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من نصب له من الأولين والآخرين، وصل عليه أفضل ما صليت على أحد من أوصياء أنبيائك يا رب العالمين) (2)

وهذا الذي ذكرناه ليس خاصا بالشيعة، فللمدرسة السنية كذلك أدعية وزيارات كثيرة يذكرونها أثناء زياراتهم لمن يعتقدون فيهم الولاية والصلاح، وأولهم أئمة أهل البيت الذين تتفق الأمة جميعا على إجلالهم وتعظيمهم إلا المدرسة السلفية.

بل إن قدماء المحدثين أصحاب الكتب المشهورة التي يعتمد عليها السلفيون، لم يستنكفوا عما يفعله سائر المسلمين، ولو أن السلفية طبقوا عليهم مقاييسهم التي يطبقونها على من يطلقون عليهم [قبورية] لحكموا بكفرهم.

فمنهم المحدث الحافظ إبراهيم الحربى، الذي روى عنه الخطيب البغدادي في تاريخه قوله: (قبر معروف الترياق المجرب)(3)، وقال أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه طبقات الصوفية في ترجمة معروف الكرخي: (سمعت أبا الحسن بن مقسم المقرئ ببغداد يقول: سمعت أبا علي الصفار يقول:

1() بحار الأنوار: 91/74..

2() بحار الأنوار: 91/74..

3() تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002 م، (1 / 122)

سمعت إبراهيم بن الجزري يقول معروف الترياق المجرب)(1)

ومنهم الحافظ أبو الربيع بن سالم، الذي قال عنه الذهبي في [سير أعلام النبلاء]: (قال الأبار كان غاية في الورع والصلاح والعدالة ولي خطابة المرية ودعي إلى القضاء فأبى ولما تغلب العدو نزح إلى مرسية وضاقت حاله فتحول إلى فاس ثم إلى سبتة فتصدر بها وبعد صيته ورحل إليه الناس وطلب إلى السلطان بمراكش ليأخذ عنه فبقي بها مدة ورجع حدثنا عنه عالم من الجلة سمعت أبا الربيع بن سالم يقول صادف وقت وفاته قحط فلما وضعت جنازته توسلوا به إلى الله فسقوا وما اختلف الناس إلى قبره مد الأسبوع إلا في الوحل)، وروى عنه أنه توسل بقبر محمد بن عبيد الله الحجري (2).

ومنهم الحافظ أبو الشيخ الأصبهانى: الذي ذكر له الذهبي قصة لو حصلت لغيره لما ترددوا في رميه بالشرك الجلي، فقد روى عن أبي بكر بن أبي علي: قال كان ابن المقرئ يقول كنت انا والطبراني وأبو الشيخ بالمدينه فضاق بنا الوقت فواصلنا ذلك اليوم، فلما كان وقت العشاء حضرت القبر، وقلت: يا رسول الله الجوع، فقال لي الطبراني: اجلس فإما ان يكون الرزق او الموت، فقمت أنا وأبو الشيخ، فحضر الباب علوي ففتحنا له، فإذا معه غلامان بقفتين فيهما شيء كثير، وقال شكوتموني إلى النبي ﷺ رأيته في النوم فأمرني بحمل شيء اليكم) (3)

ومنهم الحافظ أبو زرعة الرازى: الذي ذكر له المناوي هذه القصة: (.. أن عليا الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين لما دخل نيسابور كان في قبة مستورة على بغلة شهباء، وقد شق بها السوق، فعرض له الإمامان الحافظان أبو زرعة الرازي وابن أسلم

1() طبقات الصوفية، محمد بن الحسين بن محمد، أبو عبد الرحمن السلمي، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ 1998م، ص 81.

2() سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الحديث- القاهرة، الطبعة: 1427هـ-2006م، (21 / 251 -253)

3() المرجع السابق، (16 / 400)

الطوسي ومعهما من أهل العلم والحديث من لا يحصى، فقالا: أيها السيد الجليل ابن السادة الأئمة بحق آبائك الأطهرين وأسلافك الأكرمين إلا ما أريتنا وجهك الميمون، ورويت لنا حديثا عن آبائك عن جدك نذكرك به، فاستوقف غلمانه وأمر بكشف المظلة وأقر عيون الخلائق برؤية طلعته، فكانت له ذؤابتان متدليتان على عاتقه، والناس قيام على طبقاتهم ينظرون ما بين باك وصاخ ومتمرغ في التراب ومقبل لحافر بغلته، وعلا الضجيج، فصاحت الأئمة الأعلام: معاشر الناس انصتوا واسمعوا ما ينفعكم ولا تؤذونا بصراخكم، وكان المستملي أبو زرعة والطوسي، فقال الرضا: حدثنا أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه علي زين العابدين عن أبيه شهيد كربلاء عن أبيه علي المرتضى قال حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله قال حدثني جبريل عليه السلام قال حدثني رب العزة سبحانه يقول كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي، ثم أرخى الستر على القبة وسار، فعد أهل المحابر والدواوين الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفا)(1)

ومنهم المحدث أبو على الخلال: قال الخطيب البغدادي: (أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي، قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال، يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر، فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب)(2)

ومنهم الحافظ ابن القيسرانى: قال الذهبي في تذكرة الحفاظ: (قال أبو الربيع بن سالم الحافظ كان وقت وفاة أبي محمد بن عبيد الله قحط مضر فلما وضع على شفير القبر توسلوا به إلى الله في إغاثتهم فسقوا في تلك الليلة مطرا وابلا وما

1() فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي ثم المناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة: الأولى، 1356، 4/ 489.

2() تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002 م (1/ 442)

اختلف الناس إلى قبره مدة الاسبوع الا في الوحل والطين)(1)

ومنهم الحافظ ابن حبان: الذي قال في كتابه [الثقات]: (وقبره ــ أي قبر الإمام علي الرضا ــ بسنا باذ خارج النوقان مشهور يزار بجنب قبر الرشيد قد زرته مرارا كثيرة، وما حلت بي شدة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر على بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه ودعوت الله إزالتها عنى إلا أستجيب لي وزالت عنى تلك الشدة، وهذا شئ جربته مرارا، فوجدته كذلك أماتنا الله على محبة المصطفى وأهل بيته ﷺ الله عليه وعليهم أجمعين)(2)

ومنهم الحافظ ابن خزيمة الذي يسميه ابن تيمية وغيره [إمام الأئمة]، فقد ذكره الحافظ ابن حجر في التهذيب، وذكر أن الحاكم قال في تاريخ نيسابور: وسمعت أبا بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول: (خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر بن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشائخنا وهم إذ ذاك متوافرون إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضي بطوس قال فرأيت من تعظيمه يعني بن خزيمة لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيرنا)(3)، وقال الحاكم: (سمعت أبا علي النيسابوري يقول كنت في غم شديد فرأيت النبي ﷺ في المنام كأنه يقول لي صر إلى قبر يحيى بن يحيى واستغفر وسل تقض حاجتك فأصبحت ففعلت ذلك فقضيت حاجتي)(4)

ومنهم الحافظ الخطيب البغدادى: الذي روى في باب [دعاء لحفظ القرآن والحديث وأصناف العلوم] هذا الحديث عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: (من أراد أن يؤتيه الله حفظ القرآن

1() تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، 1419هـ- 1998م، 4/ 1371.

2() الثقات، المؤلف: محمد بن حبان، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى، 1393 ه = 1973، (8 / 457)

3() تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، 1326هـ، 7/339.

4() المرجع السابق، 11/ 260.

وحفظ العلم فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف بعسل ثم يغسله بماء مطر يأخذه قبل أن يقع إلى الأرض ثم يشربه على الريق ثلاثة أيام فانه يحفظ بإذن الله: (اللهم إني أسألك بأنك مسؤول لم يسأل مثلك أسألك بحق محمد رسولك ونبيك وإبراهيم خليلك وصفيك وموسى كليمك ونجيك وعيسى كلمتك وروحك..)(1) وقد أنكر بعض السلفية هذا بحجة أن الحديث موضوع، ونحن لم ننقله هنا من باب كونه حديثا، وإنما من باب إقرار الخطيب له، واعتباره له، وهذا يدل على قوله به.

هذه مجرد نماذج عن قبورية الحفاظ وأهل الحديث، والأمثلة غيرها كثير، والسلفية مدعوون إما إلى حذف التوسل والاستغاثة والتبرك ونحوها من نواقض الإيمان، واعتبارها من المسائل المختلف فيها، أو رمي سلفهم بتهمة التكفير، مثلهم مثل سائر الناس، لأن القضية خطيرة وهي مرتبطة بالتوحيد ولا محاباة فيه، و﴿اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]

4ـ الآثار ودورها في تنمية الوعي بقضايا الأمة:

وهي من أهم الآثار، ذلك أنها تتجاوز الفرد إلى المجتمع، بل تتجاوز المجتمع إلى الأمة جميعا؛ فتجعلها ـ كما أراد الله تعالى ـ أمة واحدة متماسكة يشعر بعضها ببعض، ويخدم بعضها بعضا.

وما حصل في العراق في الفترة الأخيرة من حضور تلك الأمواج البشرية الهائلة، لزيارة المراقد المقدسة في النجف وكربلاء وغيرهما، يبين مدى أهمية تلك المزارات الدينية والأدوار الكبرى التي يمكن أن تؤديها.

فتلك الزيارات كان لها دور كبير في إعادة التعريف بالإمام الحسين، وثورته، والاهتمام بإحيائها من جديد، وبث مفاهيم توعوية من خلالها، وهو ما جعل الكثير من وسائل الإعلام، وتحت الضغوطات المسلطة عليها تتوقف عن تغطيتها خشية من تسرب

(1) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، المحقق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض، (2 / 261)

آثارها على سائر المجتمعات الإسلامية.

وهذا ما يبين لنا سر وقوف الوهابية والدولة السعودية ضد المزارات الدينية، وسر ذلك التشدد مع زوار قبر رسول الله ﷺ أو زوار البقيع، أو غيرهما من المشاهد، بل إن الدولة السعودية لم تقم إلا بعد أن أزالت أكثر الآثار، وطمستها بحجة منافاتها للتوحيد، والحقيقة أن ذلك لم يكن إلا للحفاظ على وجودها، خشية من أن يكون لتلك الآثار دورها النهضوي الذي يقضي عليها.

ولهذا نرى الامام الخميني عند ذكره لفلسفة الحج وأبعاده المختلفة يركز على هذا الجانب كثيرا، بل يجعل الحج فرصة لخدمة كل قضايا الأمة، ومن رسائله في ذلك قوله: (إن من أهم أبعاد فلسفة الحج هو بعده السياسي. الذي تسعى لتغييبه والقضاء عليه جميع الأيدي المجرمة، التي استطاعت للأسف وسائل دعايتها أن تؤثر في المسلمين بحيث بات ينظر أكثر المسلمين إلى الحج على أنه مجرد مراسم عبادية جافّة وفارغة لا تُعنى بقضايا المسلمين. في حين أن الحج ومنذ ولادته، لايقل بعده السياسي أهمية عن بعده العبادي، فالبعد السياسي، بالاضافة إلى سياسيته، هو عبادة بحد ذاته)[1]

ثم يبين كيفية تنفيذ هذا البعد على أرض الواقع؛ فيقول: (على المسلمين الوافدين من مختلف البلدان لأداء فريضة الحج خصوصا رجال الدين المحترمين أن يستغلوا فرصة التقائهم هناك، لمناقشة قضايا المسلمين وأوضاعهم. أوضاعهم مع حكوماتهم، وأوضاع حكوماتهم مع القوى الشيطانية الكبرى. أوضاع رجال الدين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وتعاطيهم مع فلسفة الحج، وفي النهاية أوضاع الشعوب المسلمة بعضها مع بعض. إنها مسائل يجب التطرق إليها ومناقشتها. فالحج لهكذا أمور. ونوعاٌ من التدارس السنوي لمشاكلهم وقضاياهم والسعي لوضع حلولٍ لها ومعالجتها) [2]

ويرد على الذين ينهون عن الحديث عن السياسة في الحج،

1() صحيفة الإمام، 18/50.

2() المرجع السابق، 18/51.

ويعتبرون خدما للسلاطين وللاستكبار العالمي؛ فيقول: (وأمّا بالنسبة إلى ما يقوله معممو البلاط ووعاظ السلاطين في المنطقة وغيرها، من أنه يجب عدم تسييس الحج، فإنهم يدينون بذلك رسول الله، ويدينون خلفاء الإسلام وأئمة الهدى. إنهم يجهلون بأن الحج والسفر إلى الحج إنما كان لهكذا أمور. لأجل قيام الناس، ليدرك المسلمون ويعوا مشاكل المسلمين، لترسيخ التفاهم والمودة والإخوة بين المسلمين) (1)

وهو يعتبر أن أضرار هذا النوع من العلماء أكبر وأخطر من الضرر الذي قام به الاستكبار العالمي، يقول: (المؤسف أن تجد من بين رجال الدين المسلمين من يدينون التدخل في هكذا أمور لا سيما معممي البلاط، الذين أضروا بالإسلام أكثر مما أضرت به أمريكا، لأن هؤلاء يطعنون الإسلام من الخلف ويعزلونه باسم الإسلام وبظاهرٍ إسلامي. إما أمريكا فلا تستطيع ذلك ولهذا تفرض على أمثال هؤلاء فعل ذلك)

ثم يبين أن (الحج الحقيقي والمقبول هو الحج الحي، الحج الصارخ بوجه الظلم والظالمين، الحج الذي يدين جرائم السوفيت وجرائم أمريكا وكل المستكبرين ويتبرأ منهم وممن يواليهم، أمّا أن نذهب إلى الحج ونقوم بأداء مناسكه دون أن نهتم بأمور المسلمين بل على العكس أن نتستر على الجرائم التي تُرتكب ولا نسمح لأحدٍ بالتكلم عما يرتكب بحق المسلمين من جرائم على أيدي القوى الكبرى والحكومات العميلة لها، فإن هذا ليس بحج، أنه صورة بلا معنى)(2)

ومن أهم القضايا التي يدعو الإمام الخميني للتركيز عليها في زيارة البقاع المقدسة الدعوة للوحدة بين المسلمين، يقول: (إن الحج الذي يريده الله تبارك وتعالى والإسلام منا، هو أن نؤدي المناسك ونسعى لإيقاظ وتوعية المسلمين الآخرين بالأخطار والتحديات التي تهدد الإسلام والمسلمين، وأن ندعوهم إلى الوحدة والتوحد، ونفهّمهم لماذا ينبغي لأكثر من مليار مسلم أن يبقوا خاضعين لضغوطات القوى الكبرى التي لا تتجاوز عدة مئات

1() المرجع السابق، 18/51.

2() المرجع السابق، 18/52.

من الملايين. إن كـل هـذه المصـائب يعـود منشـأها إلى حـرف المسلمين عن مسار الإسلام الصحيح، لدرجة لا يجرؤ معها علمـاء المسلمين في جلساتهم أن يدينوا ما يرتكب بحق المسلمين)(1)

ومن القضايا التي يدعو الإمام الخميني إلى التركيز عليها في تلك اللقاءات الحديث عن القضية الفلسـطينية، يقـول: (أليس من العار على البلدان الإسلامية أن تأتي اسرائيل وتفعل بالفلسطينيين ما تفعله؟ أن يرتكبوا كل هذه الجرائم في لبنـان، والمليـار مسـلم يكتفون بالجلوس والتفـرج؟ ممن يخـاف هـؤلاء؟ ولمـاذا كـل هـذا الركون إلى الضعف، وشريان حياة الشرق والغرب بأيديهم؟)(2)

وما ذكره الإمام الخميني في الحج نجده واضحا في الزيارات أو مـا يكتب على الأضـرحة، والـتي يحـرص الـزوار عـادة على قراءتها، وبذلك يكون لها دورها في التوعية بقضايا الدين والأمة.

ومن الأمثلـة على ذلـك مـا كتب في اللوحـة المعلقـة في الضريح الخاص بكف أبي الفضل العباس، والـتي نجـد فيهـا هـذين البيتين (3):

والله لو قطعتم أني أحامي أبدا

وعن أمام صادق نجل النبي الطاهر

ونجد كذلك الأبيات التي قالها أبي الفضل العباس حينما وقف على نهر الفرات وهي:

يا نفس من بعد وبعده ما كنت أو

وهذا مـا نلاحظـه أيضـا في الزيـارات، والـتي تمتلئ بالـدعوة لحفظ الدين، والجهاد في سبيله، ومواجهـة الطغـاة والمسـتكبرين اقتداء بما فعله الأئمة، ومن الأمثلة على ذلـك مـا ورد في الزيـارة الجامعة، حيث نجد فيهـا أمثـال هـذه النصـوص الممتلئـة بالـدعوة للقيام والحركة، ففيها: (أشـهد أنكم الائمـة الراشـدون، المهـديون

1() المرجع السابق، 18/52.

2() المرجع السابق، 18/52.

3() الأماكن المقدسة في كربلاء، ص70.

المعصـــومون المكرمـــون، المقربـــون المتقـــون الصـــادقون، المصطفون المطيعون للـه، القوامـون بـأمره، العـاملون بإرادتـه، الفائزون بكرامته، اصطفاكم بعلمـه، وارتضـاكم لغيبـه.. ورضـيكم خلفـاء في أرضـه، وحججـا على بريتـه، وأنصـارا لدينـه، وحفظـة لسره، وخزنة لعلمه، ومستودعا لحكمته، وتراجمة لوحيـه، وأركانـا لتوحيـده، وشـهداء على خلقـه، وأعلامـا لعبـاده، ومنـارا في بلاده، وأدلاء على صـراطه.. فعظمتم جلالـه، وأكـبرتم شـأنه، ومجـدتم كرمـه، وأدمتم ذكـره، ووكـدتم ميثاقـه، وأحكمتم عقـد طاعتـه، ونصـحتم لـه في السـر والعلانيـة، ودعـوتم إلى سـبيله بالحكمـة والموعظة الحسنة، وبذلتم أنفسكم في مرضاته، وصبرتم على ما أصـــابكم في جنبـــه، وأقمتم الصـــلاة، وآتيتم الزكـــاة، وأمـــرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم في الله حق جهاده، حـتى أعلنتم دعوتـه، وبينتم فرائضـه، وأقمتم حـدوده، ونشـرتم شـرائع أحكامه، وسننتم سنته، وصرتم في ذلك منه إلى الرضـا، وسـلمتم له القضاء، وصدقتم من رسله من مضـى، فـالراغب عنكم مـارق، واللازم لكم لاحـــق، والمقصـــر في حقكم زاهـــق، والحـــق معكم وفيكم، ومنكم وإليكم، وأنتم أهله ومعدنه)

إلى آخـر مـا ورد في الزيـارة، وهي وكـل الزيـارات مملتئـة بأمثال هذه المعاني الحركيـة التوعويـة الـتي تجعـل القـارئ لهـا لا يفكر في نفسه فقط، وإنما يفكر في جميع المسـلمين، بـل يفكـر في كيفية إنقاذ جميع البشرية، لأداء دوره الرسـالي الـذي قـام بـه الأئمة أحسن قيام.

الخاتمة

من أهم النتائج التي نخرج بها من خلال هذه الدراسة:

1. تتفق كل الأديان السماوية على وجود آثار يعظمونها، ويزورونها، ويتبركون بها، وقد يقومون ببعض الطقوس نحوها، وهي ظاهرة تستدعي البحث عن أسرارها وأغراضها.

2. من خلال العـودة للقـرآن الكـريم والسـنة المطهـرة نجـد إشـارات واضـحة وصـريحة على شـرعية بنـاء المـزارات الدينيـة واحترامها وتعظيمها.

3. يورد التيار السلفي عادة بعض الأحاديث النبوية، الـتي قـد يفهم منها ـ بادئ الرأي ـ حرمة بناء المزارات، وحرمة زيارتها، بـل اعتبار ذلك بدعـة وشـركا، وهي كلهـا ناتجـة عن سـوء فهمـه لهـا، وعدم قدرتـه على الجمـع بينهـا وبين النصـوص المحكمـة الكثـيرة التي تدل على خلاف فهمه لها.

4. من الأساليب المهمة في مواجهة الفكر المتطرف الداعي إلى هـدم المـزارات الدينيـة بحجـة ارتباطهـا بالشـرك، التعريـف بمواقف المحققين من الفقهاء من المـدارس المختلفـة، وبـأدلتهم عليها، وبأجوبتهم على المخالفين فيها.

5. من عادة التيار السلفي أن يأتي بأقوال أخرى مناقضة لما يــذكره مخــالفوه من أقــوال، والمنهج الأســلم ليس إنكــار تلــك الأقوال، وإنما ذكر ما يخالفها من أقوال، وهـو حينهـا بين أن يقبـل بها؛ فيرجع عن رأيه، أو يقر بوجـود خلاف في المسـألة، والقاعـدة في الخلاف الفقهي عــدم الإنكــار على المخــالف، حــتى لــو لم يُستسغ دليله، لأن لكل فقيه حججه ومنهجه في الاستدلال.

6. تعتبر المدرسة الحنفية من أقدم المدارس الفقهيــة، وهي مثل غيرها من المدارس، تعتمد كتب المتأخرين سواء كانت متونـا أو شروحا أو حواشي في تدريسها لهـذا المـذهب، وهي كلهـا تنص على مشروعية بناء المزارات الدينية وزيارتها، وتختلـف مـع التيـار السلفي في ذلك اختلافا شديدا.

7. تتفق أشـهر المتـون والشـروح والحواشـي المعتمـدة في الفتوى والتدريس في المذهب المالكي على مشروعية المـزارات الدينية وزيارتها.

8. تعتـبر المدرسـة الشـافعية من أكـبر المـدارس الإسـلامية السنية؛ وقد كانت في جميع تلك المراحل تتبنى التصوف، وخاصـة على الطريقة التي قررها أبو حامد الغزالي، والـذي كـان شـافعي المذهب، واستطاع أن يطعّم المذهب الشافعي بالكثير من الـرؤى والأذواق الصوفية، ومن بينها ذلك التعلق بالأولياء والصالحين أحياء وأمواتا.

9. يخلـط الكثـيرون بين مدرسـة الحنابلـة والاتجـاه السـلفي الوهابي، فيتصورون أن كل الحنابلة سلفية، وكل السـلفية حنابلـة، والأمر ليس كذلك من الوجهين، فالسلفية يتوزعون على المذاهب الأربعـة، والحنابلـة ليسـوا سـوى من المـذاهب الإسـلامية فيـه الصوفية والأشاعرة وغيرهما من المدارس الإسـلامية، ولـذلك هم يتبنون نفس ما تتبناه تلك المدارس من آراء وعقائد ترتبـط بالآثـار والمزارات الدينية.

10. من أهم الأدوار التي تقـوم بهـا المـزارات الدينيـة حفـظ التـاريخ الـديني، ليبقى للأجيـال جميعـا، وذلـك من الأمـور المتفـق عليها عند جميع المؤرخين، لا في المزارات الدينية وحدها، بـل في جميع الآثار.

11. الـدور العلمي والمعـرفي للمـزارات الدينيـة يتجلى في توفير السند التاريخي للدين، حـتى لا يـأتي من يشـكك فيـه بحجـة عدم وجود آثـار تـدل عليـه، وفي التعريـف بـأعلام الـدين، والـذين كانت لهم مكانة خاصة بين أتباع الدين، وفي الاستبصـار بالأحـداث الدينية التي حصلت، وكانت لها عبرة خاصة لأتباع الأديان.

12. لا يقتصر الدور المرتبـط بـالمزارات الدينيـة على الـدور العلمي والمعـرفي، بـل يتعـداه إلى أدوار كثـيرة ترتبـط بالتربيـة والإصـلاح، بـل لعلهـا هي المقصـودة بالدرجـة الأولى، ولعـل ذلـك يكمن بالإضافة إلى بركات المكان وقدسيته إلى اجتماع الكثير من الناس، ومن صالحيهم وعلمائهم في محل واحد، بحيث يرى الزائر

إلى الأماكن التي يعتقد قدسيتها ما لم يكن يـراه في بلـده، ولعلـه يعود بطباع جديدة، وأحوال نفسية جديدة لم يكن ليظفـر بهـا لـولا رحلته إلى تلك الأماكن.

13. للتهيئـة النفسـية دورهـا في تحقيـق البعـد الـتربوي والإصلاحي؛ فالزائر الـذي يعتقـد قدسـية الآثـار الـتي يزورهـا يجـد نفسه يحاول الالتزام قدر الإمكـان ليعطي ذلـك المكـان حقـه من الاحترام.

14. كما يرتبـط التـاريخ الـديني بالأنبيـاء والأئمـة والصـالحين والمتقين؛ فإنـه يرتبـط كـذلك بالعتـاة والمسـتبدين والمجـرمين، ولذلك فـإن الآثـار الـتي تنبـه إلى حسـنات الصـالحين، هي نفسـها الآثار التي تدل على جـرائم المسـتبدين، والآثـار الـتي تغـرس قيم الصلاح، وتحبب فيها، هي نفسها الآثـار الـتي تزيـل قيم الانحـراف، وتنفر منها.

15. الارتباط الـروحي بـالنبي ﷺ والأئمـة المطهـرين وجميـع الأولياء والصالحين ـ عبر تقديس آثارهم وتعظيمها ــ يثمـر التوجـه الروحي إلى الله، ذلك أن علاقة الزائر بهم ليست سـوى نـوع من المحبة والولاء في الله، ولذلك؛ فـإن أول ثمارهـا هي رفـع الزائـر وترقية روحه إلى المراتب الرفيعة في سلم السلوك إلى الله.

16. من أهم الأدوار التربوية للمزارات الدينيـة تنميـة الـوعي بقضـايا الأمـة، ذلـك أنهـا تتجـاوز الفـرد إلى المجتمـع، بـل تتجـاوز المجتمع إلى الأمة جميعا؛ فتجعلهـا ــ كمـا أراد اللـه تعـالى ــ أمـة واحدة متماسكة يشـعر بعضـها ببعض، ويخـدم بعضـها بعضـا، ومـا حصـل في العـراق في الفـترة الأخـيرة من حضـور تلـك الأمـواج البشـرية الهائلـة، لزيـارة المراقـد المقدسـة في النجـف وكـربلاء وغيرهما، يبين مدى أهمية تلك المـزارات الدينيـة والأدوار الكـبرى التي يمكن أن تؤديها؛ فتلك الزيارات كان لها دور كبـير في إعـادة التعريف بالإمـام الحسـين، وثورتـه، والاهتمـام بإحيائهـا من جديـد، وبث مفاهيم توعوية من خلالها، وهـو مـا جعـل الكثـير من وسـائل الإعلام، وتحت الضـغوطات المسـلطة عليهـا تتوقـف عن تغطيتهـا خشية من تسرب آثارها على سائر المجتمعات الإسلامية.

المصادر والمراجع

ملاحظة: نظرا لكثرة المصادر والمراجع اكتفينا هنا بأهمها.

القرآن الكريم.

1. الأجوبـة المرضـية عن الأسـئلة المكيـة، الحافـظ ولي الـدين العـراقي، دراسـة وتحقيـق محمـد تـامر، مكتبـة التوعيـة الإسلامية، مصر.

2. إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد والقباب على القبور، أبو الفيض أحمد بن الصـديق الغمـاري الحسـني، طبعـة دار النفائس1419 - 1999، الطبعة الأولى.

3. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة – بيروت.

4. الآداب الشـرعية والمنح المرعيـة، محمـد بن مفلح المقدسـي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي، عالم الكتب.

5. الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر للطباعـة والنشـر والتوزيـع، بيروت - لبنان، 1414 هـ - 1994 م.

6. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسـف بن عبـد اللـه بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطـبي، تحقيـق: علي محمـد البجـاوي دار الجيـل، بـيروت، 1412، الطبعـة الأولى.

7. إسرائيل تسابق الزمن من أجل إثبـات يهوديـة القـدس بالآثـار، بسنت جميـل، جريـدة اليـوم السـابع، السـبت، 21 نوفمـبر 2015.

8. الآثار العربية الكنعانية في فلسطين، مؤسسة القـدس للثقافـة والتراث، بتاريخ 2-2-2017.

9. الآثــار والتــوراة فــي فلسطيــن..ادعــاءات وحقائــق، محمـد

حجـازي، الأحد 07 فبراير 2010.

10. إسـعاف الإخـوان الراغـبين بـتراجم ثلـة من علمـاء المغـرب المعاصـرين، محمـد بن الفـاطمي السـلمي الشـهير بـابن الحـاج، مطبعـة النجـاح الجديـدة - الـدار البيضـاء، الطبعـة الأولى – 1992.

11. الأضرحة في مصر.. مصـلحة سياسـية ودور اجتمـاعي، أسـامة الهتيمي – كاتب مصري، موقـع الراصـد، الخميس 22 ينـاير 2015.

12. أعذب المناهل في الأجوبة والمسـائل، ابن عليـوة، مطبعـة ابن عليوة، مستغانم.

13. الإقنـاع في فقـه الإمـام أحمـد بن حنبـل، موسـى بن أحمـد الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الـدين، أبـو النجـا، المحقق: عبد اللطيف محمد موسى السـبكي، دار المعرفـة بيروت.

14. الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، علاء الدين أبو الحسن علي بن سـليمان المـرداوي الدمشـقي الصـالحي الحنبلي،: دار إحياء التراث العربي.

15. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهـار، العلامـة محمـد باقر المجلسي، احياء الكتب الإسلامية.

16. البـدر الطالع بمحاسن من بعد القـرن السـابع، محمـد بن علي الشـوكاني، دار الكتب العلميـة، ط الأولى، بـيروت، 1418 هـ، ج2، ص 137. والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبدالرحمن السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، مصر.

17. بلاغات النسـاء، أبـو الفضـل أحمـد بن أبي طـاهر ابن طيفـور، صححه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والدة عبـاس الأول، القاهرة، 1326 هـ - 1908 م.

18. تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهـدي

الخطيب البغدادي، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002 م.

19. تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الرابعة.

20. تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، 1419هـ- 1998م.

21. تراث كربلاء، سلمان هادي آل طعمة، نشر: مشعر، د م، 1393 ش.

22. تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد، محمد بخيت المطيعي، ط تركيا، 1397هـ.

23. تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، الطبعة: الأولى، 1426 هـ.

24. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.

25. تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، 1326هـ.

26. الثقات، المؤلف: محمد بن حبان، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى، 1393 ه = 1973.

27. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

28. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م.

29. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، المحقق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض.

30. الجوهر المنظم في زيارة القبر النبوي المكرم، ابن حجر الهيتمي، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، مصر.

31. حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي، المحقق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

32. دراسة حول المزارات تكشف: 6 آلاف ضريح تدرّ الملايير، زهية. م، جريدة الشروق الجزائرية، 3/3/2016.

33. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، 1417هـ/1996م.

34. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، 1414 هـ.

35. دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1409 - 1989.

36. رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر

بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، دار الفكر-بيروت، الطبعة: الثانية، 1412هـ - 1992م.

37. رفع المنارة لتخريج احـاديث التوسـل والزيـارة، محمـود سعيد ممدوح، المكتبة الازهرية للتراث.

38. روح المعــاني في تفســير القــرآن العظيم والســبع المثــاني، شــهاب الــدين محمــود بن عبــد اللــه الحســيني الألوســي، المحقــق: علي عبــد البــاري عطيــة، دار الكتب العلميــة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ.

39. الزيارة في الكتـاب والسـنة، الشـيخ جعفـر السـبحاني، نسـخة إلكترونية برعاية وإشراف شبكة الإمامين الحسنين للــتراث والفكر الإسلامي.

40. السحب الوابلة على أضرحة الحنابلـة، محمـد بن عبـد اللـه بن حميـد النجـدي، المحقـق: بكـر أبـو زيـد - عبـد الـرحمن بن سليمان العثيمين، مؤسسة الرسالة، 1416 - 1996.

41. سعـادة الـدارين في الـرد على الفرقتيــن: إبـراهيم بن عثمـان السمنودي، مكتبة الإمام مالك، موريتانيـا، ط الأولى، 1426 هـ.

42. الســنن الكــبرى وفي ذيلــه الجــوهر النقي، أبــو بكــر أحمــد بن الحسين بن علي البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظاميــة الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة الأولى 1344 هـ.

43. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمـاز الـذهبي، دار الحـديث- القـاهرة، الطبعـة: 1427هـ-2006م.

44. شجرة الأحوال والمعارف، العز بن عبـد السـلام، تحقيـق: إيـاد خالد الطباع، دار الفكر، دمشق.

45. الشرح الكبير (المطبوع مع المقنع والإنصـاف)، شـمس الـدين أبــو الفــرج عبـد الـرحمن بن محمــد بن أحمــد بن قدامــة المقدســي، تحقيـق: الـدكتور عبـد اللـه بن عبـد المحسـن

التركي - الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، 1415 هـ - 1995 م.

46. الشرح الممتع على زاد المستقنع، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، 1422 ـ 1428 ه.

47. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، ومختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2003 م.

48. شفاء السقام في زياره خير الانام، تقي الدين السبكي، طبعه حيدر آباد، 1898.

49. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، 1414 – 1993.

50. صحيفة الإمام، الإمام الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني.

51. صيانة الآثار، الشيخ جعفر السبحاني، دط، دت.

52. طبقات الصوفية، محمد بن الحسين بن محمد، أبو عبد الرحمن السلمي، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ 1998م.

53. طرح التثريب في شرح التقريب، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم العراقي، دار إحياء التراث العربي.

54. الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر المعاصرة ـ دراسة تاريخية توثيقية 1903 – 1983 م ــ د. زكريا سليمان بيومي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1992.

55. علم الآثـار وصـيانة الأدوات والمواقـع وترميمهـا، غـنيم خالـد، أبيسان للنشر والتوزيع والإعلام، لبنان، ط 1،2002.

56. علماء نجد خلال ثمانيـة قـرون، عبـد اللـه بن عبـد الـرحمن بن صالح آل بسام، دار العاصمة، 1419.

57. فتح الباري شرح صحيح البخـاري، أحمـد بن علي بن حجـر أبـو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، 1379.

58. فتح القـدير، كمـال الـدين محمـد بن عبـد الواحـد السيواسـي المعروف بابن الهمام، دار الفكر.

59. الفقيـه والمتفقـه، أبـو بكـر أحمـد بن علي الخطيب البغـدادي، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الثانية، 1421هـ.

60. فيض القدير شرح الجـامع الصـغير، زين الـدين محمـد المـدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين الحدادي ثم المناوي القاهري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة: الأولى، 1356.

61. القبور والأضرحة دراسة وتقويم، خالد محمد حامد.

62. كامل الزيارات، الشيخ ابي القاسم جعفر بن محمد بن قولويـه القمي، نشر الفقاهة.

63. كشـاف القنـاع عن متن الإقنـاع، منصـور بن يـونس بن صـلاح الـــدين ابن حســـن بن إدريس البهـــوتى الحنبلى، دار الكتب العلمية.

64. كشـف السـتورعن أحكـام القبـور، محمـود سـعيد بن ممـدوح، مكتبة دار الفقيه، الإمارات، ط الأولى، 1423 هـ.

65. كشف المشكل من حديث الصحيحين، جمال الدين أبـو الفـرج عبـد الـرحمن بن علي بن محمـد الجـوزي، المحقـق: علي حسين البواب، دار الوطن – الرياض.

66. اللمع في أصول الفقه، أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسـف

الشـيرازي، دار الكتب العلميـة، الطبعـة الثانيـة 2003 م - 1424 هـ.

67. ما الذي يفعله الوهابيون وآل سعود في آثار المسلمين؟، حنان شحاتة، أستاذة في القانون. عملت في موقع ميـدل إيسـت مونيتور وتكتب حاليا في ميـدل إيسـت آي، ترجمـة وتحريـر نون بوست.

68. محـو الآثـار الاسـلامية في السـعودية بين السياسـة والـدين، الدكتور سعيد الشهابي.

69. المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيـات والتنبيـه على كثـير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة، أبو عبد الله محمـد بن محمـد بن محمـد العبـدري الفاسـي المـالكي الشـهير بـابن الحاج، دار التراث.

70. مسـاجد مصـر وأولياؤهـا الصـالحون، د. سـعاد مـاهر فهمي، مطبعـة الأهـرام التجاريـة،نشـر المجلس الأعلى للشـئون الإسلامية، 1971 م.

71. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبـد الله النيسـابوري، تحقيـق: مصـطفى عبـد القـادر عطـا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 - 1990.

72. مسـلمو أوزبكسـتان، لعبـد الـرحمن محمـد العسـيري، مجلـة (دراسات إسلامية) العدد الأول سنة 1418هـ.

73. مسـند إسـحاق بن راهويـه، إسـحاق بن إبـراهيم بن راهويـه الحنظلي، المحقق: د. عبد الغفور بن عبـد الحـق البلوشـي، مكتبة الإيمان - المدينة المنورة، الطبعـة: الأولى، 1412 – 1991.

74. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبـد اللـه أحمـد بن محمـد بن حنبـل بن هلال بن أسـد الشـيباني، المحقـق: أحمـد محمـد شاكر، دار الحديث – القاهرة، الطبعـة: الأولى، 1416 هـ - 1995 م.

75. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي – بيروت.

76. مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، محمد بن الحسن بن علي الطوسي، طبعه ايران، سنه 1896.

77. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة.

78. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م.

79. معجم الرائد، مسعود جبران دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 3، 1978.

80. المغني، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد الشهير بابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، 1388هـ - 1968م.

81. منسك الإمام خليل بن إسحاق المالكي، خليل بن إسحق المالكي، دار يوسف بن تاشفين، مكتبة الإمام مالك.

82. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، 1392.

83. موالد مصر المحروسة: بين الماضي والحاضر، عرفة عبده علي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995.

84. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي،

المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1412هـ - 1992م.

85. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر.

86. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1416هـ.

87. نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض، أحمد محمد عمر الخفاجي المصري شهاب الدين، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1421 – 2001.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب من خلال الأدلة الكثيرة الرد على الطروحات التكفيرية المرتبطة بالأضرحة والمزارات والتوسل والاستغاثة، والتي شكلت ذريعة للإرهابيين لتكفير المسلمين وقتلهم، وقد ذكرنا في الكتاب ثلاثة أنواع من البراهين على مدى شرعية ما يذكره أصحاب الرؤية الإيمانية.

1. المزارات الدينية.. والمصادر المقدسة: وقد رجعنا فيها إلى إلى المصادر المقدسة، سواء تلك التي يتفق المسلمون جميعا على قبولها من أمثال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو تلك التي يختلفون فيها من أمثال أقوال الصحابة أو أئمة أهل البيت، والتي تدل جميعا على شرعية بناء المقامات والمشاهد والمزارات الدينية.

2. المزارات الدينية.. والمدارس الفقهية: وقد حاولنا البرهنة فيه على شرعية المزارات من خلال العودة إلى المصادر المعتمدة لدى المدارس الإسلامية الكبرى، وهي المدرسة المالكية، والشافعية والحنفية والحنبلية.

3. المزارات الدينية.. وأدوارها العلمية والتربوية: وقد ذكرنا فيه الأدوار المهمة التي تؤديها المزارات الدينية، وذلك بتوضيح الحقائق المجهولة، وكشفها، والدعوة للتحقيق فيها؛ فالآثار من أكبر السجلات الحافظة لحقائق التاريخ، بالإضافة إلى أدوارها في التربية الروحية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها، والتي قد تصل إلى بث وعي سياسي في الأمة يخرجها من تبعيتها، ويحقق لها سيادتها الكاملة.